

البعد الإنساني والكوني في فكر الخدمة



إعداد وتحرير

صابر عبد الفتاح عبد العزيز المشرقي



بحوث ودراسات متخصصة
www.nesemat.com

Copyright©2022 Dar al-Inbiath

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وتحرير

صابر عبد الفتاح عبد العزيز المشرفي

اللجنة الاستشارية العلمية

أ.د. محمد صلاح عبده
أ.د. محمد جكيب
أ.د. عبد المجيد بوشبكة
أ.د. هدى درويش
أ. نوزاد صواش
د. جمال السفرتي
د. أبو زيد عبد الرحيم

الإخراج الفني

أحمد شحاتة

البريد الإلكتروني

nesemat@yahoo.com

التوزيع

دار الانبيعات للنشر، مصر

Tel. : 002 02 25379391 Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralinbiath.com

www.daralinbiath.com

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6704-21-3

رقم الإيداع

2022/7344

رقم النشر

31

القاهرة - مصر

محتويات

١ - الافتتاحية ٣

٢- فلسفة "الهجرة" في الخدمة بين النظرية والتطبيق ١٠

محمد ياسين

٣- حج من نوع آخر: سفر المعلمين للخدمة بالخارج ٢٦

ديفيد تيتنسور

٤- جمعية الإغاثة العالمية "كيمسا يوك مو (Kimse Yok Mu) نموذج تطبيقي للتنمية المستدامة في فكر الخدمة ٣٤

د. علاء علي محمود شكر

٥- مكافحة الفقر مع منظمة "كيمسا يوك مو" ٥٠

توماس ميشيل

٦- فلسفة فتح الله كولن التعليمية وتطبيقها في جنوب إفريقيا ٥٩

ياسين محمد

٧- إسهامات مدارس كولن في قيرغيزستان ٨٥

إبراهيم كلش

٨- ضرورة إصلاح التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية: الدروس المستفادة من فتح الله كولن ١٠٦

شيريل سانتوس هاتشيت

٩- مدارس كولن في شرق إفريقيا: البديل العلماني في كينيا والنهج البراغماتي للتطوير في أوغندا ١١٦

محمد كاليونجو

١٠- ملامح بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية ١٣٤

سليمان أحمد شيخ سليمان

١١- حركة الخدمة بين بناء القيم والانفتاح على الأفق الإنساني ١٥٢

إعداد وتحرير: صابر المشرفي



الافتتاحية

البعد الإنساني والكوني في حركة الخدمة

الفكر الإنساني بصيص من النور الإلهي الفائض على الوجود، والمفكرون مصايحه ينعكس منهم على من دونهم، فيهتدون به في سلوك دياجير هذه الحياة. فلولا هم لخبط السائرون في متاهاتها، لا يهتدون إلى غاية، ولا ينتهون من وجودهم إلى نهاية، لذلك ألقى في روع الناس -حتى وهم في أحط درجات التعقل- إكبار المفكرين وتعظيمهم، وتلقف أقوالهم وآرائهم. ورب أمة رزقت واحدا منهم فنقلها من الظلمات إلى النور، بعد أن عاشت قبله أجيالا تتقلب في كسف من دونها كسف، ولا تعرف الوجود ولا يعرفها الوجود.

الأستاذ كولن واحد من هؤلاء المفكرين، عرفه دارسو حركات الإصلاح مصلحًا مجددًا، وعرفه التربويون وخبراء التعليم داعيًا إلى فلسفة تعليمية قيمة تتوخى بناء الإنسان وإعادة صياغته من جديد، وعرفه العالم كله داعيًا إلى السلام ونبذ العنف والتطرف والإرهاب، وظهر ذلك جليًا في مقولته الشهيرة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر: "المسلم لا يكون إرهابيًا، والإرهابي محال أن يكون مسلمًا".

لكن فضل الأستاذ كولن لا يبرز في أفكاره الرائعة، ولا خطبه المؤثرة، ولا كتاباته الرائدة فحسب، بل يظهر أجلى وأكمل في حركة الخدمة التي تستلهم نشاطها من أفكاره، وفي المؤسسات العالمية التي تسهم في بناء الإنسان وتنميته روحيًا وعلميًّا والارتقاء به ثقافيًّا وحضاريًّا، وفي تأييد كل من يقدم خدمة للأمة خاصة، وللإنسانية في تنوعها عامة، ويسعى لخيرها ومساندة ذلك الخير ومساعدته.

والخدمة بهذا المعنى تقوم على الفكرة وليس على التنظيم، ومن ثم فهي -كما يرى محمد ياسين في هذا العدد- ملكٌ لكل من يتبنى فكرتها دون قيد أو شرط، وليست حكراً على أحد بعينه أو قومية محددة، ولا ترتبط بمكان جغرافي معين بحيث لا تتجاوزه، إذ إنها ترتبط بالإنسان في أي مكان بغض النظر عن لونه ونوعه وجنسه، وبالتالي فباب الخدمة مفتوح وليس عليه حارسٌ أو بواب، وأفراد الأمة جميعهم مدعوون للولوج منه، دون أن يتقيدوا بلافتة، أو شعار، أو شخص، أو انتماء.

ولإبراز هذا البعد الإنساني والكوني في حركة الخدمة خصصنا هذا العدد من إصدارة سمات لاستجلاء بعض من سمات هذا الأفق، واكتشاف عدد من خصائصه، بدأنه بفكرة "الهجرة" التي اعتبرها الباحث محمد ياسين أحد أهم الأفكار العبقريّة التي تميّز بها فكر الأستاذ كولن، وأبرز معالم "التجديد" في الفكر الإسلامي المعاصر. فالهجرة مفهوم عظيم ومعنى نبوي جليل، لكنه تحول إلى مفهوم تقليدي حتى أصبح قاصراً على معنى تاريخي محدّد، أو ضرورة يلجأ إليها الفأزون بدينهم من الفتن، لكن هذا المفهوم قد تحول بفعل دعوة الأستاذ كولن وبفعل الخدمة ذاتها إلى معنى متجدد، حيث أصبحت "قَرَارًا" لا "فِرَارًا"، وصارت تعني التغرّب لخدمة الناس في بلدان أخرى، وأضحّت هذه هي السمة الأبرز من الناحية المرئية في حركة الخدمة.

واعتبر مفكر آخر هجر المعلمين أو طانهم وسفرهم إلى الخارج حجاً من نوع آخر؛ حيث ينطلق هؤلاء المعلمون إلى بلاد أخرى، غريبة عنهم في لغتهم وألوانهم وحياتهم وتقاليدهم، متخلّين عن حياتهم المريحة وعائلاتهم وأصدقائهم وأموالهم، ومواجهين التحديات والصعاب عن طيب خاطر، من أجل خدمة إخوتهم في الإنسانية، ومشاركتهم مهاراتهم ومعارفهم، في رحلة يعتبرونها -من حيث شعورهم بوجودها عليهم- أشبه بأداء فريضة الحج، -ومن حيث غايتهم النبيلة- أشبه برحلات أسلافهم القدماء الذين امتطوا خيولهم وسافروا إلى كل مكان لإعلاء الاسم الجليل المحمدي في كل مكان تشرق عليه الشمس أو تغرب، -ومن حيث حس المغامرة وروح الاكتشاف- أشبه برحلات رحالة العالم الإسلامي المشهورين كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما.

لقد أخذت الخدمة على عاتقها منذ نشأتها في الستينيات مواجهة التحدي الثلاثي الذي وصفه الأستاذ النورسي في مطلع القرن العشرين، "الجهل والفقر والفرقة"، وسعى الأستاذ كولن سعياً جاداً وحثيثاً لحض أبناء الخدمة وتشجيعهم على محاربة هذه الأعداء الثلاثة الخطيرة. ففي الثمانينيات من القرن العشرين المنصرم خطت الخدمة خطوات جادة في محاربة الجهل، حيث عملت على تأسيس مئات المدارس في تركيا وفي جميع أنحاء العالم، حتى وصلت إلى ١٧٠ دولة حول العالم، كما أسست العديد من الجامعات التي احتلت مكانة متميزة في أقل فترة ممكنة بفضل تفاني أبناء الخدمة في إدارتها وتحسين جودتها، وقد تناولت دراسات كثيرة فلسفة الأستاذ كولن التربوية وتطبيقاتها في المؤسسات التعليمية التي أنشأها رجال أعمال يستلمون أفكارهم من الأستاذ كولن، وقد خصصنا الإصدار العاشر من سمات للحديث عن هذه الفلسفة التي عنونت بـ"التعليم المعاصر بين سوق العمل وبناء الشخصية"^(١). وقد دلت هذه الجهود على مدى التزام مجتمع الخدمة بمحاربة ظاهرة الجهل واسعة الانتشار.

وفي حقبة التسعينيات اتجهت الخدمة إلى تأسيس مؤسسات ومراكز حوار في مختلف أنحاء العالم تشجع الحوار بين الأديان، مثل دعم مؤتمرات الأديان الإبراهيمية الدولية في حران/أورفا (عام ٢٠٠٠) وماردين (عام ٢٠٠٤)، وقد استقبلت هذه المؤسسات علماء يهود ومسيحيين ومسلمين ليدرّسوا معاً أصول التوحيد في الأديان الإبراهيمية. وتعتبر مراكز الحوار هذه محاولة مباشرة لمحاربة الاختلاف من خلال القضاء على حواجز سوء الفهم والشك وأنصاف الحقائق التي تكتنف أغلب العلاقات بين الأديان، وفي الإصدار الحادية عشرة من نسمات المعنونة بـ"قيم التسامح والجمال في فكر الأستاذ فتح الله كولن"^(٢) غطينا في مساحة كبيرة منها كيف تجلت هذه القيم مبادراتٍ حيّةً على أرض الواقع في تطبيقات أبناء الخدمة. وبعد الالتزام في الثمانينيات بمحاربة الجهل من خلال التعليم، والالتزام في التسعينيات بمحاربة الاختلاف من خلال الحوار، شهد العقد الأول من القرن الجديد بداية حركة محاربة العدو الثالث الخطير؛ الفقر، من خلال الأعمال الخيرية، وفي هذه الإصدار خصصنا دراستين جادتين حول جهود الخدمة في محاربة الفقر من خلال تقديم المعونات والإغاثة، وتأسيس منظمة "كيمسا يوك مو" لتكون التمثيل المؤسسي لهذا الشاغل؛ الدراسة الأولى للباحث الدكتور علاء شكر بعنوان:

"جمعية الإغاثة العالمية "كيمسا يوك مو" (Kimse Yok Mu?) نموذج تطبيقي للتنمية المستدامة في فكر الخدمة" بيّن فيها أن حركة الخدمة لم تكتف في مكافحتها للفقر بالتنظير، ولكنها اتخذت في هذا الشأن خطوات عملية من برامج ومشاريع خدمية وتنموية على المستويين المحلي والعالمي، ولم تدع باباً لمكافحة الفقر إلا وطرقته لتوفر بذلك مناخاً صالحاً للنهوض الحضاريّ قوامه العمل لا الشعارات.

أما الدراسة الثانية للأب توماس ميشيل فقد جاءت بعنوان: "مكافحة الفقر مع منظمة "كيمسا يوك مو" ألقى فيها مزيداً من الأضواء على تاريخ هذه المؤسسة ومشاريعها المختلفة لإغاثة المنكوبين في مختلف أنحاء العالم، وبين أنه "إذا كانت منظمة "كيمسا يوك مو" تستمد قوتها الروحانية من تعاليم الإسلام، فإن هذا لا يعني أن المعونات المقدمة للمحتاجين تقتصر على المسلمين. فإن جهود الإغاثة في حالات الطوارئ في كل من ميانمار والصين وبيرو وسريلانكا، ومبادرات توزيع اللحوم في عيد الأضحى دون تمييز على أساس الدين، تؤكد أن اهتمام المنظمة لا يقتصر على المحتاجين في الأمة الإسلامية".

ورغم تاريخ هذه الحديث نسبيا، وامتداد خدماتها إلى أماكن كثيرة في أنحاء العالم كما أوردته الدراسات، فقد تعرضت لإغلاق تعسفي من قبل النظام الحاكم في تركيا، وخسرت الساحة الدعوية بذلك - كما عبر الباحث علاء شكر - "واحدةً من أقوى الأدوات الفعالة التي كانت تحقق مقصداً مهماً من مقاصد الشريعة الإسلامية وهو فعل الخير وتقديم يد العون لكل محتاج، وتسهم بشكل عملي في تحقيق معنى عالمية الرسالة الإسلامية التي لا تفرق في عمل الخير بين مسلم وغيره".

ولا يعني ذلك توقف أبناء الخدمة عن جهودهم في مكافحة هذا العدو الخطير وهو الفقر، حيث يتابع علاء شكر في دراسته الحديث عن هذه النقطة قائلاً: "لكن أبناء الخدمة الذين أشربوا حب الخير للغير، والذين لا يعرفون للحياة لذة دون الإنفاق والعطاء لم تفت تلك الاضطهادات في عضدهم، ولم تجعل اليأس يتسلل إلى قلوبهم؛ بل ساروا على الدرب دون عجز أو توقف، وظلوا يمارسون العمل الخيري والإغاثي بكل أبعاده الإنسانية وصوره التنموية السابقة من خلال المؤسسات الخيرية التي أسسوها خارج تركيا مثل: وكالة النيل للتنمية البشرية، التي أسسها متطوعو حركة الخدمة في أوغندا، والتي تحظى بتغطية واسعة من قبل وسائل الإعلام الأوغندية لكل ما تقدمه من خدمات الصحة والتعليم، ومشاريع آبار المياه، وتوزيع لحوم الأضاحي، والمواد الغذائية إلخ. وكذا مؤسسة "تونا" (Tuna) الخيرية التابعة لحركة الخدمة والتي تأسست في عام ١٩٩٥، وتقدم يد العون لآلاف المحتاجين في جميع أنحاء رومانيا بمشاريع مختلفة؛ بل وخارج رومانيا أيضاً كما حدث في رمضان ٢٠٢١ من إرسال وجبات إفطار رمضان إلى المحتاجين في اليونان.

وكذا مؤسسة الإغاثة (حان وقت المساعدة "TIME TO HELP - YARDIM ZAMANI") التابعة لحركة الخدمة في العديد من الدول الأوروبية وغيرها، والتي تمتد أنشطتها إلى خارج دول المقر كما حدث في مارس ٢٠٢١ من تقديم المنظمة المساعدات الغذائية إلى ٢٠٠ عائلة فقيرة تقيم في ريف صنعاء وذلك بالتعاون مع شريكها داخل اليمن منظمة يمن عون.

ولمزيد من استجلاء البعد الإنساني والكوني في حركة الخدمة تتجول نسما في مدارس الخدمة شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً، فتنتقل من مدارس الخدمة في جنوب إفريقيا في دراسة يتناول فيها الباحث الفكر التعليمي لفتح الله كولن، وتطبيقه في أحد المدارس في جنوب إفريقيا. محاولاً أن يتبين في هذه الدراسة مدى كفاءة المدرسة من الناحية الأكاديمية، وفي سعيها لنشر القيم الأخلاقية العالمية. فهو يرى أن مدارس الخدمة تقدم بديلاً للمدارس الإسلامية الخاصة

والمدارس العلمانية الخاصة، فهي تختلف عن المدارس العلمانية في تركيزها على غرس القيم الأخلاقية، وتختلف عن المدارس الإسلامية في قبولها لكل الطلاب بغض النظر عن قناعاتهم الدينية. ومع تأكيده على أن هذه المدارس تتسم بالطابع العلماني فهو يرى أنها تحاول الموازنة بين احتياجات الفرد والمجتمع، حيث تركز على بناء الشخصية وغرس القيم الأخلاقية العالمية، وتوفر في الوقت ذاته مستوى ممتازاً من التعليم يؤهل الطلاب أن يكونوا مواطنين صالحين يفيدون المجتمع.

وتبرز الدراسة في نتيجتها تأكيد الأستاذ كولن على أهمية غرس القيم الأخلاقية في بيئة مدرسة علمانية، تعمل في إطار التعليم الموحد للبلد، حيث يرسل الآباء أطفالهم إلى مدارس الخدمة لأن خريجها يقبلون في جامعات وكليات مرموقة، ولأن طلابها أقل عرضة للاستجابة للمؤثرات السلبية مثل إدمان المخدرات والكحوليات. كما تجيب عن سؤال رئيسي يطراً للمسلم في جنوب إفريقيا: "لماذا أرسل طفلي إلى مدرسة علمانية بدلاً من مدرسة إسلامية؟" بالقول: لأن معلم المدرسة يجسد القيم العالمية مثل الصدق، والثقة، واحترام الوالدين، وتوقير الكبير، واحترام التراث، وحب كل البشر، وبالتأكيد فإن أولياء الأمور المسلمين يؤمنون بهذه القيم ويريدون غرسها في أطفالهم.

أما عن مدارس الخدمة في قيرغيزستان وإسهاماتها في المجتمع فقد أجرى الأكاديمي إبراهيم كلش دراسة بعنوان: "إسهامات مدارس كولن في قيرغيزستان" قام فيها بتحليل إسهامات مدارس الخدمة في تشكيل شخصية الطلاب وغرس قيم مثل الأمانة، والتسامح، والعمل الجاد، والمسؤولية، والولاء، والصبر، والشجاعة، والتعاون، وذلك بمساعدة أداة استطلاع لقياس القيم، حيث أجرى بعض اللقاءات مع الطلاب، وجمع من خلال هذه اللقاءات بيانات تركز على فكرة أين يرى الطلاب أنفسهم في المجتمع العالمي، كما أبرزت الدراسة مدى إسهام جودة مستوى التعليم وتعامل المعلمين الإيجابي مع الطلاب وأولياء الأمور في نجاح هذه المدارس. فالطلاب يتعلمون أربع لغات (الإنجليزية، والروسية، والتركية، واللغة المحلية)، إلى جانب مهارات استخدام التكنولوجيا في التعليم، ويحصلون على العديد من الجوائز في مسابقات العلوم المحلية والدولية، ولا شك أن هذه الأنشطة تزيد جودة مستوى التعليم. وبفضل جهود مدارس الخدمة وأنشطتها انفتح الدارسون على العالم الواسع، وحصل آلاف الطلاب القيرغيز على التعليم بمستوى عالٍ، ووفرت لهم هذه المنظومة التعليمية التعليم الجيد والأخلاق الحميدة، ولقيرغيزستان مواطنين متعلمين أوفياء.

ومن قيرغيزستان في قارة آسيا إلى الولايات المتحدة في قارة أمريكا الشمالية وبالتحديد مع "شيريل سانتوس هاتشيت" الأكاديمية التربوية البارزة في مجال التعليم ثنائي اللغة، وعضو هيئة التدريس في كلية التربية، جامعة شمال تكساس في دالاس، حيث ترى ضرورة إصلاح التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية وأن المدارس الأمريكية في حاجة عاجلة إلى غرس أربعة مبادئ: الحوار بين الأديان / الثقافات، وتربية الشخصية، وإشراك الوالدين وتثقيفهم، والحرص على تكامل المواد العلمية والروحانية. ومن منطلق رغبتها في إصلاح التعليم في الولايات المتحدة، ترى أن هناك دروسًا مستفادة من أعمال فتح الله كولن، يمكن بل يجب تطبيقها على المدارس في أمريكا. كما ترى أن كل المدارس الحكومية، بما فيها المدارس الدستورية الحكومية التي تستقبل مختلف الطلاب، تستطيع الاستفادة من هذا النموذج والأسس الفلسفية لمدارس كولن.

ونعود مرة أخرى إلى إفريقيا، ولكن هذه المرة في شرقها وخاصة في دولتي كينيا وأوغندا في دراسة بعنوان: "مدارس كولن في شرق إفريقيا: البديل العلماني في كينيا والنهج البراغماتي للتطوير في أوغندا" حيث يرى الباحث أن مدارس الخدمة في كينيا قامت بدور مزدوج؛ فقد قدمت البديل العلماني عن المدارس المسيحية التبشيرية، والمدارس الإسلامية، وكانت حاجزًا لمنع الصراعات العرقية الدينية المحتملة بين القبائل المسيحية المحلية في كينيا والأقلية المسلمة الممكنة سياسيًا.

ومن خلال هذه الجولة العالمية المحدودة في مدارس الخدمة في أنحاء متفرقة من العالم يمكن القول إن فلسفة الأستاذ كولن التعليمية اكتسبت البعد الكوني على مستوى الأفكار، وتعزز ذلك بالممارسات العملية الميدانية على أرض الواقع، والتي أكد عليها كتاب متعددو الجنسية ومتنوعو الخلفيات الثقافية في هذه الدراسة، حيث ترسخ في نفوس طلابها القيم الإنسانية المشتركة، وتعزز فيهم إنسانيتهم وحبهم لأوطانهم وعملهم على خدمته مهما كانت الظروف مختلفة، والبيئات متنوعة، وتساهم في نزع فتيل الأزمات والصراع، وانزواء كل فئة في جانب بمعزل عن سائر الفئات الأخرى رغم أنهم يعيشون في وطن واحد ويتشاركون نفس الهموم الحياتية والمعيشية.

وتعزيزًا لهذا البعد الكوني فقد تُرجمت أدبيات الأستاذ كولن إلى لغات متعددة، ونشطت حركة ترجمة أفكاره ومؤلفاته إلى لغات كثيرة ومنها العربية، ومن ثم وصلت هذه الأفكار إلى النخب المثقفة والقارئة في العالم العربي واطلعوا عليها وأبدوا آراءهم المختلفة حولها،

وفي هذه الإصدار نعرض قراءة الباحث "سليمان أحمد شيخ سليمان" لأحدث ما ترجم من كتب للأستاذ كولن وهو كتاب بعنوان: "ملامح بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية" الصادر عن دار الانبعاث في القاهرة - ٢٠٢٢، وقد جاء في ٤٦٤ صفحة. ويتكون من مقدّمة وفصلين وخاتمة، حمل الفصل الأول عنوان: البنية الاجتماعية، والفصل الثاني عنوان: البنية الاقتصادية، في رسالة واضحة وصريحة إلى أن البنية الاجتماعية هي الأصل الذي يُبنى عليه، فإن صلحت صلحت البنية الاقتصادية، وإلا فلا. ثم جاءت الخاتمة لتؤكد وتلخّص نتائج الكتاب.

هذا وقد دأبت نسمة مؤخرًا على إجراء لقاءات مع عديد من المفكرين والأكاديميين والإعلاميين والمنتقنين والباحثين والكتاب العرب الذين التقوا بفكر الخدمة وعانوا مؤسساتها عن قرب واطلعوا على كتابات الأستاذ كولن وبحثوا عن أفكاره، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور صلاح سليمان: مستشار مدير مكتبة الإسكندرية، وخبير التنوع البيولوجي، والمرحوم الراحل الأستاذ هاني رسلان، مستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية والخبير في شؤون السودان وإفريقيا.

وسوف توالي نسمة نشر هذه الحوارات التي تعد بمثابة شهادات حية من مفكرين بارزين على دور حركة الخدمة في تحويل الأفكار إلى مؤسسات على أرض الواقع، ومدى إسهامها في نشر قيم السلام والمحبة والإخاء والتعاون بين أبناء الإنسانية جميعا، والعمل على رفع مستوى الوعي التربوي والتعليمي في مختلف أنحاء العالم.

صابر عبد الفتاح المشرفي

رئيس التحرير

الهوامش

(١) يمكن تحميل الإصدار العاشرة بصيغة PDF من موقع نسمة <https://nsemat.com>

(٢) يمكن تحميل الإصدار الحادية عشرة بصيغة PDF من موقع نسمة.

محمد ياسين عبد الحميد أحمد

محمد ياسين عبد الحميد أحمد من مواليد الجيزة - مصر، بكالوريوس الهندسة المدنية، جامعة الأزهر ٢٠٠٤، وليسانس أصول الدين والدعوة، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة الأزهر ٢٠٠٨. وماجستير في الدعوة الإسلامية عام ٢٠١٧ عن أطروحة بعنوان "تجربة الشيخ فتح الله كولن الدعوية دراسة نموذج لنهضة المجتمع والأمة من خلال العمل الدعوي". وباحث دكتوراه بعنوان: "منهج الإسلام في تحقيق العمران البشري"، خطيبٌ ومحاضرٌ حرٌّ في مجال الفكر الإسلامي، ومدرب حر في مجال التطوير والتنمية الذاتية والإدارية، وباحث في فكر النهضة من منطلق قرآني وإنساني.



فلسفة "الهجرة" في الخدمة بين النظرية والتطبيق

إن من ينظر إلى الكثير من حركات الصحوة والتجديد لمعاودة النهوض بالأمة، يجد أن بعض هذه الحركات، في الكثير من جهودها انفعالية مليئة بالعواطف والأمانى والنيات الحسنة، لكنها تفتقد إلى الكثير من الفاعلية، ذلك لأنها -في معظمها- غير متجددة بالأفكار والرؤى والخطط وغير معيَّنة بالمراجعة والنقد والمحاسبة. وهنا تلوح تجربة الأستاذ فتح الله كولن في الأفق الإسلامي، كتجربة جمعت بين النظرية والتطبيق، أو بين الانفعال والفاعلية. كان بديع الزمان النورسي يرى أن منبع جميع الشرور: هو الجهل والفقر والتفرد، وقضى عمره كله في محاولة القضاء على هذه الآفات الثلاث. وعلى دربه سار تلميذه: فتح الله كولن، إذ رأى أنه ما لم تُجَهَّز الجماهير بالعلم والمعرفة، وما لم يتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم تُجابه تيارات الأفكار المنحرفة، فمن العبث الأمل في خلاص هذه الأمة. إن الأفكار التي بُني عليها الفكر الإصلاحي في تجربة الأستاذ فتح الله كولن اعتمدت على أسس معرفية تربوية، عمادها أن النهضة المجتمعية الحقيقية لا يمكن لها أن تتمكن من النفوس، إلا إذا قامت على قواعد أساسية متينة، تتبنى:

الإصلاح التربوي التعليمي: لمحاربة الجهل وتنوير الجيل الصاعد معرفيًا.
 الإصلاح الديني الاجتماعي: بنشر سبل المحبة ونزع فتيل الفرقة والاختلاف.
 هذا الوضوح في الرؤية لدى أبناء الحركة الإصلاحية التربوية للخدمة، ورسوخ هذه القناعة لدى مُلمِّهمها الأستاذ فتح الله كولن، تجلَّى في النزول من الأفق النظري للميدان التطبيقي، منذ الستينات من القرن الماضي، وبإمكانات متواضعة، لدعم إنجاح مشروع نهضوي تعليمي قيِّمي أفرغوا فيه جميع طاقاتهم عبر سنوات وعلى امتداد مئات دول العالم، في سبيل بناء أفق معرفي رائد للجيل الصاعد، وإعداده معرفيًا وتربويًا، لتحمل مسؤولية الإصلاح الاجتماعي المنشود.
 ولذا فإن أهم ما يميز تجربة الأستاذ كولن هو: تحويل الفكر إلى واقع عملي أي جعل الفكر

نموذجًا، بتحويل الفكر إلى نموذج واقعي.

يتحدَّث الأستاذ فتح الله كولن معبرًا عن طبيعة الآمال والطموحات التي كانت تشغل باله في شبابه المبكر، فيقول: "عندما كنت في الثانية أو الثالثة عشر من عمري وكنت حينئذ أدرس في تركيا، كنت أحمل كتابًا في يد وخريطة العالم في اليد الأخرى سائلًا ربي: كيف يُمكننا يا رب أن نصبح عالمًا يربطه الأمل والحب والعلم وقد حُلَّت مشكلاته الاجتماعية؟"^(١)

كانت تلك الخواطر تنضج في خاطره يومًا بعد يوم وتبلور فكرةً جامعةً ومشروعًا شاملاً قابلاً للتطبيق. لكن أهم ما يميز تلك الخواطر هو ثقة صاحبها بتحقيقها، فهو يقول: "بذرة صغيرة تنشئ شجرة باسقة. من ماء مهين نشأ هذا الإنسان العظيم، ومن قطرات الماء هدَّرت البحار وتصاخبت الأمواج، فإياك أن تستهين بالصغير فإنك لا تدري أي كبير بالغد سيكون..."^(٢)

تقوم حركة الخدمة على فكرة تعرف في أدبيات الحركة بـ "الخدمة الإيمانية"، أي: خدمة الإيمان والقرآن، ومادامت الحركة قائمة على الفكرة وليس على التنظيم، فإنها ملكٌ لكل من يتبنى فكرتها دون قيد أو شرط، وبالتالي فالباب مفتوح وليس عليه حارسٌ أو بواب، وأفراد الأمة جميعهم مدعوون للولوج منه، دون أن يتقيدوا بلافتة، أو شعار، أو شخص، أو انتماء.

ف: "ما دامت الخدمة ملكًا عمومياً يسلكه كلٌّ من امتلك الأهلية الرسالية والمعرفية، فليس لأحد أن يدعي أنه بوابه أو مالكة، لهذا يُنتظر من الأمة أن تسلك مسلك الخدمة من خلال إقبال أفراد الأمة على بذل الخدمة لأجل نهضتها، أو على الأقل تأييد كل راغب أو باذل لأجل خدمتها والرقبي بها إلى مصاف الدول والأمم الراقية، تيسيرًا للخدمة الإنسانية في تنوعها، لهذا انتهى الأستاذ إلى وصف الطريق الذي يسلكه بأنه مسلك تأييد خدمة الأمة، قال الأستاذ: "هو طريق تأييد كل من يقدم خدمة للأمة ويسعى لخيرها ومساندته ومساعدته"^(٣).

ومن هنا جاءت فكرة "الهجرة" والتي اعتبرها أحد أهم الأفكار العبقريّة التي تميّز بها فكر الأستاذ كولن، وأبرز معالم "التجديد" في الفكر الإسلامي المعاصر.

والهجرة مفهوم عظيم ومعنى نبوي جليل، لكنه تحول إلى مفهوم تقليدي فأصبح قاصراً على معنى تاريخي محدّد، أو ضرورة يلجأ إليها الفارّون بدينهم من الفتن، فإذا بها تتحوّل بفعل دعوة الأستاذ كولن وبفعل الخدمة ذاتها إلى معنى متجدد، فأصبحت الهجرة "قَرَارًا" لا "فِرَارًا"، أصبحت تعني التغرّب لخدمة الناس في بلدان أخرى، وأضححت هذه هي السمة الأبرز من الناحية المرئية في حركة الخدمة.

الهجرة بداية الانطلاق نحو الأفاق

مما لا شكّ فيه أن البدايات الأولى لـ "الخدمة" كانت تعتمد بشكلٍ أساسي على الجهد الحركي والدعوي الفردي للأستاذ فتح الله كولن، وهي المرحلة التي بدأ فيها تأسيس "بيوت الطلبة" في مدينة "إزمير"، وكانت هذه الدور تؤوي الطلبة البعيدين عن مدينة إزمير -مكان التأسيس- وتوفّر لهم جوّ المذاكرة والدراسة والتحضير للامتحانات، فكان أن لقيت هذه الخطوة نجاحاً كبيراً، فأقبل عددٌ غير قليل من التجار على إنشاء بيوت أخرى للطلبة، فتكاثرت تلك البيوت بتكاثر عدد ساكنيها من الطلبة، وكان ذلك في أوائل السبعينات. ويمكن أن نطلق على هذه المرحلة: "مرحلة التكوين" مع نجاح تجربة "الدور"، واستعداد المتطوعين للحركة على بذل المزيد من العمل والجهد جاءت فكرة إنشاء مدارس جديدة، وتم افتتاح الثلاث مدارس الأولى في عام ١٩٨٢ في مدن مختلفة، ومما ساهم في انتشار هذه المدارس واكتسابها السمعة الطيبة في المجتمع التركي، ما لمسّه أولياء الأمور من تغييرٍ ملحوظ في السلوك الاجتماعي لأبنائهم، فضلاً عن التفوق الدراسي، وما عاينوه من التفاني في العمل من المعلمين والقائمين على أمر هذه المدارس.

يقول الأستاذ أنس أركنه عن هذه المرحلة: "وفي التسعينات اشتركت المدارس -الابتدائية والثانوية- التي أنشأتها حركة المتطوعين في أنحاء تركيا في المسابقات العلمية العالمية، حيث أثبتت جدارتها في مدة قصيرة بالتناجح الجيدة التي حصلت عليها، والنجاحات الرائعة التي سجّلتها، فكان هذا دليلاً على أن هذه المدارس أرسيت على قواعد علمية رصينة، وبتعبيرٍ آخر كان هذا إشارة إلى مدى نجاح مشروع التربية والتعليم الذي بدأه الأستاذ فتح الله كولن، ووَضَعَ على عاتقه مهمة إنجازهِ"^(٤).

ثم جاءت "فكرة الهجرة" أو "مرحلة الانتشار"، فقد شهدت نهاية الثمانينات وأوائل التسعينات توسّع "الخدمة" لتعبر الحدود الوطنية وتشمل دول آسيا الوسطى التي لها نفس الخلفية الثقافية

التركية، لا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي^(٥) وتفكُّكه إلى دويلات، مما أدى إلى استقلال الدول الإسلامية التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي، ومنها ما يطلق عليه "جمهوريات الأترك" وهي: كازاخستان وقيرغيزستان وتركمانستان وأوزبكستان.

وبتأثيرٍ من الأستاذ فتح الله كولن، ومن خلال مجموعة خطب شهيرة له حثَّ رجال الأعمال، وأبناء الخدمة، والشباب المسلم أن يهاجروا إلى هذه الجمهوريات التي تحتاج إلى من يُربي أبناءها على الإسلام من جديد، بعد الإلحاد والشيوعية اللذين نشرهما الاتحاد السوفيتي في تلك الجمهوريات، ليس فقط بالمدارس، بل بالمدارس، والمستشفيات، ودور الرعاية، وغيرها. يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله بأسلوبه الأدبي: "كان فتح الله عندما يلقي كلماته المؤثرة على طلابه المخلصين، من رجال الأعمال وغيرهم، تنتصب صروحٌ لمدارس عليا أو جامعات، أو مستشفيات من الطراز الراقي، ومن ثمَّ لم تلبث دعوة فتح الله إلا نحو بضع وعشرين سنة، حتى كانت محاطة بمتاريس من أكبر مؤسسات الاقتصاد، وأقوى أجهزة الإعلام، والكثير من الرجال المخلصين لدعوتهم، ينتصبون بأكتافهم العالية في كل قطاع حيوي، أعمدة متينة ترفع صرح الأمة في الزمان الجديد"^(٦).

وهكذا، حولت حركة الخدمة، اهتمامها أيضًا إلى بلدان أخرى في أنحاء العالم من خلال المدارس، وجاءت أنشطة الحوار العالمية، خاصةً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ومحاولة البعض ربط الإرهاب بالدين الإسلامي.

وقد اتَّسمت مشاريع الخدمة بالطابع الإنساني لأولئك الذين يعانون في الدول الأشد فقرًا من خلال إنشاء منظمات مثل: "هل من مغيث؟" "Kimse Yok Mu" وبدأت أنشطة الإغاثة في جميع أنحاء العالم، وأضحَت هذه المنظمات قادرة -بما تحمله من مصداقية وحسن تخطيط وإدارة- على إغاثة مناطق الجوع والفقر، وكذلك الوصول إلى المناطق المنكوبة التي ضربتها الزلازل والأعاصير، وفي هذا السبيل بُنيت المستشفيات، وتطوع مئات الأطباء لمعالجة المرضى في بلدان إفريقيا السوداء.^(٧)

يقول الدكتور ألب أصلان دوغان: "وكان لمنظمة الإغاثة Kimse Yok Mu، التي تأسست بتشجيع من كولن، دور فعّال في تقديم المساعدات لضحايا الكوارث في جميع أنحاء العالم مثل ضحايا تسونامي في جنوب شرق آسيا، والفيضانات في بنغلاديش، والزلازل في باكستان وبيرو، والعنف العرقي والسياسي في دارفور"^(٨) وحضرت هذه الجمعية العالمية في إغاثة

المسلمين في بلدان كثيرة، كالسودان، وإندونيسيا، وأفغانستان، وقيرغيزستان، وأوزبكستان، وغيرها، إضافة إلى إغاثتها لغير المسلمين، كما في زلزال اليابان وعواصف الفليبين^(٩). يمكن أن نضيف إلى ما سبق من جهود تَمَّت من خلال الحركة: الانفتاح على العالم الإسلامي، ولا أعني فقط الانفتاح من خلال أنشطة الخدمة من حيث المشاريع التربوية والإغاثية، ولكن أيضًا البدء في حركة الترجمة لأفكار ومؤلفات الأستاذ فتح الله كولن وتأسيس مجلة ناطقة باللغة العربية "مجلة حراء"، واستكتاب العديد من الأقلام الإسلامية البارزة على صفحاتها.

فلسفة الهجرة (التغرب من أجل الإنسانية)

يأخذ مفهوم "الهجرة" شكلاً عملياً ذا بُعدٍ إيماني عند "حركة الخدمة"، بل يمكن القول إن هذه السمة العملية التي تعني: التغرُّب لخدمة الناس في بلدانٍ أخرى، هي السمة الأبرز من الناحية المرئية، في حركة الخدمة.

ويحتل مفهوم "الهجرة" من أجل خدمة "الإنسانية" مكاناً بارزاً في خطاب فتح الله كولن لأبناء الخدمة ومحبيها، بل إنه يتناول من زاوية أن الهجرة من أجل الخدمة "رحلة مقدّسة". فهو يرى أن الهجرة مسألة عظيمة تنطوي فيها معانٍ كبيرة، فكما تعني هذه الكلمة: الهجرة من بلد إلى آخر، كذلك تعني الهجرة من مبدأ ومن عقيدة إلى مبدأ وعقيدة أخرى، وتعني أيضًا هجرة الإنسان من نفسه إلى نفسه.

ويقول موضحاً مدى أهمية الهجرة لرجل الدعوة: "الهجرة أساس مهم في كل دعوة كبيرة، ولا بد من تثبيت النقطة الآتية: لا يوجد رجل دعوة كبرى، ولا رجل فكر كبير، ولا رجل تحمل عبء وظيفه عظيمة - وأنا أعني ما أقول - لم يهاجر. لقد ترك كلُّ رجلٍ دعوة البلد الذي وُلد فيه وذهب من أجل دعوته إلى بلدٍ آخر"^(١٠).

وقد ضرب مثلاً لهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام وأطلق عليه: النبي السائح في الأرض لتبليغ كلمة الله إلى كل أذن، وبالسيد المسيح عليه السلام حيث إن: أحد معاني "المسيح" هو السائح في الأرض، وهو من صيغة الفاعل أي الكثير السياحة، وبسيدنا موسى عليه السلام الذي: شَبَّ في قصر فرعون، ومع أنه تعود على حياة القصور الناعمة، إلا أنه كان أيضًا رجل هجرة.

وهكذا يؤكد كولن أنه: "لو بحثنا ودققنا في حياة الأنبياء العظام لرأينا الهجرة سمة مشتركة بينهم، ولا شك أن أكبر مهاجرٍ ضمن هؤلاء المهاجرين المباركين هو رسولنا صلى الله عليه وسلم لأن الهجرة - مثلها في ذلك مثل جميع الأمور - وصلت عنده إلى الذروة"^(١١).

لا هجرة بعد الفتح

صحيح أن الهجرة بالمعنى التاريخي في السيرة النبوية - والتي تعني الهجرة من مكة إلى المدينة - لم يُكَلَّف بها المسلمون في العصور اللاحقة، فقد روى الشيخان البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عائشة ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما، يقول ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيةٌ وإذا استنفرتم فانفروا).

يقول الإمام النووي في شرحه للحديث: "قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، وتألوا هذا الحديث تأويلين: أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، فلا تُتصوَر منها الهجرة، والثاني وهو الأصح أن معناه: أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة، لأن الإسلام قوي وعزٌّ بعد فتح مكة عزاً ظاهراً بخلاف ما قبله" ^(١٢).

لكن كولن يوجّه رجال الخدمة إلى هجرة من نوعٍ آخر، فهي ليست الهجرة بمعنى الفرار بالدين من الفتن، ولكن بمعنى: التغرب وترك الأوطان لنشر الإسلام، وخدمة الناس في مكانٍ من أرض الله الواسعة.

صحيح أنه لا هجرة إلى المدينة المنورة، لكنه يدعوهم لأن تصير كل مدينة يهاجرون إليها "منورة" بتعاليم الإسلام، يقول: "صحيح أنه لا توجد الآن" مدينة منورة"، يُهاجر إليها، ولكن ستكون هناك مدنٌ تحاول تقليد مثال "المدينة"، وبتعبيرٍ آخر لكي نستطيع المشول بين يدي صاحب المدينة ﷺ علينا أن نُشِئَ مُدُنًا عديدة، لذا لا نستطيع أن نستخف بموقف الذين رحلوا إلى أرجاء الأرض لنشر الإسلام وهاجروا في هذا السبيل، ذلك لأنهم لم يفعلوا هذا لسببٍ ماديٍّ أو لمصلحةٍ شخصية، لقد كان هدفهم هو نشر الإسلام والحصول على رضا الله تعالى" ^(١٣).

الهجرة: عولمة القيم النبيلة

إن الأستاذ فتح الله كولن صاحب فكر عالمي ينافس العولمة الغربية التي تقوم على الأثرة والاستغلال، واعتبار الإنسان مجرد سلعة ووسيلة، تلك العولمة التي تقوم على أساس المنفعة المادية وحدها، وبسبب ما يعانيه البشر من ويلات وخاصة المسلمين، فقد استشعر الأستاذ كولن المسؤولية، وأعدَّ تلاميذه للمساهمة في تربية العقول، وإصلاح ذات البين، وإغاثة الملهوفين، ومساعدة المحتاجين.

"ورغم تغرّب أبناء الخدمة عن بلدهم في مجاهل آسيا وأدغال إفريقيا، إلا أنهم لا يشعرون بالغربة فقد علّمهم أستاذهم أن الغريب ليس الذي ابتعد عن وطنه وبيته وأصدقائه وأحبّائه، بل هو الذي لا يفهم الناس مبادئه العالية وتضحياته الغالية، وقد قرر كُولن بهذا الصدد أن "من كانت همّته أُمته فهو وحده أمة"، ولذلك لم يجد عشرات الآلاف من "وُرود وأزهار" تركيا غضاضةً في الانتقال إلى بلدان مليئة بالأعاصير وبالأسواق من مختلف الأصناف"^(١٤).

المهاجرون: أبطال المحبة ومهندسو الروح

في حوارٍ أجرته جريدة "الشرق الأوسط" مع الأستاذ فتح الله كولن في ٢٤ مارس ٢٠١٤ سئل: هل تنظرون إلى ملايين الأتباع ومئات المدارس التي أنشأوها في جميع أنحاء العالم كحركة واحدة؟

فأجاب الأستاذ فتح الله كولن: "لا أرى من المناسب تسمية هؤلاء بـ"الأتباع"، سواء لي أو لأي شخص آخر. لذلك، فقد أكدت مرارًا أنه يؤلمني كثيرا نسبة الناس إلى شخصي الضعيف وإلحاقهم بي تحت عناوين مختلفة، كما أريد أن أؤكد أن هؤلاء الناس قد التقوا بشكل طوعي حول مشاريع وجدوها مفيدة لكل الناس. ومع أن الحركة تستهدي بقيم الإسلام، فإن مشاريعها التي يعكف عليها المتطوعون العاملون في إطارها متماشية مع القيم الإنسانية الهادفة إلى تعزيز الحريات الفردية وحقوق الإنسان والتعايش السلمي بين جميع الفئات، ومن ثم وُجِدَت ترحيبًا في ١٦٠ دولة حول العالم، ولقيت قبولاً صريحاً أو ضمناً مباشراً أو غير مباشر من جنسيات ودول وأديان مختلفة"^(١٥).

وهو يؤكد أن هؤلاء المتطوعين لا يشكلون بنية متجانسة، سياسياً أو عرقياً، وأنهم التقوا على قيم إنسانية مشتركة، من منطلق إسلامي خالص.

وقد اختصر كولن هذه القيم الإنسانية السامية المشتركة: كالحريات، وحقوق الإنسان، واحترام المعتقدات، وتقبل الآخر، والانفتاح على الحوار.

وتنزيه الدين عن الأغراض السياسية الحزبية الضيقة، واحترام القانون، ورفض استغلال إمكانات الدولة استغلالاً سيئاً، وضرورة المحافظة على المسار الديمقراطي، ورفض استخدام السلطة لإكراه الأفراد والمجتمعات على معتقدات معينة. والثقة بالمجتمع المدني، وتوظيف التعليم لإحلال ثقافة السلام في المجتمعات. وابتغاء مرضاة الله في كل قول وفعل، ومحبة الخلق من أجل الخالق، وتعزيز منظومة القيم الأخلاقية لدى الأفراد بغض النظر عن قيمهم الدينية أو غير الدينية.

هؤلاء الناس الذين تجمعهم القيم السابقة مع تنوعهم يتمتعون بوحدة روحية، ووعي جماعي، بحيث لا يمكن لأي جهة خارجية التلاعب بهم بهدف خرق القيم الأنفة الذكر^(١٧).

الأرواح التي وصلت إلى الحق بواسطة الهجرة

في كتاب له بعنوان "شدُّ الرِّحالِ إلى غايةٍ سامية"، يشير فتح الله كولن إلى الهدف الأسمى من الهجرة، وهو: إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض، ابتغاء وجهه سبحانه، كما فعل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

يقول: "الحقيقة أن أولئك الناس الذين تركوا منازلهم ودورهم وأوطانهم، وشدُّوا الرحال بهدف تبليغ رسالة الإسلام إلى كل أنحاء العالم هم في سبيلهم للحصول على رضا الحق تعالى بواسطة إعلاء كلمة الله. إن نجاح هؤلاء في المناطق الجغرافية المتباينة يُعتبر مؤشراً على التأييد الإلهي، بالرغم من أنهم لم يحصلوا على دورات في فن التعايش مع أصحاب الثقافات والآراء المختلفة في عصر العولمة، وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن هذه الخدمات المنجزة وافقت المراد الإلهي؛ هؤلاء الذين ساحوا في الطرق في سبيل فكرة مثالية سامية بتواضعٍ وخجلٍ وكرانٍ للذات، استناداً إلى أسس: العجز، والفقر، والشكر، والتفكير، والشفقة"^(١٧).

وعلى أثر هذا فإن أبناء الخدمة اليوم منتشرون في أكثر بلدان العالم، سواء البلدان المجاورة لتركيا جغرافياً، أم البعيدة عنها، البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، يقيمون صروح العلم، يشيدون المدارس، وينيون صروح الحوار بين مختلف الثقافات، يواجهون بصمت محاولات التنصير المستمرة في إفريقيا السوداء وغيرها من الدول الفقيرة، ليس بالخطب الرنانة، ولا بالهجوم اللاذع، بل بالعمل الدؤوب دون كلل أو ملل.

وقود الهجرة: التفاني في الخدمة وكران الذات

الأستاذ كولن يكتفي بتعريف تلاميذه بأنهم خدام لدينهم ووطنهم وأمتهم وإخوانهم في الإنسانية، ولهذا عُرفت جهودهم بـ "حركة الخدمة"، وهو أكثر الأسماء تعبيراً عن مضمونه الحقيقي. ورغم بساطة الاسم إلا أنه يحمل في طياته معاني كبيرة، على خلاف ما هو شائع في عصرنا هذا، فالأسماء عادة ما تكون كبيرة، لكن "الأفعال" صغيرة.

وهذا العنوان (الخدمة) بقدر ما فيه من معاني التواضع، فإنه يدل على الجدِّية الكاملة، فالسنبلة الممتلئة لا تشمخ بأنفها إلى السماء وإنما تنحني تواضعاً بعكس السنبلة الفارغة، والإناء الفارغ أعلى صوتاً من الإناء الممتلئ. وواضح أن سمتي كران الذات والتفاني في الخدمة، هما من المعاني التي استفادها كولن من اتصاله الوثيق بالصوفية، واستمدت الحركة منها الزاد الروحي.

فقد: "وصل التفاني في "الخدمة" إلى حد "الفناء" فيها، لأنها كحركة أنكرت ذاتها، واحتقرت ما تقدّمه لأمتها، بسبب تركيزها الدائم على ما يجب أن يكون وليس على ما قد كان، أي إنهم لا يستحضرون ما فعلوا، ولكن ما يجب أن يفعلوا مما تحتاج إليه مجتمعاتهم لكي تسعد في دنياها وتفوز في آخرها، وكأنه بهذا يطبق ما قاله أبو سليمان الداراني: "مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ قِيَمَةً لَمْ يَذُقْ حَلَاوَةَ الخِدْمَةِ". فكان كُولْن أقوى مَنْ استوعب هذه العبارة الصوفية وجسّدها في حياته^(١٨).

فعند تفسيره لقوله تعالى: "فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ" (الشرح: ٧)، يقول كولن: "تقدم هذه الآية الكريمة للمسلم فلسفة حركية مهمة ودستورًا للحياة، أجل يجب أن يكون المؤمن في حركة دائبة في كل حين، وإذا قمنا بتقييم هذه المسألة في إطار الخدمة الإيمانية، فإننا نرى انعكاس هذا الدستور القرآني في حياتنا دون أن نشعر. وفي السابق قام بعض الأغنياء بالتبرع للطلاب الأذكياء من الفقراء وإسكانهم خدمةً للأمة، وبعد مدة شعروا أنهم قد أدّوا مهمتهم وركنوا إلى الدعة وإلى مشاغل الحياة فإذا بأبواب خدماتٍ جديدةٍ وواسعةٍ تفتح أمامهم وتدعوهم لتذوق أذواق خدماتٍ جديدة، كانت القلوب المخلصة تتساءل بقلق: أيمن أن تنتهي هذه الأنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألا توجد هناك ساحات أخرى وساحات أوسع؟، فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تفتح أمامهم، وإذا بهم يتذوّقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويتجرّعون كؤوسها مُترعةً"^(١٩).

وبروح التفاني في العمل، والفناء في ذات الله، تقدمت "الخدمة" خطواتٍ هائلةً في كل ميدان، فلقد تفوّق أهل الخدمة في الفاعلية التي عُرفت عنهم واشتهروا بها، وذلك بسبب التوسع الأفقي والعمق الرأسي في هذه الخدمات، حيث خاضوا كل مجالات الخدمة، وجمعوا في كل مجال منها بين الإخلاص الدعوي والإتقان المهني، ولذلك تسابق الناس على الاستفادة من خدماتهم مع أن عددًا من هذه الخدمات تأخذ رسومًا مقابلها، كالخدمات التعليمية والطبية، وذلك لحضور المعنى الإيماني والروحي والذي لا يفصل أي أمر دنيوي عن الآخرة، ولوجود الرسالة التي لا تُخرج أي خدمة من دائرة العبودية لله تعالى.

وإن الأستاذ فتح الله كولن ليرشدهم ويوجههم على الدوام أن يجمعوا بين روح التفاني مع عدم رؤية العمل، بل إنه يدعوهم إلى مراقبة حديث النفس.

فحديث النفس مثل: أنا فعلتُ كذا، وقلتُ بكذا، ليُقوّض ركنًا من القاعدة التي نرفعها من أجل غايةٍ عظمى في المستقبل وقد يحملنا على الأناية والغرور، أجل، لأن نكون أفرادًا عاديين في هذا الأمر لهو أتمنُّ شيء عندنا، فخيرٌ لك وأقوم أن تكون جنديًا بسيطًا بباب الله دائمًا^(٢٠).

بل إنه يتحدث عن الإمعان في ترك حظوظ النفس وهو: محو الذات أمام الحق سبحانه، ويجعل هذا المحو متناسبا تناسباً طردياً مع تحقق النجاح، وزيادة معدلات الإنجاز فيقول: "كلما عظم النجاح الذي تم على يديك، بالغ في نكران ذاتك، وأوغل في محو نفسك، وتذلل أمام الله، وانكسر بين يديه، وأمعن في العبودية له، ذلك أحرى بك كي لا تنسحق تحت أثقال أنانيتك، كان النبي ﷺ يبكي صباح مساء متضرعاً ويقول: "يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين". فإن اتخذت هذا الدعاء ورداً لك، لا يفارق لسانك ولا قلبك، فقد وقيت من الانسحاق تحت حوافر النفس الجموح"^(٢١).

ومع هذه الدعوة إلى "الفناء" في الخدمة، فهو لا يفتأ يدعو إلى التفاني في العمل والأداء، والاستمرار في العمل للدخول من عملٍ دعويٍّ إلى عملٍ دعويٍّ آخر، فلا مجال للركون إلى الراحة.

وفي درسٍ متلفز له، من ترجمة موقع مجلة حراء يقول: "لا تأتوني بشخصٍ فعل هذا الأمر العظيم، وأسس هذا الصرح العظيم، بل اتتوني بهذا البطل الذي رغم أنه أسس "مئة" مدرسة، لكنه لا يتذكر ما فعل، ومتى فعل. اتتوني بذلك الأسد الذي رغم أنه أخذ بيد الكثيرين ممن ضلُّوا طريقهم، فساقهم إلى طريق الإنسانية الحقّة، وارتقى بهم إلى القيم الإنسانية الكبرى، لكنك إن سألته عن هذا قال: لا أعرف، لا أتذكر! اتتوني بالمعجب بعمله الذي إذا فتح "إسطنبول" قال: لا أدري كيف حدث هذا، ليس لي من الأمر شيء! لا تأتوني بالمعجب بعمله الذي إذا عمل عملاً وزنه مثقال ذرة، يصوره كالجبل"^(٢٢).

الهجرة: فتحٌ وجهاد

الجهاد بمعناه الواسع الشامل يُعدُّ ركيزةً أساسيةً تنطلق من خلالها تجربة الأستاذ كولن نحو بناء مجتمعٍ سديدٍ وأمةٍ راشدة، فمن خلاله يوجّه الطاقات والقوى النفسية إلى الإبداع الحضاري، وإقامة المشاريع التربوية، وسدّ الثغرات في كل مجال، فهو يؤكد أن "الجهاد" واجب كل مؤمن، وأنه لا عذر لأحدٍ في تركه، ف"الجهاد هو عملية وصول الإنسان إلى ذاته، أو إيصال الآخرين إلى ذواتهم، فهو في أحد جوانبه بمثابة الغاية من خلق الإنسان، ولذا فهو يحمل أهمية عظيمة، وله عند الله قيمة مقدّسة"^(٢٣).

فالرجل مهمومٌ بأمته، مأخوذٌ بدعوته، نذر حياته لنهضة أمته وإحيائها، فهو يبعث الهمم، ويوقظ الضمائر، ويحيي الأرواح بهذا الدين ولهذا الدين.

انظر إليه كيف يرى الحديث الشريف الآتي: عندما سأل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الرسول ﷺ عن الخيل قال: "الخيَلُ لِثَلَاثَةِ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طَبْلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طَبْلَهَا، فَاسْتَنْتَّ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ، كَانَتْ أَرْوَاتُهَا وَأَثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وَزْرٌ فَهُوَ رَجُلٌ رَبَطَهَا فَحَرًّا وَرِيَاءً وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِيهِ وَزْرٌ عَلَى ذَلِكَ" (متفق عليه).

يقول: "وقد ذكر الخيل في الحديث لأنها أسرع واسطة للنقل والحرب لعصر معين، واليوم قد تكون سيارة وزراً على صاحبها، حيث يستعملها في السفاهة والآثام، وربما وسيلة للعداء للإسلام. وسيارة تكون ستراً لصاحبها حيث يستعملها في أمور مشروعة، وربما واسطة لرزقه ولا ينسى حق الله فيه، وسيارة أخرى نُذرت في سبيل الله، يتنقل بها صاحبها من قرية إلى أخرى ويصطحب فيها الدعاة والوعاظ إلى مواضع المحتاجين إليهم، فكل قطرة وقود تحرقها هذه السيارة، وكل قرش يصرف عليها، وحتى الغازات العادمة الخارجة منها، والأصوات الصادرة منها، والطين الذي التصق بعجلاتها.. كل ذلك يُكتب حسنات في سجل حسنات صاحبها، ولسان حاله يقول: إن الغاية من شرائي هذه السيارة هي نشر الحقائق. وغني عن التعريف أن هذا مقدّمة للأعمال الجليلة التي تتحقق بإذنه تعالى في المستقبل" (٢٤).

الجهاد هو بذل الجهد لتحقيق غاية سامية، والأستاذ كولن هو داعية من طراز فريد أسس تجربته الدعوية على أساس من التضحية والفداء، عاش حياة من البذل والعطاء، فهو ينفث في روح الشباب المجاهد حقاً أنه لا انسجام بين الدعة والراحة وبين الجهاد في سبيل الله. يقول: "فالذي لا يستطيع ترك راحته ولا يُضحي بحظوظه الشخصية وأذواقه الذاتية، لا يُنتظر منه مهمة جليلة كالجهاد، بل من العبث الانتظار. ذلك لأن المهام الجليلة لا ينهض بها إلا من يُضحى بمطامعه الشخصية وأذواقه المادية والمعنوية" (٢٥).

الهجرة: احتضان الإنسانية

من الصفات التي يحددها كولن لورثة الأرض في كتابه الرائع "ونحن نقيم صرح الروح":
العشق (٢٦).

والعشق وفق المفهوم الذي يطرحه كولن متأثراً بتعبيرات مولانا جلال الدين الرومي (الصوفي الشهير): "يعدُّ أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد. إنَّ من يُعَوِّر ويجهِّز قلبه

بالإيمان بالله وبمعرفته، يحسُّ حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... فيعيش عمره كله وسط حالات المد والجزر للعشق والموجد والأذواق الروحانية التي تحتضن الوجود كله جميعاً، ونحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب عشقاً، وأن تتعباً شوقاً، لتحقيق انبعاث عظيم^(٢٧).

العشق إذاً وفق "الرومي" و"كولن" هو (احتضان الإنسانية)، وحب كل الناس من زاوية أنهم "خلق الله"، فهو حبُّ المخلوقات من أجل الخالق سبحانه، ويسأل أحدهم جلال الدين الرومي: "ما العشق؟"، فيكون جوابه: "كن أنا تُدرك"^(٢٨)، والحال أنه لا يمكن تعلمه من قراءة الكتب والدفاتر، فرؤية الجمره في الموقد والعسل في القَيْبَة ليست علماً، فتعلم الحرقه ممن احترق، واعشق إن كنت تريد معرفة العشق^(٢٩).

وهنا نلاحظ أن أهم سمات التصوف عند كل من الرومي وكولن أنه مضادٌ تماماً لتصوف الزهد والانسحاب، بل يمكن القول بلا تردد أنه تصوف المواجهة والصراع. لكن من أهم أدوات هذه المواجهة وهذا الصراع عندهم: "الحنو على البشر، والنظر إليهم بعين الإشفاق، بل وأحياناً الفهم إلى ألوان ضعفهم، فهو عرفانٌ ينزل إلى خضم الحياة ينازلها ويقف أمامها وجهاً لوجه"^(٣٠).

وهذا التلاحم بين حب الله وحب خلقه يثمر حركةً نحو خدمة الخلق ابتغاء مرضاة الله تعالى يقول كولن: "فما من حركةٍ يمكن أن تثمر تبقى بمعزل عن العشق... وخصوصاً إن كانت الحركة أو الحمله ذات امتداداتٍ إلى العقبى. إن العشق الإلهي الذي يمكن أن نعرفه في إطار تعيين موقعنا من الله سبحانه بصفته الخالق المتعالي وصفتنا العبد العاجز الضعيف؛ واستشعار نشوة الخلق باعتبار وجودنا ظلاً لضياء وجوده "هو"؛ والإيمان بأن نيل مرضاته غاية الخلق ومقصده، والسعي لتصيدها بلا توان أو وهن، هو مصدر للقوة مكنون بالسر، ولا ينبغي أن يُهمل ورثة الأرض هذا المصدر، بل ينبغي أن يحيوه جيّاشاً وفوّاراً"^(٣١).

الهدف السامي من الهجرة (رضا الله)

إن الغاية الكبرى من وراء كل سعي في إحياء الأمة وبناء المجتمع هي: رضا الله، فسواء بعد ذلك إن تحققت نتيجة السعي أم لم تتحقق فالغاية موجودة ومتحققة.

"وحسب المنظور الإسلامي، يُعدُّ المقصود حاصلًا بنوال الهدف البديهي لكل حركة أو حملة، وهو رضا الله تعالى. فسواء بعد ذلك تحققت نتيجة الخدمات المقدمة باسم أمتنا بارتقائها إلى المكان اللائق بها في التوازن الدولي، أم لم تتحقق؛ فإن المؤمن يسعى لنوال رضاه تعالى في

كل خدمة إيمانية وكل فعالية دعوية. فهذه النظرة يتحول غيرها من الأهداف إلى أهداف إضافية واعتبارية، ومحض وسائل تؤدي إلى الهدف الحقيقي^(٣٢).
 وحين يتضح عند الداعية أو رجل الخدمة الإيمانية هذا الهدف السامي، ومراحله وطبيعته، فإن نار الشوق تُمور في وجدانه، منطلقاً إلى غايته لا يلوي على شيء.
 "تجدد وقد شرع أجنحته وحلّق مثل الطائر حيناً، وحطّ على الأرض وسار ماشياً حيناً آخر؛ فهو ميمّم وجهه نحوه سبحانه يهرول إليه دون توقف وقد احتضن كل شيء بمحبة غامرة، في كل منزل يحط رحاله فيه، يشعر بظلالٍ جديدةٍ للوصال تظلمه فيعيش بهجة "ليلة غُرس"^(٣٣) سعيدة وفي كل منحني يطفئ نار شوق، ويلتهب في الوقت نفسه بنار شوقٍ أخرى، فيبدأ بالاحتراق من جديد، ومن يدري كم مرة في اليوم يجد نفسه مغموراً بنسمات الأنس، وكم مرة يحزن ويتألم للوحشة والوحدة التي يعاني منها البؤساء الذين حُرّموا من الإحساس بهذه المواهب السنّية والإشراقات البهية"^(٣٤).

ألا ما أروعه من هدف، وما أسماها من غاية، تلك التي تجعل المسلم في إشراقٍ واحتراقٍ كل يوم، بل في كل آنٍ، لأنه ركّز همته، وجمع طاقته في هذا الهدف، فصار كشعاع الليزر الذي يفعل الأعاجيب من حزمة ضوءٍ مركّزة، فيقطع الحديد، ويصل إلى الفضاء، وكذلك من جمع شتات قلبه نحو هذه الغاية، يفتح الله به فضاءاتٍ جديدةً كل يوم.

حركة نماذجها من نفسها

يذكر د. أرجون جابان أن "الخدمة" حركة نماذجها من نفسها، بمعنى أن نموذج الخدمة الذي قدمته حركة المتطوعين بالاستفادة من فكر وفلسفة الخدمة لدى الأستاذ فتح الله؛ لا يرتبط بأي طريقة أو حزب، بل استفاد من الأفكار المتعددة، وتأسى بالصحابة، وأن تخرج كل خدمة نموذجها من نفسها.

وهذا ما يستطيع الناظر لأول وهلة أن يكتشفه عند أول احتكاكك بأنشطة الخدمة في الأقطار المختلفة.

وعلى المستوى الشخصي ورغم محدودية التجربة بالنسبة لي فقد ظللت قرابة ٤ سنوات أقرأ ما كتبه الأستاذ فتح الله كولن، وما كُتِب عن الأستاذ وعن الخدمة، وظلّلت أكتب حتى انتهيت من الرسالة^(٣٥)، ولم أكن قد عاينت ما كتبت، حتى كانت زيارتي إلى نيجيريا عام ٢٠١٧، فرأيت هناك ما تضاءلت بجانبه كتابات الكاتبين ومدح المادحين؛ رأيت مهاجري الخدمة يجوبون آفاق البلاد طولاً وعرضاً في ظروف صعبة وبلاد وعرة، يُنشئون المؤسسات التعليمية والثقافية،

لا يحول بينهم وبين رسالتهم اختلاف اللغة ولا تباين الثقافة ولا صعوبة العيش في أماكن نائية. رأيتُ مدارس على أعلى مستوى من التقنية الحديثة ومن أساليب التربية ومن جودة التعليم. ذهبنا ذات مرة إلى مدرسة تسمى "التلال الزمردية"، فإذا بها تقام على أرض زراعية في وسط قرية من قرى إحدى الولايات النيجيرية، وفي طريقنا رأيتُ أطفالاً في كتائب مبانها متهاككة لدرجة تجعلك ترى من بداخلها، ورأيتهم يكتبون على ما يشبه الألواح الخشبية قديماً. قرية فقيرة معدمة وأناس بسطاء، كيف جاء أبناء الخدمة إلى هنا؟! ما الذي أغراهم بالوصول إلى هذه الأماكن القاحلة؟! في مكان كهذا وجدتُ مدرسة التلال الزمردية شاهدة على عظمة الفكرة وروعة التطبيق، وحين قابلتُ الطلاب من أبناء نيجيريا وجلست بينهم لم أتمالك حينها دموعي من البكاء، فقد كان ما رأيتُ مدهشاً ومثيراً أكثر مما كنت أتوقع.

في الحقيقة لم تكن مدارس الخدمة على انتشارها وجودتها، ولا المستشفى النظامية على روعتها وفخامتها، ولا جامعة النيل على سعتها وتعدد مجالاتها، هي أكثر هذه المشاهدات تأثيراً في نفسي وانطباًغاً في مشاعري ووجداني.

أجل، لم تبهرني مؤسسات الخدمة على ما فيها من عناصر الإبهار بقدر ما أبهرني ذلكم العنصر البشري الذي أوجد هذه المؤسسات من الأساس، وبثَّ فيها من روحه، وعمَّرها بنفسه الإيماني، إنسان الخدمة وبطل التضحية ومهندس الروح ونموذج الفداء هو الذي أسرنِي.

لستُ أنسى -ما حييتُ- ذلك الرجل الكريم الذي كان رفيق رحلتنا ومرشدها وموجِّهنا فيها منذ أن وطئت أقدامنا أرض نيجيريا إلى أن غادرناها إلى بلادنا، كان أكبرنا سنًا، لكنه كان أعلننا همّة وأقوانا عزيمةً وأكثرنا حيويّةً وانطلاقاً، فنفتح فينا من روح عزمته، وجدّد فينا النشاط بهمته، وأحيا فينا الأمل بحيويته، فانبعثت في النفوس همّةٌ كانت راقدة، ونشطت من عقالها حيويّةٌ كانت راکدة، فإذا بنا نُنجز في يومٍ واحد ما لا يُتصوّر أن يُنجز في أيام متواليات.

أحياناً ينعد لسألك، ويحفُّ مداد قلمك، حين يكون جَيِّشَانُ مشاعرك أكبر من كل تعبير، وأعمق من كل تفسير، لقد كان أخونا الفاضل هذا بالنسبة لي أصدق بيانٍ للخدمة، وأعمق تفسير لها.

إن نسيْتُ فلا أنسى أنه -وهو الغريب في هذه الأرض، القادمٌ إليها من بلادٍ نائية- استطاع بهمته العالية، وفعاليته الفائقة وخفّة ظله المعهودة أن يجمع حول فكرة الخدمة (خدمة الإسلام والإنسانية) هذا العدد من الباحثين المتميزين والأكاديميين البارزين، والشباب الواعدين من الإخوة النيجيريين ومن غيرهم من أهل إفريقيا، ناهيك عن التواصل مع قادة الفكر والرأي الرسميين وغير الرسميين.

حين رأيت ذلكم الفارس النبيل والرجل الشهم تلوح على قسماط وجهه نضرة الرضا، وسيماء المحبة لم أكن أتخيل قط أن صاحب الوجه البشوش والذهن المتقد صاحب هم كبير، وأن بعض أهله عالقون في تركيا لا يستطيع حتى مجرد الاطمئنان عليهم - هذا ما علمته من بعض المرافقين لأنه لم يتكلم عن نفسه أو معاناته قط -، ذلك الذي يحمل حقيبة سفره على كاهليه، مهاجرًا إلى ربه، شعاره: "وعجلتُ إليك ربِّ لترضى"، يحمل عصاه في يده مرتحلًا بين البلاد، غارسًا في كل بلدٍ ينزل فيه بذرةً طيبة ونبتهً مباركة، حتى إذا ما آتت الثمرة أكلها، وأينعت ثمارها واستوت على عودها، ارتحل إلى أرضٍ أخرى قاحلة، ليغرس فيها بذورًا جديدة، ويستنبت فسائل الخير، وينشر الزهور والرياحين في كل مكان، يفعل هذا والشوق يكوي قلبه، والعشق يملأ جوانحه، ولسان حاله يردد:

يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى

و حين علمتُ بوفاة هذا البطل الهمام (الأستاذ حسين بيدار) متأثرًا بفيروس "كورونا"، هناك في تلك الأراضي البعيدة، فهمتُ حينها -ربما للمرة الأولى- قول الله تعالى: "وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ. عَلَى اللَّهِ" (النساء: ١٠٠).

و كأن الأستاذ كولن لا يرسل إخوانه وتلاميذه لكي يعودوا إليه منتصرين مزهوين بأعمال جليظة، بل لكي يفنوا ذواتهم هناك حتى يقضوا نحبهم، وتُدفن معهم أعمالهم النبيلة تمامًا كما تُدفن البذرة الأصيلة في التراب لتزهر عما قليل وتثمر فيأكل الناس من خيرها وينعموا في ظلالها.

صحيحٌ أن الفكرة التي تُقدّمها الخدمة للإنسانية فكرةٌ معقولةٌ، والأفكار المعقولة بطبيعتها جديرة بالبقاء حريّةً بالانتشار، بيد أن الأفكار الجيدة تحتاج إلى رجالٍ يُحسنون حملها، ويتفننون في عرضها ويجمعون الناس عليها، وهذا ما رأيته في هذا الأستاذ في تواضعٍ جمٍّ وأدبٍ راقٍ وتفانٍ في الخدمة ونكرانٍ للذات.

ليست القضية في شخص بعينه وإنما في نموذج إنساني يخدم البشرية من منطلق إسلامي وإنساني، نموذج يزوج في إبداعٍ بين الفكر والحركة، وفي عمقٍ بين التصوف والسلوك، وفي بساطةٍ بين الجمال الفني والمعنى الرسالي.

أوليس دور الباحث أن يُقدّم نماذج قابلة للتعميم ليستفيد الناس منها، وينسجوا على منوالها؟ وعلى حد قول الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله - "فكلُّ باحثٍ يجتهد في تفسير ظاهرة، يقدم تفسيره ويقول في تواضع: هذا هو اجتهادي وأرجو أن تختبروا صحة ما توصلتُ إليه.

الهوامش:

- (١) - ملحق مجلة حراء، فتح الله كولن، أشواق أمة، واستنهاض حضارة، عدد خاص، ص ٥
- (٢) - المرجع السابق، ص ٧.
- (٣) - مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية (مؤتمر دولي نظّمته جامعة الدول العربية ٢٠٠٩م بالقاهرة، الطبعة الأولى، دار النيل، من كلمة د. عمار جيدل، ص ٤٥٢.
- (٤) - فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، أنس أركنه، دار النيل ٢٠١٠ ص ٤٢.
- (٥) - كان تفكك الاتحاد السوفييتي رسمياً في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١، إلى ١٥ دولة مستقلة.
- (٦) - عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن، ط ١ دار النيل ٢٠١٠، د. فريد الأنصاري، ص ٣٠٩.
- (٧) - المصدر: الموقع الرسمي لـ "حركة كولن" على شبكة الإنترنت www.gulenmovement.us.
- (٨) - نقلاً عن موقع: تحالف القيم المشتركة The Alliance for Shared Values.
- (٩) - انظر: عبقرية فتح الله كولن بين شواطئ الخدمة وقوارب الخدمة، ط ١ دار النيل ٢٠١٢، د. فؤاد البنا، ص ١٥٠ - ١٥٥ بتصرف واختصار.
- (١٠) - الرد على شبهات العصر: سلسلة أسئلة العصر المحيثة، فتح الله كولن، دار النيل ٢٠١٥ ص ٢٦٨
- (١١) - المرجع السابق، ص ٢٦٩.
- (١٢) - شرح صحيح مسلم، الإمام يحيى بن شرف النووي، تحقيق، د. وهبة الزحيلي، دار السلام، ١٩٩٦م.
- (١٣) - الاستقامة في العمل والدعوة، فتح الله كولن، ط ١ دار النيل ٢٠١٥، ص ٢٧١.
- (١٤) - انظر: عبقرية فتح الله كولن بين شواطئ الخدمة وقوارب الخدمة، د. فؤاد البنا، ص ١٤٥، ١٤٦، بتصرف واختصار.
- (١٥) - نُشر هذا الحوار في كل من: جريدة الشرق الأوسط: (٢٤-٣/٢٥/٢٠١٤)، موقع الملف التركي: (٢٦/٣/٢٠١٤)، ونُشر مع مجموعة من الحوارات الأخرى في كتاب "كلمات شاهدة"، ط ١، دار النيل. القاهرة ٢٠١٥.
- (١٦) - حوار جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ ٢٤/٣/٢٠١٤.
- (١٧) - شدُّ الرِّحالِ إلى غايةٍ سامية، فتح الله كولن، ط ١، دار النيل ٢٠١٤ ص ١٧٢.
- (١٨) - عبقرية فتح الله كولن بين شواطئ الخدمة وقوارب الخدمة باختصار، د. فؤاد البنا، ص ٣١١.
- (١٩) - فتح الله كولن: أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ط ٦، دار النيل، ٢٠١٣ ص ٣٥٠.
- (٢٠) - الموشور، فتح الله كولن، ط ١، دار النيل ٢٠١٥، ص ٣٢.
- (٢١) - مقال "نكران الذات والمدد الرباني": المقال الرئيسي، مجلة حراء، العدد ٢٤، ٢٠١١.
- (٢٢) - موقع مجلة حراء www.hiramagazine.com.
- (٢٣) - الاستقامة في العمل والدعوة، فتح الله كولن، ط ١، دار النيل ٢٠١٥، ص ١٧٦.
- (٢٤) - روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ط ٦، دار النيل ٢٠١٥ ص ٧٠.
- (٢٥) - روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، فتح الله كولن، ص ١١٠.
- (٢٦) - يوضح كولن المقصود بـ "العشق"، قائلاً: "هو الرغبة التي لا تقاوم في سبيل الوصول إلى الحقيقة والكشف عنها" (المصدر: لمسات على الطريق، فتح الله كولن، ص ١٥٤).
- (٢٧) - المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٢٨) - يعني أن هذا مما يتذوقه الإنسان ولا يستطيع التعبير عنه بالألفاظ، فلإدراكه يجب أن تشعر بما يشعر به.
- (٢٩) - مولانا جلال الدين الرومي، د. جيهان أوقويجو، ط ١، دار النيل ٢٠١٤ ص ٢٠٤.
- (٣٠) - من مقدمة: المشنوي لجلال الدين الرومي، د. إبراهيم الدسوقي شتا، ص ٨، ط ١ المجلس الأعلى للثقافة، ج ٣، القاهرة، ١٩٩٧.
- (٣١) - ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ط ٦، دار النيل ٢٠١٢ ص ٣٦.
- (٣٢) - ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ط ٣، دار النيل ٢٠١٣، ص ٤٦.
- (٣٣) - من تعبيرات جلال الدين الرومي يعبر بها عن فرحة الوصال بالموت و لقاء الله تعالى.
- (٣٤) - من مقال "سمات المؤمن الحق"، مجلة حراء، العدد ٤٤، ٢٠١٤.
- (٣٥) - أطروحة ماجستير بعنوان: "تجربة الشيخ فتح الله كولن الدعوية، دراسة نموذج لهضة المجتمع والأمة من خلال العمل الدعوي" جامعة الأزهر. كلية أصول الدين بالقاهرة، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية.

دفيد تيتنسون

دفيد تيتنسون، دكتوراه في الفلسفة، جامعة موناش، ٢٠١١، باحث ومحاضر في علم الاجتماع الديني في جامعة ويسترن سيدني؛ زميل فخري بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية كلية الآداب والتربية، جامعة ديكن. اهتماماته البحثية هي الحركات الإسلامية العابرة للحدود، والسياسة والمجتمع التركي والشرق الأوسط، والدين والتنمية مع التركيز على الإسلام. له دراسات متعددة حول حركة الخدمة ومنها: "حركة كولن: المشروعات الخيرية التعليمية للمسلمين داخل تركيا وخارجها"، وفي عام ٢٠١٠ كتب "فتح الله كولن ومدارس الحب: نموذج إسلامي للمستقبل؟" وقد كتب هذه الدراسة التي بين أيدينا في عام ٢٠١٠، وكانت عبارة عن ورقة مقدمة لمؤتمر عن أهمية التعليم من أجل المستقبل: نموذج كولن، بالجامعة الإسلامية في إندونيسيا..



حج من نوع آخر: سفر المعلمين للخدمة بالخارج

يحتل السفر مكانة مهمة في العقيدة والتقاليد الإسلامية فيما يتعلق بالتواصل مع الخالق. حتى إن أحد أركان الإسلام الخمسة تفرض على كل مسلم الحج إلى مكة إذا استطاع إليه سبيلاً. وبخلاف الحج، هناك مبدأ الهجرة، حيث يكون الشخص ملزماً بالهجرة عند عدم القدرة على إقامة شعائر دينه بحرية، وهناك الزيارة أيضاً (عزيز، ٢٠٠١: ١٥٣). طلب العلم من الغايات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفر. يحث القرآن الكريم والسنة الشريفة المؤمن أن يرتحل في أرض الله ليزيد فهمه للخالق. وتضم آيات القرآن الكريم أمثلة عديدة تحض القارئ على الارتحال مثل: "فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا" (٣: ١٣٧، ٦: ١١، ١٢: ١٠٩، ١٦: ٣٦، ٢٩: ٢٠، ٣٠: ٩، ٣٠: ٢) (أوبن، ٢٠٠٦: ٣٥)، وتستخدم كلمة "رحلة" تحديداً في سورة قريش (٢: ١٠٦) في إشارة إلى رحلتي الشتاء والصيف اللتين قامت بهما قبيلة قريش شمالاً وجنوباً، والخير الذي عادتا به (جيلينز، ١٩٩٠: ٥٣). وبالمثل، تأتي الأحاديث النبوية الشريفة لتدعم آيات القرآن، وتؤكد روايات كثيرة على ضرورة السفر وطلب العلم. قال النبي ﷺ في حديث رواه الترمذي: "مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ". ومن الأقوال الأخرى المعروفة المنسوبة للنبي ﷺ قول: "اطلبوا العلم ولو بالصين" (أوبن، ٢٠٠٦: ٣٥، نيتون، ١٩٩٦: ٧).

وهكذا، أدرك المسلم أهمية السفر بوصفه عبادة تقرب إلى مرضاة الله، وتأصلت هذه الفكرة في وعيه منذ وقت بعيد (جيلينز، ١٩٩٠: ٥٣). شهدت العصور الوسطى للإسلام ظهور نوع أدبي جديد مستوحى من كلمتي الرحلة والعلم هو أدب الرحلة في طلب العلم (نيتون، ٢٠١٠). وسنبين كيف كانت هذه الكتابات مفيدة جداً في فهم دوافع معلمي حركة كولن اليوم. تلقي هذه الدراسة الضوء على أوجه الشبه بين معلمي حركة الخدمة ونظرائهم في العصور الوسطى، استناداً إلى ١٦ مقابلة أجريت مع معلمي الحركة المقيمين في الخارج. تناقش الدراسة مجموعة الأفكار المعقدة، المستمدة من تقاليد الرحلة، التي تدفع هؤلاء المرشحين لأداء ما يقومون به.

تقاليد الرحلة

يُعتقد أن أدب الرحلات قد بدأ برحلة ابن جبير (١١٤٥-١٢١٧)، التي كانت نموذجاً لكل قصص الرحلات اللاحقة. صحيح أن السبب الرئيسي الذي دفع ابن جبير لبدء رحلته هو أداء فريضة الحج، تكفيراً لذنبه بعد أن أجبره حاكم غرناطة الذي كان مساعداً له على احتساء الخمر، لكن طلب العلم كان جزءاً مهماً من رحلته الموثقة. توثق رحلته زيارته للمساجد والأضرحة والمجالس والقبور، ولقاءاته مع مختلف الشيوخ والعلماء. لهذا اختار الكثير من الرحالة الذين لحقوه أن يكون الهدف الأساسي لرحلاتهم أداء فريضة الحج. لكنها كانت في الأغلب ذريعة للانطلاق في رحلة تكشف عن عشق السفر ومجموعة أخرى من المساعي الدنيوية أو المبتذلة (نيتون، ١٩٩٣: ٤٦-٤٧). ومن الأمثلة الكلاسيكية على ذلك رحلة ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٨/٩ أو ١٣٧٧) خليفة ابن جبير. سافر لثلاثة أسباب: بوصفه حاجاً، وأستاذاً في القانون (الفقه والشريعة)، ومتصوفاً (مع إنه لم يلتزم كلياً بحياة الزهد الصوفية). ويرى روس دان (١٩٩٣) أن رحلات ابن بطوطة ومشواره لا يختلف كثيراً عن الروايات الموثقة جيداً لرحالة آخرين من شمال إفريقيا، على غرار أبو محمد العبدري، ومحمد بن مرزوق، وابن خلدون.

لعل الهدف الأساسي لرحلاتهم، إلى جانب أداء الحج وطلب العلم، هو أن يكونوا "رجال الحدود". كانوا رواداً مثقفين سافروا إلى أطراف العالم الإسلامي وعادوا بالعلم والمكانة العالية (دان، ١٩٩٣: ٦٣). كانت هناك مزايا عديدة للعب دور رجال الحدود؛ مثل ١- فرصة إيجاد عمل لم يكن متاحاً لهم من قبل في أوطانهم، ٢- فرصة اكتساب المنزلة العالية المرتبطة بطلب العلم من الخارج، ٣- ونيل الاستحسان والتقدير لدى العودة للوطن، وبالتالي زيادة مراتب تقواهم، والتي تُترجم إلى منصب خاص بانتظارهم لدى عودتهم (وأغلب المسافرين يعودون). على

سبيل المثال، مع أن ابن بطوطة كان عالمًا حياديًا، فقد طُلب منه العمل قاضيًا أثناء رحلاته، واحتفظوا له بمنصب كبير في مسقط رأسه المغرب ليشغله لدى عودته (دان، ١٩٩٣: ٣٢).

لعب رجال الحدود دورًا مهمًا في خدمة الإسلام، إلى جانب نيل بعض المزايا الشخصية. ففي فترة انتشار الإسلام، من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، حمل هؤلاء الرحالة "المتعلمون والمهذبون والعالميون إلى حد معقول" قيم الإسلام الأثري إلى أقاصي الأمة، وساعدوا في إضفاء طابع الصلاح الديني على الأنظمة الإسلامية حديثة التأسيس، مما أدى إلى تعميق الإحساس الجمعي بالهوية الإسلامية (جيلينز، ١٩٩٠).

معلمو الخدمة بوصفهم ابن بطوطة العصري

يقتدي اليوم العديد من المعلمين أتباع حركة كولن بتقاليد الرحلة التي بدأها أجدادهم، فينطلقون إلى بلاد أخرى لإعلاء كلمة الله ورسوله، وليكونوا "رجال الحدود" الذين يخدمون إخوانهم. ويعتبرونه شكلاً آخر من أشكال الحج:

"أعلم أن الحج بمعنى التوجه إلى مكة أمر آخر. لكن النبي ﷺ يقول في أحد أحاديثه إن خير الناس أنفعهم للناس. ربما شجعني هذا الحديث أن أذهب إلى هناك". (أوزجور، معلم لغة إنجليزية، كازاخستان)

وبالمثل، يقول بولنت، الذي يعمل معلمًا للغة الإنجليزية في باكستان، إنه يتبع خطوات صحابة النبي، لينشر مهاراتهم ومعارفهم في جميع أنحاء العالم:

"قيل لنا فيما مضى، إن الناس في عصر الإمبراطورية العثمانية امتطوا خيولهم وسافروا إلى بلاد مختلفة، وهذا ما فعله صحابة النبي ﷺ؛ سافروا إلى بلاد مختلفة، وعلموا أهلها الدين الجديد، وقضى أغلبهم نحبهم هناك. مات آلاف الأشخاص في تلك البلاد. كان عملهم هذا لوجه الله، ليس لأي غرض آخر. عاشوا حياة فقيرة، في ظروف صعبة، وفعلوا كل ما بوسعهم، وبذلوا أقصى ما لديهم" (بولنت، معلم لغة إنجليزية، باكستان).

واصل بولنت حديثه، مشيرًا إلى أن التمثيل (ضرب المثل) في الخارج أهم وأعلى قيمة منه في الداخل، فمن الجيد السفر و"ضرب أفضل مثل ممكن" للأشخاص في الخارج، ونشر رسالة الحركة. ترجع الأهمية الكبرى لضرب مثل جيد في الخارج إلى أن البديل أسهل بكثير؛ وهو البقاء في تركيا. أو كما يقول: "شعرتُ أنها ستكون حياة رتيبة ومملة وروتينية، أعني العمل المريح في مدرسة حكومية". لهذا اتبع بولنت خطوات أسلافه، مدفوعًا بالرغبة في المغامرة واختبار صلابته في وجه الصعاب:

يحتاج الأمر إلى قدر كبير من التفاني لأنها بيئة مختلفة. من الصعب التواجد في بيئة مع أشخاص أعراب، بعيدًا عن عائلتك وأصدقائك. هناك أصدقاء كثير هنا، وهي ميزة قيمة حقًا. يعتبر المعلمون الصعوبات والتضحيات جزءًا مهمًا من الرحلة. تحدث الكثيرون منهم عن المحن المختلفة التي واجهوها خلال إقامتهم بالخارج. داغستان معلم أحياء تركي قضى ثماني سنوات في قيرغيزستان. تحدث بالتفصيل عن الفقر والظروف الصعبة التي واجهها، وكيف تغلب على التحديات. حكى كيف كان من الضروري استخدام ثلاثة أجهزة تدفئة بسبب برودة الغرفة، وانقطاع الكهرباء عن المدينة بأكملها بعد الثامنة مساءً. وبالرغم من كل الصعوبات التي واجهها، وصف هذه الفترة من حياته بأنها "أيام جيدة جدًا"، وقال إنه كان "فخورًا جدًا بالإقامة هناك." كما تحدث آخرون عن العقبات اللغوية والثقافية، أو العمل بمقابل ضئيل أو دون مقابل لفترات طويلة:

"بالطبع كان الأمر صعبًا. كانت الطبيعة الجغرافية مختلفة، و[نظام] التعليم مختلفًا... على سبيل المثال، احتجنا إلى مترجم لنشرح لهم. وكانت هناك صعوبات أيضًا مرتبطة بعدم إتقان اللغة... ومشكلة التكيف مع البيئة والثقافة" (شتين، معلم أدب تركي، تارستان).
"لم يحصل العديد من المعلمين هناك على أجر لعدة أشهر. عملنا هناك مقابل ثلاثمائة دولار أمريكي [شهريًا] في تلك الفترة، ولم نتقاض الأجر في موعده ربما بعد مرور عشرة أشهر أو نحو ذلك" (أنيل، معلم لغة إنجليزية، كازاخستان وقيرغيزستان).

لم يكن نقص الأموال مستغربًا، خاصة في مدارس التعليم الأساسي التي كانت مجانية في الأغلب. حصل كل الطلاب في أول دفعة صغيرة على منح دراسية، شملت رسوم الدراسة والمستلزمات، في حين انتظر المعلمون أن تأتي التبرعات من رجال الأعمال ليتقاضوا أجورهم. كان هذا هو الحال في أفغانستان وكازاخستان، وجاءت كل الأموال من شركات صغيرة مرتبطة بالحركة سواء محليًا أو من الخارج، وخاصة الشركات القائمة في تركيا وألمانيا. علاوة على ذلك، حتى عندما تقاضى المعلمون أجورهم، كثيرًا ما اضطروا للتخلي عنها لمصلحة طلابهم. على سبيل المثال، أعربت إحدى الخريجات في قيرغيزستان عن امتنانها لمعلمتها التي أعطتها كل مدخراتها لتمكين من إكمال دراستها في تركيا: "عندما حضرتُ إلى تركيا... لم يتمكن والدي من دعمي ماديًا، وعرفت أن إحدى معلماتي دفعت كل [نفقاتي]، أعني نفود السفر، والتذكرة، ومصروفي. لم يتمكن والدي من فعل ذلك، وأعرف أنها في ذلك العام أعطتني

النقود ولم تحضر إلى تركيا لأنها لم تمتلك أي نقود أخرى". والأكثر غرابة قصة معلم تركي في مدرسة أفغانية تبرع للمدرسة بأجره لمدة عشرة أشهر.

بالرغم من كل هذه الصعاب والتضحيات والحرمان، جاءت آراء المعلمين إيجابية بوجه عام حول قرار ترك الحياة المريحة في تركيا. أكد أنيل، ومن قبله داغستان، مرارًا وتكرارًا أنه بالرغم من الفقر والظروف الصعبة، فإن الثلاثة عشر عامًا التي قضاها في الخارج كانت "تجربة جيدة". ينبع هذا التأكيد واستعظام التضحيات من الركائز الصوفية للحركة. يحاول كولن بأفكاره المجددة أن يجد طريقًا وسطًا بين الإسلام التقليدي والصوفية التقليدية باستخدام فكرة "رجل الأفعال". يتخلى رجل الأفعال من منظور كولن عن الزهد والإغراق فيه ليتبع رغبة روحانية داخلية تدفعه للعمل والاختلاط بالمجتمع. وتستند هذه الصورة إلى تأويلات منقحة لمبادئ أساسيين متشابهين من مبادئ الصوفية هما: الخلوة والزهد. يجب عادة على سالك طريق التصوف الاختلاء لمدة ٤٠ يومًا للتدريب على التحكم في النفس، التي تضم الغرائز الجسدية الدنيا (شميل، ١٩٧٥: ١١٢). يستطيع الشخص في هذه الفترة تهذيب جسده، وكبح رغباته، وتركيز انتباهه على التأمل والصلاة في بيئة "تعتبر بوابة للتقرب إلى الله" (كولن، ١٩٩٣: ٢٠٠٧). كما يجب على الشخص في فترة الخلوة أن يزهّد في مأكله ومشربه ليتحكم في نفسه ويهذب احتياجاته الجسدية.

غير أن كولن يرى أن مبدأ الاختلاء قد تغير بمرور الوقت، ولم يعد من الضروري قضاء فترات اختلاء طويلة كنبى الله إبراهيم عليه السلام، أو أربعين يومًا كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم. ويستند في هذا الرأي إلى ما فعله الرومي، الذي اختلى مرات عديدة في بداية حياته لمدة أربعين يومًا، ثم توقف عن ذلك وبدأ في مخالطة الناس بمجرد أن عثر على معلم حقيقي (كولن، ٢٠٠٧: ١٧).

بدلاً من الخلوة، ينادي كولن بالزهد في الحياة اليومية، وهي وسيلة أخرى لنيل رضا الله. فالزهد بمعنى كبح الرغبات الجسدية كالجوع والعطش والنوم يساعد الشخص على "اكتساب التقوى والصلاح والتقرب من الله" (كولن، ١٩٩٤: ٢٠٠٧ ب). علاوة على ذلك، يتحدث كولن في مقال الزهد الذي نُشر بمجلة "فاونتن" عن حاجة الأفراد الزاهدين إلى تحرير أنفسهم من الأطماع الدنيوية والرغبات الجسدية (كولن، ١٩٩٤: ٢٠٠٧ ب). وهذه الإشارة إلى الأطماع الدنيوية تعني على الأرجح الرغبة في جمع الثروة والمقتنيات المادية. يجب على الشخص ألا يشتهي هذه الأشياء ويجعلها محور حياته. قد تكون هذه الأفكار مذكورة بصورة ضمنية هنا، لكنه يتحدث عنها بوضوح في إحدى خطبه عن الشخص المثالي:

التضحية واحدة من أهم سمات الشخص الذي يعلّم الآخرين. إن الأشخاص الذين لا يضحون أو لا يستطيعون المخاطرة بالتضحية من البداية ليسوا أصحاب قضية. ولا يمكن أن ينجح الشخص الذي لا يتبنى قضية. إنهم الأشخاص المستعدون للرحيل بمجرد أن تستدعي الحاجة، وترك ثروتهم وحياتهم وأسرتههم ومنصبهم ومكانتهم وكل الأشياء التي يشتبهها الآخرون ويتخذونها هدفاً لحياتهم؛ لهذا فإن نجاح مساعيهم أمر حتمي وأكد (كولن، كما جاء في إرجين، ٢٠٠٨: ١٧٩).

وبالتالي، فإن الهجرة إلى أرض غريبة، وتخلي المعلمين عن حياتهم المريحة وعائلاتهم وأصدقائهم ونقودهم، تشبه "شعائر العبور" الصوفية القديمة. يواجهون التحديات والصعاب عن طيب خاطر لأنها تمنحهم وسام الشرف الروحاني الذي يقربهم إلى الله، ويرفع مكانتهم ويزيد مراتب تقواهم في الحركة. أثبت كل من سافروا إلى الخارج تفانيهم للقضية، لهذا يمكن مكافأتهم مثل ابن بطوطة بمنصب جيد لدى عودتهم إلى الوطن (وأغلب معلمي الحركة يعودون). غالبية أولئك الذين يسافرون إلى الخارج خريجون جامعيون جدد، يعودون إلى وطنهم لشغل مناصب عليا في المدارس وغيرها من مؤسسات الحركة الكثيرة. على سبيل المثال، يشغل عدد كبير من المعلمين الذين قابلتهم منصب نائب المدير أو المدير في مدارس الحركة في تركيا، أو يعملون في دور نشر أو في مؤسسة الصحفيين والكتاب. بعبارة أخرى، تساعد فترة التضحية المحدودة زمنياً على دفع الأعضاء إلى الأمام، سواء على الصعيد الروحاني أو المهني. من الضروري أن أوضح أنني لا ألمح إلى أن هذه الدفعة المهنية هدفهم الأساسي، بل إنها ميزة إضافية أو نتيجة ثانوية لمساعيهم الروحية في رحلة طلب العلم ونشره.

بعد قول ذلك، أؤكد أن مكانة هؤلاء الرحالة الجدد في الحركة محفوظة. فقد أخبرني أحد المعلمين أنهم يحصلون على احترام وتقدير الجميع:

إنهم أشخاص مميزون، يُنظر إليهم باعتبارهم مميزين، ويتم تقديمهم باعتبارهم مميزين لأنها وظيفة صعبة. يقبل الجميع هذا الجانب من السفر، وظروف بعض البلاد التي يسافرون إليها تكون صعبة جداً بالنسبة للأتراك، وأي شخص بوجه عام (لم تكن السنغال التي سافرتُ إليها كذلك). ربما تنحدر من عائلة من الطبقة المتوسطة أو أمامك فرص مختلفة متاحة في بلدك، لكنك تواجه الصعاب في تلك البلاد، لهذا فإن الأشخاص الذين يسافرون إلى هناك أرفع مكانة منا. هذا رأيي. يقدمون قدوة حسنة، فهم أشخاص مميزون ومقدرون (ميرف، معلم لغة إنجليزية، السنغال).

هناك عضو آخر في الحركة قضى سنوات طويلة في الخارج، ويشغل الآن منصبًا كبيرًا في جريدة زمان التركية. وهو يرى أن أولئك الذين لا يسافرون عبر البحار لأداء هذا الواجب يشعرون بالحزي، لأنهم أخفقوا في أداء واجبهم تجاه القضية. وبالتالي هناك نوع من المنافسة داخل الحركة لشغل هذه الوظائف في الخارج. تحدث الكثيرون عن مدى إعجابهم بالمدارس والدور الذي تقوم به، وكيف أرادوا أن يكونوا ضمن معلمي حركة الخدمة. بسبب هذه الرغبة القوية في أداء الخدمة في الخارج، يتم عقد مؤتمرات لكل مادة، والاقتراح لاختيار المعلم والبلد الذي سيذهب إليه. هذا ما حدث مع داغستان. بعد أن أتم دراسته الجامعية، حضر مؤتمرًا ضم جميع معلمي الأحياء للاقتراح على وظائف شاغرة في أمريكا الجنوبية ووسط آسيا. وكما يخبرنا: "يكون هناك اقتراح، سحبُ ورقة ونظرت فيها [فوجدت] فيرغيزستان. فسافرت إلى فيرغيزستان... بهذه البساطة". من خلال المشاركة في القرعة، نفذ داغستان نصائح قائد الحركة بيقين مطلق، واختار الخدمة قبل عائلته وأصدقائه وثروته، وهناك عدد كبير من المعلمين الذين ينتظرون بحماسة فرصة أداء هذا الواجب. على سبيل المثال، إبراهيم معلم محنك يعمل منذ تسع سنوات في مدارس الخدمة التركية في أنقرة، وما زال يأمل أن يحتذي بزملائه: "أتابع وضع المدارس هناك [أوروبا وروسيا]، لكنني لم أعمل معلمًا للغة الإنجليزية هناك... كم أود ذلك... إنه أمر مهم في رأيي، ولدي أصدقاء كثر عملوا في الخارج".

الخاتمة

يمكن أن نرى أن هذا الواجب، الذي يشبه أداء فريضة الحج، يحقق لصاحبه نفس النتيجة التي حققها لرحالة مثل ابن جبير وابن بطوطة. فهو يشبع رغبتهم في المغامرة، ويمنحهم فرصة التعلم ومشاركة معارفهم، فضلاً عن تحقيق النمو الروحاني والمهني. ينمو المسافر روحانيًا من خلال تضحياته؛ بعد ترك عائلته وأصدقائه وحياته المريحة ونبذ السعي وراء الثروات المادية لمشاركة مهاراته ومعارفه وخدمة البشرية. ومن المزايا الثانوية لاختيار هذا الطريق المليء بالتحديات والصعاب نيل وسام الشرف الروحاني الذي يميز الشخص عن سواه، ويجعله نموذجًا يحتذي به باقي أعضاء الحركة. فيحصل لدى عودته على التقدير والاحترام بفضل مكانته الجديدة، وتزداد مسؤولياته في حركة الخدمة في وطنه. من الضروري أن أوضح أنني لا ألمح إلى أن المكسب المهني هو الدافع الأساسي لتقديم الخدمة. بل تأتي المكانة العالية والوظيفة المريحة في مرتبة لاحقة بعد أداء الخدمة أو تقديم التعليم الجيد لباقي البشر^(١).

قائمة المراجع

- اتش عزيز (٢٠٠١)، "الرحلة: نظرة عامة على السياحة والسفر في السياق العربي/الإسلامي"، في دي هاريسون (محرر)، "السياحة والعالم الأقل نمواً: قضايا ودراسات حالة"، المملكة المتحدة: دار نشر كابي.
- آر إي دان (١٩٩٣)، "الهجرات الدولية للمسلمين المثقفين في أواخر الفترة المتوسطة: حالة ابن بطوطة"، في آي آر نيتون (محرر)، "الطرق الذهبية: الهجرة والحج والسفر في إسلام العصور الوسطى والحديثة"، المملكة المتحدة: دار نشر كورزون المحدودة.
- إم إيه إرجين (٢٠٠٨)، "شهادة التقليد على العصر الجديد"، نيو جيرسي: دار نشر توغرا بوكس.^(١)
- آر إل أوبن (٢٠٠٦)، "رحلات إلى الضفة الأخرى: الرحالة المسلمون والغربيون في بحثهم عن المعرفة"، برينستون، نيويورك: دار نشر جامعة برنستون.
- جيلينز (١٩٩٠)، "البحث عن المعرفة في المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى: نهج مقارن"، في دي إف إيكلمان وجيه بيسكاتوري (محرران)، "الرحالة المسلمون: الحج والهجرة والخيال الديني"، لوس أنجلوس: مطبعة جامعة كاليفورنيا.
- فتح الله كولن (١٩٩٣)، "مجلة 'فونتن'"، العدد ١٤ (١٦٨). تم الوصول عبر <http://www.kalbinzumruttepel-eri.com/fethullah-gulen-kalbin-zumrut-tepeleri-1/1865-fethullah-gulen-kalbin-zumrut-tepeleri-halvet-ve-uzlet.html>
- فتح الله كولن (١٩٩٤)، "Riyazet، مجلة 'فونتن'"، العدد ١٦ (١٩٠). تم الوصول عبر <http://www.kalbinzumruttepel-eri.com/fethullah-gulen-kalbin-zumrut-tepeleri-2/1909-fethullah-gulen-kalbin-zumrut-tepeleri-riyazet.html>
- فتح الله كولن (٢٠٠٧)، "مفاهيم أساسية في ممارسة الصوفية: التلال الزمردية نحو حياة القلب" (المجلد ١)، نيو جيرسي: دار نشر لايت.
- فتح الله كولن (٢٠٠٧ب)، "مفاهيم أساسية في ممارسة الصوفية: التلال الزمردية نحو حياة القلب" (المجلد ٢)، نيو جيرسي: دار نشر لايت.
- آي آر نيتون (١٩٩٣)، "التراكيب والإشارات الأساسية للغربة في رحلة ابن جبير"، في آي آر نيتون (محرر)، "الطرق الذهبية: الهجرة والحج والسفر في إسلام العصور الوسطى والحديثة"، المملكة المتحدة: دار نشر كورزون المحدودة.
- آي آر نيتون (١٩٩٦)، "طلب العلم: الفكرة والسفر في دار الإسلام"، أبنجودن: دار نشر كورزون في روتليدج.
- آي آر نيتون (محرر) (٢٠١٠)، "موسوعة الإسلام" (الإصدار الثاني)، ليدن: دار نشر بريل.
- إيه شيميل (١٩٧٥)، "الأبعاد الخفية للإسلام"، الولايات المتحدة الأمريكية: مطبعة جامعة نورث كارولينا.
- الحاشية السفلية [١] من الأفكار الأخرى التي ربما أثرت في كولن في هذه النقطة هي ممارسة "الخلوة في الجلوة"، التي تتبعها الطريقة النقشبندية (شيميل، ١٩٧٥).

الهوامش

- (١) أجريت هذه الدراسة قبل محاولة انقلاب ٢٠١٦ المزعم، والآن يتعرض هؤلاء المهاجرون لكل أنواع الاضطهاد والتنكيل، حيث لا يستطيعون العودة إلى بلادهم، وتطاردهم حكومة العدالة والتنمية وتطالب الدول التي يقيمون فيها بتسليمهم بدون أي سند قانوني، وتمارس أنواعاً مختلفة من الضغوط ضد الدول التي ترفض تسليمهم، وأحياناً تلجأ إلى إغراء بعض هذه الدول بمجموعة من الحوافز المغرية إذا وافقوا على تسليمهم وإغلاق مدارسهم ومؤسساتهم أو تسليم هذه المؤسسات لهيئات تابعة لهم بعد مصادرتها، وقد استجابت بعض الدول ذات الأنظمة الهشة لهذه الضغوط والحوافز، ورفضت الأغلبية من الدول التعاطي مع النظام التركي في هذا الموضوع، نظراً للتاريخ المشرف لهؤلاء المعلمين في بلادهم، وكذلك الإسهامات التي قامت بها المدارس والمؤسسات الإغائية والإنسانية والتربوية في المجتمع. ومن ثم لجأ النظام التركي إلى لون آخر من الاضطهاد حيث رفض تجديد جوازات سفرهم المنتهية صلاحيتها، ورفض أيضاً تقييد مولدهم الجديدة، وعاملتهم القنصليات في مختلف البلاد على أنهم مواطنون منبذون، وصادرت الجوازات السارية عند أي تعامل لهؤلاء المواطنين الأتراك في القنصليات. راجع التقارير التي توثق كل هذه المعلومات على صفحة نسيمات في الإنترنت من خلال هذا الرابط <https://nesemat.com/reports/> (المحرر)، ومع ذلك ما زال هؤلاء المعلمون والمهاجرون من أجل خدمة الإنسانية ابتغاء مرضاة الله يؤدون أعمالهم بكل همة ونشاط رغم هذه المضايقات، ويعتبرون هذا فصلاً من فصول المحنة التي تضاعف أجرهم، وتعلي قدرهم عند الله في الآخرة.

علاء علي محمود شكر

ليسانس أصول الدين والدعوة الإسلامية ٢٠٠٢ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، ماجستير بتقدير ممتاز في الدعوة والثقافة الإسلامية بأطروحة عنوانها: "شبهات المستشرق الألماني كارل بروكلمان حول الإسلام عرض ودحض" ٢٠١٠. دكتوراه بتقدير مرتبة الشرف الأولى برسالة عنوانها: "حركة كولن التركية جهودها وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى" ٢٠١٧. يعمل مدرساً في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، بكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر بالمنوفية..



جمعية الإغاثة العالمية " كيمسا يوك مُو" (Kimse Yok Mu?)

نموذج تطبيقي للتنمية المستدامة في فكر الخدمة

إنّ بناء الإنسان وتنميته روحياً وعلمياً والارتقاء به ثقافياً وحضارياً هو أحد أهم الأهداف المحورية التي يدور حولها فكر الأستاذ فتح الله كولن، ولا شك أن الفقر يُعد من أكبر الأخطار التي تقف حجر عثرةٍ دون تحقيق ذلك الهدف. ويمكن تعريف الفقر بأنه ذلك الحرمان المادي الذي يترتب عليه التديني في كافة المستويات؛ فعلى المستوى الديني نجد بعض الناس في الدول الأشد فقراً يبدلون دينهم إرضاء لمن يُقدّم لهم الغذاء والكساء والدواء، وهناك من يشك في حكمة الخالق لما يراه من سوء توزيع للثروة..، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: "كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا" (رواه البيهقي في شعب الإيمان)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ"، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَيَعْتَدِلَانِ؟، قَالَ ﷺ: "نَعَمْ" (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

وعلى المستوى السلوكي والأخلاقي فهناك الكثير ممن يدفعه بؤسه وحرمانه إلى سلوك ما يتنافى مع القيم والفضائل؛ كالرشوة والسرقة والاختلاس...، وقد بين الحديث النبوي الشريف جانباً من ذلك فيما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُدْعُو فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَعْرَمِ"، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمَعْرَمِ؟ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَّبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ" (رواه البخاري في صحيحه).

وعلى المستوى الفكري والثقافي فإن الفقر له آثاره السلبية الكبيرة على عملية الإبداع في المجتمع، فكلما كان المجتمع فقيراً، قلت عملية الإبداع، وقلت الابتكارات التي تساعد بدورها على تقدم المجتمع وتطوره، ولعل هذا يرجع بدوره إلى عدم توافر القدرات لدى الإنسان الفقير الذي يقف عاجزاً أمام الكثير من الأمور التي يمنعه فقره من استغلالها، حتى وإن قاوم الفقر فيما يخص الالتحاق بالعملية التعليمية، فسيجد صعوبات كثيرة فيما يخص مواكبة التكنولوجيا الحديثة، التي تحتاج بدورها إلى أموال كثيرة في أغلب الأحيان.

وعلى مستوى الأمم نلاحظ أن الأمة الفقيرة دائماً ما تكون مسلوقة الحرية والإرادة، منتقصة السيادة؛ لأن الأمم الغنية هي التي تتحكم في مصائرها.

ولأن التضحية والبذل والإنفاق من أهم مقومات مكافحة الفقر فقد حض القرآن الكريم في كثير من آياته على الإنفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠) كما جعل الإنفاق أحد دلائل صدق الإيمان، قال الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴿ (الأنفال: ٢-٤).

ونظراً لما يشكِّله الفقر من خطورة عظيمة على كافة المستويات والأصعدة فقد عملت حركة الخدمة المستلهمة من فكر الأستاذ فتح الله كولن على الإسهام بشكل فعال في معالجة تلك المشكلة والحد من آثارها السلبية على الفرد والمجتمع والأمة وذلك من خلال عدة مشروعات كان منها:

جمعية الإغاثة العالمية "كيمسا يوك مو" (Kimse Yok Mu)

و"كيمسا يوك مو" هي كلمة تركية تعني: "هل من مغيث؟"؛ وسبب هذه التسمية أنه في أغسطس عام ١٩٩٩ عندما حدث زلزال مدمر في تركيا في قلب منطقة مزمرة وما جاورها،

ودخل عمال الإغاثة تلك المنطقة سمعوا صوت امرأة تصيح من تحت الأنقاض قائلة: "هل من مغيث؟"، ومن هنا جاءت الفكرة؛ حيث وجّه الأستاذ فتحُ الله كولن العاملين في شبكة تلفزيون "صمان يولو" إلى تنظيم حملة من خلال برنامج يحمل شعار تلك الصيحة "هل من مغيث؟" وذلك بهدف جمع تبرعات لصالح الأسر المنكوبة من جراء ذلك الزلزال، وتضمّن البرنامج عائلتين: الأولى فقيرة والأخرى لها موارد اقتصادية؛ فلتساعد العائلة الثرية الأسرة الفقيرة على إعادة بناء حياتها بعد وقوع الزلزال، وتحفيزًا للجمهور بدأ الأستاذ فتحُ الله كولن الحملة بتبرعه بخمسة آلاف دولار من دخله عن نشر كتبه، ونتيجة لهذا البرنامج تدفقت التبرعات للمحطة لمساعدة ضحايا الزلزال^(١).

وبعد ثلاث سنوات من كونه برنامجًا يُعرض على محطة تلفزيون "صمان يولو" ويركز على احتياجات أهالي "مزمرة"، تأسست في ١٣ يناير عام ٢٠٠٢م مؤسسة كيمسا يوك مو "هل من مغيث؟" للتضامن والمساعدة، وأخذت تواصل أنشطتها الخيرية وفعاليتها التطوعية في محافظات تركيا الواحد وثمانين، عبر أربعين فرعًا لها، إلى أن وصلت بأنشطتها الخيرية التي تقدمها لملايين الأشخاص في ١١٣ دولة حول العالم من خلال مائتين وثمانية آلاف متطوع، وما يزيد عن ثلاثة ملايين متبرع؛ لتستحق نيل جائزة "الخدمة الفائقة" من الأمم المتحدة عام ٢٠٠٨، كما حصلت على مقعد عضو استشاري في المجلس الاقتصادي والاجتماعي بالأمم المتحدة (ECOSOC)، وهي المؤسسة التركية الوحيدة التي تعمل منذ عام ٢٠١٠ بالتعاون مع المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNHCR) من أجل توفير احتياجات اللاجئين في تركيا في مجالات مثل التعليم والصحة والغذاء.

وقد اكتسبت صفة "الجمعية العاملة للصالح العام" بقرار مجلس الوزراء الصادر في ١٩ يناير ٢٠٠٦. كما حصلت بقرار مجلس الوزراء الصادر في ٦ فبراير ٢٠٠٧ على صلاحية "جمع التبرعات دون تصريح". وفي عام ٢٠١٤، كانت "كيمسا يوك مو" هي الأولى من بين مؤسسات المجتمع المدني التركية التي دخلت ضمن قائمة أفضل مئة مؤسسة مجتمع مدني خيرية على مستوى العالم، في التصنيف الذي أعدته مؤسسة جنيف الفكرية الدولية^(٢).

مقاييس كيمسا يوك مو

أكد السيد متين تشتين آر المدير العام لجمعية "كيمسا يوك مو" على أن الجمعية تُقدّم المساعدات الإنسانية في كل أنحاء العالم دون أدنى تمييز بسبب الدين، أو اللغة، أو اللون، أو العرق.. وقال: سَمِعنا في بعض المناطق كلاً من غير المسلمين يقولون: "الأول مرة نأخذ

مساعداً من المسلمين". ومع أن المتطوعين في "كيمسا يوك مو" لا يحملون أي شعارات دينية فقد ذكّر لنا السيد متين تشتين مثلاً يوضح فيه ما لهذا المعيار من مردود إيجابي في كثير من الأحيان على المسلمين والدعوة الإسلامية؛ فقال: "لَمَّا وَقَعَ إعصار في ميانمار^(٣) رفضت الحكومة القسرية هناك كل أنواع التبرعات الخارجية، ونحن من خلال إخواننا في "الخدمة" الذين فتحوا مدارس هناك تواصلنا معهم كي يتوسطوا لدى الحكومة؛ فكنّا أوّل جمعية إغاثة تصل إلى هناك، واستطعنا أن نُقدم المساعدات لستّة آلاف أسرة بعضها مسلم وبعضها غير مسلم، بعدها تلقينا شكراً من المسلمين على أننا قدّمنا المساعدات للمسلمين والبوذيين أيضاً، فقلنا: فهمنا الشكر للمسلمين، فلماذا الشكر على تقديم المساعدة لغير المسلم؟ فأجابوا: "عندما بدأتُم تُقدّمون المساعدة لأولئك البوذيين بدأوا يعاملوننا أفضل مما سبق"^(٤).*

ولأن الثقة مهمة جدّاً بالنسبة لجمعيات الإغاثة؛ فإننا نأخذ بأيدي المتبرعين إلى مواقع الكوارث ليشاهدوا بأعينهم ويُقدّموا بأيديهم؛ قبل سنوات ذهبنا إلى أثيوبيا ومعنا ثلاثمائة متبرع وقدموا لحوم الأضاحي بأنفسهم إلى الفقراء، وهذا النوع من العمل يقدّم ثقةً للمتبرع فيواصل مساعدته للفقير.

كما أن لدينا وحدة ملاحظة تعطي معلومات إلى مجلسنا، ثم نقدر حجم الكارثة، ثم نقرر بعد ذلك الإغاثة أو المساعدة الدائمة، وإذا احتاج الأمر فإننا نبني في تلك الأماكن منشآت سكنية أو تعليمية أو صحية^(٥).

هذا، وتُقدّم جمعية كيمسا يوك مو (هل من مغيث؟) مجموعة متنوعة من الأنشطة والمشروعات الخيرية التي تساهم بشكل كبير في مكافحة الفقر منها:

مشروع العائلة الشقيقة

وهو مشروع مستوحى من فعل النبي ﷺ حينما هاجر إلى المدينة وعقد مؤاخاةً بين المهاجرين والأنصار؛ وفيه تقوم "جمعية كيمسا يوك مو (هل من مغيث؟)" بتعريف الأسر الثرية والمتوسطة الدخل التي تريد الانضمام إلى هذا النشاط بأسر فقيرة بغرض التأخي. وتقوم الأسرة المتطوعة بزيارة الأسرة الفقيرة ومتابعة أحوالها ومحاولة حل مشكلاتها بمعرفتها ومن خلال معارفها وجيرانها دون الرجوع للجمعية. ومن خلال هذه العلاقة التي تستمر لمدة عام أو أكثر، تحاول الأسرة المتطوعة حل مشكلات الأسرة الفقيرة ومساعدتها في توفير احتياجات المعيشة والتعليم وفرص العمل والزواج، وذلك بهدف الوصول بهم إلى مستوى معيشة يقترب من المتوسط. وتفيد هذه العملية في أن الأسرة الفقيرة تتعامل مع أسرة صديقة لها بشكل أخوي وليس بشكل

فوقني سلبني. كذلك، أثمر هذا النشاط في شعور الأغنياء بوجود الفقراء وحاجتهم للمساعدة، كذلك أثمر عن تعلم أولاد الأسرة الغنية المسؤولية الاجتماعية والقناعة والشكر. وبلغ عدد الأسر المتأخية حوالي (١٥٠٠) أسرة حتى الآن وتستهدف الجمعية تأخي ١٠٠,٠٠٠ أسرة في جميع أنحاء تركيا في خلال خمس سنوات بدءاً من ٢٠٠٨م^(٦).

رعاية الأيتام

ومن الأنشطة التي توليها جمعية كيمسا يوك مو اهتماماً كبيراً رعاية الأيتام ممن لا كافل لهم ومنحهم فرصة لحياة أفضل؛ ولم لا وقد روى سهل بن سعد أن الرسول ﷺ قال: "أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا" وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً^(٧).

وفي هذا الصدد قامت الجمعية بإنشاء العديد من دور الأيتام المتكاملة الخدمات؛ فمثلاً قامت الجمعية في ديسمبر ٢٠١٤ بافتتاح دار أيتام جديدة شيدتها بمدينة كوستي الواقعة في ولاية النيل الأبيض في السودان بحضور كل من والي المدينة ووزير العمل الاجتماعي السوداني الذي أشاد بهذا الإنجاز وأوضح أن دار الأيتام أسست على طراز حديث بالإضافة إلى اختلافها عن غيرها من دور الأيتام لتقديمها دورات في تحفيظ القرآن الكريم ودروس للطلاب^(٨).

وفي مايو ٢٠١٥ قامت الجمعية بافتتاح دار الأيتام في العاصمة السنغالية دكار لإيواء نحو مئتين واثنتين وعشرين طفلاً مشرداً في بلد يعاني من أزمة في توفير أماكن لآلاف المشردين^(٩) وفي نفس العام أيضاً أنشأت جمعية "كيمسا يوك مو" دارين للأيتام في بروندي وسط القارة الإفريقية: دار "كيانجيه الوجوه المبتسمة" للفتيات اليتيمات، ودار "بوينزي أحمد أكبول" للذكور اليتامى بتكلفة بلغت ٣٧٤ ألف دولار لتأمين حاجاتهم من المأوى والغذاء والتعليم. وافتتح نائب رئيس جمهورية بروندي بروسبر بوزومبانزا داري الأيتام وقال في كلمة الافتتاح: "إنهم أمل الأطفال الأيتام الذين لا عائل لهم، وقد شاهدتُ بنفسي كيف يعاملون الأطفال إذ يعاملونهم وكأنهم أولادهم. وإنني مسرور بذلك"^(١٠).

هذا، وقد ذكر مدير مشروعات الأيتام في جمعية "كيمسا يوك مو" محمد علي جول أن الجمعية تتكفل برعاية وتغذية وإيواء وتعليم نحو ٦٥ ألف يتيماً في أكثر من ٥٠ دولة^(١١).

إنشاء آبار للمياه

الماء هو مادة الحياة، لهذا حث رسول الله ﷺ على حفر الآبار وسقي الماء لمن يحتاجه وبذله في سبيل الله تعالى وتسييله للناس حتى يستفيدوا منه؛ فعن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ حَفَرَ مَاءً، لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرَّى مِنْ جَنٍّ وَلَا إِنْسٍ وَلَا طَائِرٍ إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ"

الْقِيَامَةِ" (١٢)، وَعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ، فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الْمَاءُ"، قَالَ: فَحَفَرَ بئرًا، وَقَالَ: هَذِهِ لِأُمِّ سَعْدٍ" (رواه الإمام ابن خزيمة في صحيحه).

في المناطق التي تعاني من نقص حاد في المياه العذبة تقوم جمعية "كيمسا يوك مو" (هل من مغيث؟) بإنشاء آبار للمياه الجوفية للتخفيف من معاناة أهلها، ليس فقط من أجل إرواء الظمأ ولكن لما لها من مردود إيجابي على سائر حياة الإنسان؛ فعلى سبيل المثال بعد أن افتتحت جمعية "كيمسا يوك مو" عددًا من آبار المياه الصالحة للشرب أصبح بإمكان الفتيات التفرغ للذهاب إلى المدرسة بعد أن كنّ يقطعن كيلومترات لجلب المياه لأسرهن وسط ظروف قاسية ومخاطر جمة؛ حيث يقول مدير مشروعات المياه بجمعية "كيمسا يوك مو" واصف باشاك: "إنّ الفتيات الإفريقيات يقطعن مسافات طويلة تمتد لكيلومترات وسط ظروف صعبة ومخاطرة جمة من أجل الحصول على الماء، ويحملن ما يجدهن من مياه -حتى ولو كانت غير نظيفة- فوق رؤوسهن لمسافة قد تصل إلى ١٥ كيلومترا يوميا، وقد يستغرقن في ذلك ما بين ٧ و ٨ ساعات. لذلك لا يمكنهن الذهاب إلى المدارس".

وأضاف باشاك: "وصلتنا معلومات بأن الفتيات بدأن يقبلن على المدارس في دولة تشاد بعد أن افتتحنا ٥٠ بئرًا هناك. بالإضافة إلى نجائهن بهذا من المخاطر التي كنّ يتعرضن لها في الطريق".

كما ذكر أنه يستفيد نحو ثلاثة ملايين شخص في القارة السمراء من ١٧٣٥ بئر مياه عذبة صالحة للشرب افتتحتها جمعية كيمسا يوك مو في عشرين دولة إفريقية (١٣).
وهذا جدول يوضح أعداد الآبار التي تم إنشاؤها في دول مختلفة (١٤).

اسم الدولة	عدد الآبار	اسم الدولة	عدد الآبار
بنين	١١	النيجر	٢٣٧
تشاد	٥٦٣	فلسطين	٧
الكاميرون	٢٨١	هايتي	٣
باكستان	٥٤٢	السودان	١١٢
أوغندا	٢٢	السنغال	٦٥
توجو	١٥	الصومال	٤٢
كينيا	١٦٩	إفريقيا الوسطى	٢٠

١٠	الفلبين	١٣٠	نيجيريا
		٤٣	بوركينافاسو
٢٣٠٥	المجموع	٣٣	كمبوديا

الخدمات الصحية

يُعتبر توفير الخدمات الصحية أحد متطلبات محاربة الفقر، فعن طريق التغلب على أي عوائق صحية تحدث للإنسان يمكن ضمان استمرار عطاءه واستغلاله الكامل لمملكاته وقدراته، ومن ثم فإن جهود تقديم الخدمات الصحية للفقراء يساعد بشكل كبير في بناء قدراتهم وتمكينهم من الخروج من الفقر؛ وتقوم جمعية "كيمسا يوك مو" بتوفير الخدمات الصحية لغير القادرين إما عن طريق إنشاء مستشفيات متكاملة، وإما عن طريق إرسال وفود من الأطباء المتطوعين لإجراء العمليات الجراحية لغير القادرين من المرضى. ومن أمثلة النوع الأول: "مستشفى النيل الجديد" التي افتتحتها الجمعية في أوغندا بحضور رئيس الدولة وعدد من كبار المسؤولين، وقد أنشأت جمعية كيمسا يوك مو هذه المستشفى ضمن مجمع كبير يضم أيضًا مدرسة وسكنًا طلابيًا؛ أقيموا جميعًا على مساحة مئة وعشرين فدانًا، وقد بدأ المستشفى منذ ٢٤ نوفمبر ٢٠١٤ تقديم خدمات الطوارئ والتخدير والجراحة العامة وعيادات الأطفال والمسالك البولية والتناسلية وأمراض النساء والتوليد والرمد وأمراض الفم والأسنان ومعامل الأشعة ووحدات أطباء الأسرة، كما أنشأت الجمعية خمس مستشفيات دائمة أخرى في كل من هايتي وأثيوبيا والصومال وكينيا والسودان^(١٥). ومن أمثلة النوع الثاني: عمليات إعتام عدسة العين "المياه البيضاء"؛ حيث أجرى أطباء كيمسا يوك مو أكثر من ٣٥ ألف عملية من هذا النوع في أربع عشرة دولة.

وفيما يلي جدول يبين أسماء الدول وعدد الفحوصات وعدد العمليات التي تمت من ٢٠١١ وحتى بداية عام ٢٠١٥م^(١٦).

م	الدولة	عدد الفحوصات	عدد العمليات
١	السودان (دارفور)	١٨٩٩٠٤	١٧,٢٦٤
٢	السودان (الخرطوم)	١٠٩٢٩٦	٩,١٠٨
٣	الكاميرون	٥٩٠٢	٤٥٤
٤	تشاد	٦٨٧	٥٥

١٠٠	١٣٦٠	النيجر	٥
٧٨٠	٩٧٥٠	مالي	٦
٣٣٧	٣٦٤٠	جمهورية أفريقيا الوسطى	٧
٣٠٠	٤٠٥٠	جمهورية الكونغو الديمقراطية	٨
٢٤٠	٢٧١٢	جمهورية الكونغو	٩
٧٧	٨٧٨	بوركينافاسو	١٠
٣٥٤٧	٤٨٩٤٩	باكستان	١١
٢٠٦٧	٢٦٠٤٤	نيبال	١٢
١٠٠	١٠٣٠	غينيا	١٣
٦١٧	٦٩١٠	المغرب	١٤
٣٥,٠٤٦	٤١١,١١٢	الإجمالي	

المستشفيات في تركيا

وفي تركيا أسست حركة الخدمة عدة مستشفيات في العديد من المحافظات، وسوف نكتفي هنا بالحديث عن نموذج يمثل تلك المستشفيات ويجلي دورها البارز في خدمة المرضى من الفقراء والمساكين؛ وهو: "مستشفى سَمَا" في إسطنبول الذي كان يمارس نشاطاته الصحية قبل قرار تأميمها ومصادرتها من قبل الحكومة التركية بعد أزمة ٢٠١٦.

"بالرغم من امتلاك تركيا لرعاية صحية عالمية فإنها لا تغطي كل النفقات المطلوبة في المستشفيات الخاصة، لهذا يقوم المحسنون في حركة كولن بدعم غير القادرين من المرضى بدفع الرسوم الزائدة عن التأمين المقرر لهم، وفي هذا الصدد تقول كريستين مديرة الصحة العامة في المستشفى: "نحن نملك شبكة دائمة من الأشخاص الداعمين للمرضى، وهذا النظام غير رسمي لكنه ناجح، وحركة كولن فعالة جدًا في إدراك أننا مستشفى جديدة، ونحن بحاجة للوقوف على الأرض، والداعمون لا يريدون تأخير إنجازاتنا، لذلك فهم كرماء جدًا في دعمهم". في عام ٢٠٠٨ سافر ثمانون طبيبًا على نفقتهم الخاصة إلى جنوب شرقي تركيا لرؤية المرضى دون أي أجر لمدة ثلاثة أيام، وتم نقل مئة وثلاثين من هؤلاء المرضى -ومعظمهم مصابون بأمراض القلب- إلى مستشفى سما وعلاجهم مجانًا.

وفي الخطة الاستراتيجية لمستشفى سما لا توجد أهداف مالية، والتركيز موجّه نحو رضا الموظفين والمرضى؛ ولأنه مستشفى خاص فهو لجني الأرباح، ولكن الأرباح لا تذهب لرجال الأعمال الأصليين -الذين أنشأوا المستشفى- لتعزيز حافظتهم المالية، ولكنها بدلاً من ذلك تذهب لتطوير وتوسعة المستشفى ولتوفير رعاية أكثر للفقراء أو مساعدة مستشفيات أخرى لتبدأ وتنجح. ويصف أحد الأطباء ما يميز مستشفى سما عن غيره بقوله: "غالبًا ما يعامل الطبيب المرضى في المستشفيات العامة بوصفهم أشخاصًا مزعجين، لكن الأمر يختلف في هذا المستشفى؛ فالناس يعملون هنا من أجل المرضى وليس من أجل المال، وعملية التوظيف في مستشفى سما صارمة حيث يراعى جوهر الشخص مع الخبرة". ومن حيث تجربة المرضى للجو الفريد في مستشفى سما أعطت السيدة كريستين مديرة الصحة العامة في المستشفى مثالاً لعامل من ذوي الياقات الزرقاء الذي قال بعد عملية جراحية في القلب: "لقد تعلمتُ هنا أنني بشر ولم أستطع فهم قيمتي كإنسان حتى أتيتُ إلى هنا"، وأضافت أن المستشفى لديها شهادات كثيرة من هذا القبيل لكيفية رعايتها للمريض بطريقة تختلف عن العديد من المستشفيات الأخرى، ويأتي لمستشفى سما مرضى من داخل تركيا وبلدان أخرى لمعرفة أنها مستشفى مستوحاة من كولن، ويأتي آخرون لسماعهم أن المستشفى يوفر أعلى درجات الرعاية في جو يحترم المريض بوصفه إنساناً^(١٧).

الخدمات التعليمية

تأتي الخدمات التعليمية في نطاق برامج التنمية المستدامة التي توليها جمعية "كيمسا يوك مو" (هل من مغيث؟) أهمية قصوى إيماناً منها بضرورة توفير التعليم الجيد لإحداث التغيير المستدام في المجتمعات المحلية، وفي هذا المجال تقوم الجمعية بتقديم مجموعة متميزة من الأنشطة والمشروعات؛ منها: إنشاء مدارس ومساكن طلابية في المناطق الأكثر فقراً واحتياجاً من دول العالم: وقد "وُقعت مؤخرًا -بالمقر الرئيس للاتحاد الأفريقي بالعاصمة الإثيوبية أديس أبابا- اتفاقية تاريخية بين مفوض الاتحاد الأفريقي الدكتورة عائشة لارابا عبد الله والأمين العام لجمعية "كيمسا يوك مو" الخيرية صواش متين؛ تسمح للجمعية بزيادة أنشطتها الخيرية في مجالات رعاية الأيتام وتوفير مياه الشرب والتعليم والحياة الاجتماعية، ويساهم هذا الاتفاق التاريخي في تسهيل وصول الخدمات التعليمية التي تُقدمها الجمعية من أجل تَقَدُّم وارتقاء القارة الأفريقية، من خلال برنامج مشروع "مدارس الصحراء" في عدد من المناطق الأكثر احتياجاً في القارة في كينيا وأوغندا ورواندا. وأكد السكرتير العام لجمعية "كيمسا يوك مو"

صواش متين أن مشروع "مدارس الصحراء" سيقدّم خدماته التعليمية لمئات الآلاف من الطلاب على مستوى القارة الأفريقية من خلال افتتاح ١٠٠٠ مدرسة بحلول عام ٢٠٢٠^(١٨).
وتقدّم جمعية كيمسا يوك مو أيضًا -في مجال خدماتها التعليمية- منحة دراسية للطلاب الفقراء لإكمال دراستهم في المدارس والجامعات التركية مجانًا؛ "وأوضح "داوود كوتشاق" المسؤول عن المساعدات الداخلية والتعليمية بمؤسسة "كيمسا يوك مو" أنّ الطلاب الوافدين إلى تركيا سوف يعودون إلى بلادهم مرة أخرى رجالاً نافعين لبلادهم بعد إتمام تعليمهم في المؤسسات التعليمية التركية، قائلاً: "لقد أحضرنا إلى تركيا ٤٤٢ طالباً أفريقيًا ضمن مشروعنا التعليمي الذي أطلقناه في منطقة شرق إفريقيا منذ عام ٢٠١١. واليوم نحن نحضر ٢١٠ طالباً صوماليًا إلى تركيا. وقد مر ثلاثة أعوام على بدء مشروعنا. وهذا العام سوف يشهد تخرج أول مجموعة من الطلاب الذين أحضرناهم إلى تركيا. ٢٥٩ منهم في المرحلة الثانوية، و١٨٣ يدرسون في المراحل الجامعية المختلفة"^(١٩).

ولم تنس الجمعية دورها في مساعدة اللاجئين السوريين الفارين من الحرب المستعرة في بلادهم، وقدمت منحة دراسية لنحو ٥٠٠ طالب من اللاجئين السوريين خلال العام الدراسي ٢٠١٣-٢٠١٤^(٢٠).

والجمعية لا تستهدف الفقراء فقط بهذه المنح؛ بل تجعلها أيضًا عامة لكل من يطمح بأن يكون مُعلِّمًا متميزًا في مختلف التخصصات العلمية والدينية، والهدف الأساس هو تطوير مستقبل هذه الأمة عن طريق التعليم. حيث يتم تغطية تكاليف خمس سنوات تعليمية للطلاب بما فيها الرسوم الجامعية والإيجار والمعيشة والتأمين الصحي طبقًا لشروط تحددها الجمعية^(٢١).

الخدمات التنموية

ويهدف هذا المسار إلى تحويل الأيدي العاطلة إلى أيدي منتجة وتحويل الأسر الفقيرة التي تتلقى المساعدات إلى أسر ذات دخل يغنيها عن السؤال وهو يؤدي بالتالي إلى حل مشكلة البطالة المستعصية في المجتمع. وفي هذا الصدد يقول السيد متين تشتين المدير العام لجمعية "كيمسا يوك مو": "لقد نصحننا الأستاذ فتح الله كولن بقوله: "إذا أمسكتم بيد الآخر حتى ينهض، فلا تتركوا هذه اليد حتى ينهض ويقف على رجليه". وتطبيقًا لهذه النصيحة قرّرنا أن ننظم دروسًا صيفية ودورات مهنية في بعض المناطق الفقيرة من إفريقيا؛ فعلى سبيل المثال اخترنا بعض النساء ليدرّسن دروس عمل المكرونة، وأعطيناهنّ المعدات والدقيق وعلمناهن كيف يفعلن ذلك، ثم تركناهن بعد أن أصبحن قادرات على الكسب والإنتاج. ثم نذهب إلى منطقة

أخرى لنلقي دروسًا صيفية جديدة؛ مثلاً بنينا سوقًا على مساحة ألفي مترٍ مربعٍ، وأعطينا للفقراء طاوولات ومنتجات متنوعة وتعلموا كيف يتاجرون وكيف يكسبون...^(٢٢).

ومن النماذج التي تسهم فيها جمعية "كيمسا يوك مو" ببناء الإنسان وتنميته؛ "قيام المركز الثقافي التركي التابع للجمعية في فلسطين بتقديم دورات مجانية لطلبة الجامعات الفلسطينية لصقل مهاراتهم والارتقاء بها كما تخدم الجمعية فئة الطلاب الذين لم تسمح لهم ظروفهم الاقتصادية بإكمال التعليم الأكاديمي من خلال إقامة دورات مهنية في مجالات واسعة تقلبهم من البقاء في صفوف العاطلين عن العمل إلى سوق الإنتاج وخدمة المجتمع بإكسابهم مهناً وحرماً يتمكنون بها من إعالة أنفسهم وعائلاتهم"^(٢٣).

وفي هذا تمكين للفقراء من بداية مشروعات مستقلة تخلصهم من ربقة الفقر وتضعهم على بداية طريق التحرر والغنى والإنتاج.

الخدمات الموسمية

تحرص جمعية "كيمسا يوك مو" على إدخال البهجة والسرور إلى نفوس الفقراء في المواسم والمناسبات الدينية المختلفة، ففي شهر رمضان من العام ١٤٣٥/٢٠١٤ قامت الجمعية -من خلال فروعها المنتشرة في مختلف دول العالم- بتقديم وجبات الإفطار لمليون شخص، وتوزيع المعونات الغذائية على ١٥٠ ألف عائلة وتقديم هدايا العيد لعشرة آلاف طفل، في نحو ثمانين دولة حول العالم بالإضافة إلى تركيا^(٢٤).

"وفي عيد الأضحى المبارك تقوم "كيمسا يوك مو" بتوزيع لحوم الأضاحي في أكياس بوزن ٥ أو ٧ كيلو جرام بمساعدة من موظفي الجمعية والمتطوعين في داخل تركيا وخارجها. ففي ٢٠٠٧، تم جمع ١٢,٥٠٠ أضحية تم توزيعها على ٤٥,٠٠٠ شخص في ٣٥ دولة و٣٠,٠٠٠ شخص في تركيا؛ أي حوالي ٦٠٪ في تركيا و٤٠٪ في خارجها. كذلك، توجه الأضاحي إلى البلاد التي اشتعلت فيها الحروب مثل فلسطين وأفغانستان والبوسنة وقارة إفريقيا عمومًا. ومن الدول التي حصل فيها الكوارث الطبيعية مثل بنجلاديش، وباكستان، وبورما، وإندونيسيا. والتمويل يتم بالحملات التي تقوم بها الجمعية ويشارك فيها الشعب التركي"^(٢٥).

الإغاثة في أعقاب الكوارث والحروب

تبادر جمعية "كيمسا يوك مو" إلى تقديم الدعم والمساعدة للمتضررين من الحروب والكوارث الطبيعية، وهي تبذل في هذا المجال جهودًا عظيمة؛ حتى إنها قامت ببناء بلدة متكاملة الخدمات، وسلمتها للحكومة الباكستانية من أجل مساعدة وإيواء المتضررين من السيول التي

ضربت باكستان عام ٢٠١٠، وأسفرت عن مقتل نحو ألفي شخص. حيث قامت بمساهمة من فاعلي خير بالتكفل ببناء ٢٩٦ وحدة سكنية تحتوي على جميع الخدمات، كما تتضمن جامعاً ومدارس ومركزاً للتسوق بالإضافة إلى العديد من الخدمات الترفيهية والاجتماعية، وذلك من أجل رعاية المتشردين والمترجرين من تلك السيول، وقد استغرق بناء تلك البلدة نحو ثمانية عشر شهراً، وأطلقت عليها الجمعية المتكفلة بنائها اسم الشاعر الباكستاني "محمد إقبال" لدوره الحماسي في إلهاب مشاعر المسلمين الباكستانيين للوقوف إلى جانب الأتراك في حرب الاستقلال^(٢٦).

كما منحَتْ قيادةُ العمليات المدنية للجيش الفلبيني، جائزة الشرف لجمعية "كيمسا يوك مو" (هل من مغيث؟) لمساهمتها في أعمال البحث والإنقاذ عقب إعصار هايان الذي ضرب البلاد في عام ٢٠١٣ وأودى بحياة الآلاف من الناس، كما سارعت في مساعدة متضرري الإعصار^(٢٧). وفي لفته إنسانية غير مسبوقه في العالم الإسلامي قامت "كيمسا يوك مو" بتقديم مائتي خيمة كمساعدات إنسانية للاجئين الصحراويين، على خلفية الفيضانات الأخيرة التي ضربت مخيمات لاجئي الصحراء الغربية في مدينة تندوف الجزائرية، وخلفت أضراراً كبيرة على أبنيتهم الطينية. وفي هذا السياق، قال رئيس الهلال الأحمر الصحراوي يحيى بوحيني إنَّ المساعدات التي قدمتها الجمعية الخيرية "هل من مغيث؟" لها نكهة خاصة، كونها تأتي من بلد مسلم كتركيا، وكشف أن "معظم المساعدات التي تصل، باستثناء المساعدات المقدمة من الجزائر، فهي من أوروبا، وبالتالي انفردت هذه المنظمة عن العالم الإسلامي وعملت على كسر هذا الحاجز الذي استمر أربعين عاماً"، قائلاً: إن جمعية "هل من مغيث؟" استجابت للنداء الذي أعلنه لطلب المساعدة إثر الفيضانات والأمطار التي اجتاحت مخيمات اللاجئين الصحراويين^(٢٨).

وتوزَّع جمعية "كيمسا يوك مو" وجبات ساخنة منذ ثلاث سنوات على اللاجئين -يشكل غالبية كبيرة منهم النساء والأطفال- الذين هربوا من ويلات الحرب الأهلية في سوريا ولجأوا إلى مدينة كيليس جنوب تركيا. وتم حتى الآن توزيع أطعمة على ما يقرب من خمسة آلاف شخص في المطبخ النقال الذي وصل إلى أربعة آلاف شخص خلال ستة أيام^(٢٩).

وتأتي فلسطين على رأس قائمة الدول التي تنتشر فيها الأنشطة الخيرية لجمعية "كيمسا يوك مو"؛ وقال ليفينت أيوب أوغلو المسؤول عن فعاليات جمعية "كيمسا يوك مو" إنَّ إجمالي الدعم الذي قدمته جمعية "كيمسا يوك مو" حتى اليوم في فلسطين بلغ ١١ مليوناً و٢٤٨ ألفاً و٦٨٦ ليرة تركية، فضلاً عن أن المساعدات المقدمة للمنطقة زادت مع افتتاح مكتب الجمعية

في فلسطين في عام ٢٠١٣؛ إذ بلغت المساعدات في عام ٢٠١٤ م فقط ثلاثة ملايين و ١٤٥ ألفاً و ٢٢٦ ليرة تركية^(٣٠).

وعندما سأل أحدهم المدير العام لجمعية كيمسا يوك مو: هل شاركتم في أسطول الحرية؟^(٣١) أجاب قائلاً: "نحن لا نمارس مثل هذا النوع من الأعمال، بل نفضل العمل بلا ضجيج؛ حيث نرسل الأموال عن طريق البنوك ونساعد إخواننا في غزة، أما ذلك النوع من العمل فهو أقرب إلى العمل السياسي منه إلى العمل الإغاثي"^(٣٢).

هذه فقط مجرد نماذج لما تقوم به جمعية "كيمسا يوك مو" من أعمال إغاثة لكل ملهوف في أعقاب الكوارث والحروب، فلا تكاد تحدث كارثة في أيّ مكان في العالم إلا وتجدها في مقدمة المغيثن، مما جعلها تتلقى ثناء وترحيباً من جميع دول العالم، فعلى سبيل المثال: "عندما دُعِيَ القائمون على "كيمسا يوك مو" إلى المؤتمر الذي عقدته مؤسسة كليتون حول "إفريقيا"، في العاصمة المغربية الرباط، خلال شهر مايو ٢٠١٥؛ وقّدم رئيس "كيمسا يوك مو" ملخصاً لما قدمته الجمعية من خدمات ومساعدات إنسانية حول العالم؛ علّق الرئيس الأمريكي الأسبق بل كلينتون قائلاً: "أنا أريد أن ألتقط الصور مع هؤلاء الأصدقاء. هم يتحدثون عما ينجزون، بينما يتحدث الجميع عما يحلم به"^(٣٣).

ولا تتوقف حركة الخدمة عند هذا الحد، بل تبتكر أفكاراً جديدة تشجع الناس على البذل والعطاء؛ مثل صندوق (Sanki yedim) أي: "كأنني أكلت". وهي حملة رائعة لمؤسسة الإغاثة (حان وقت المساعدة "TIME TO HELP - YARDIM ZAMAN") التابعة لحركة كولن في ألمانيا. والفكرة مأخوذة من قصة يحكيها الأستاذ بديع الزمان النورسي في رسائله عن رجل عاش في السابق في إسطنبول كان كلما انتهى أكلة وضع نقودها جانباً وقال: كأنني أكلت، فبنى مسجداً بتلك النقود. فصنعت حركة كولن هذا الصندوق بنفس الفكرة... فجاء الخير مدراراً^(٣٤).

الإغلاق التعسفي لجمعية كيمسا يوك مو

ومع أنّ الله تبارك وتعالى قد ذمّ في كتابه العزيز كل مناعٍ للخير ومناعٍ للماعون فقد أقدمت الحكومة التركية في ٢٠١٥ على إغلاق جمعية كيمسا يوك مو وذلك ضمن حزمة من الإجراءات التعسفية لإغلاق ومصادرة كل مؤسسات حركة الخدمة في تركيا بعد أن اصطنع منها أردوغان عدواً، وصوّرها "كياناً موازياً" للوصول إلى أغراض ثلاثة تتمثل فيما يلي:

١- التغطية على فضائح قضايا الفساد والرشوة في ديسمبر ٢٠١٣ والتي تورّط فيها وزراء ومسؤولون كبار في حكومة أردوغان وأفراداً من أسرته.

٢- تحقيق مكاسب سياسية رخيصة على حساب القيم والمبادئ الأخلاقية.
٣- أن يجعل من حركة الخدمة مُشجِّبًا يعلق عليه كل فُشلٍ يتعرض له في سياسته الداخلية والخارجية.

وهكذا وقعت جمعية كيمسا يوك مو ضحية ألاعيب السياسة؛ لتخسر بذلك الساحة الدعوية واحدةً من أقوى الأدوات الفعالة التي كانت تحقق مقصدًا مهما من مقاصد الشريعة الإسلامية وهو فعل الخير وتقديم يد العون لكل محتاج، وتسهم بشكل عملي في تحقيق معنى عالمية الرسالة الإسلامية التي لا تفرق في عمل الخير بين مسلم وغيره،

ولكن أبناء الخدمة الذين أشربوا حب الخير للغير، والذين لا يعرفون للحياة لذةً دون الإنفاق والعطاء لم تفت تلك الاضطهادات في عضدهم، ولم تجعل اليأس يتسلل إلى قلوبهم؛ بل ساروا على درب دون عجز أو توقف، وظلوا يمارسون العمل الخيري والإغاثي بكل أبعاده الإنسانية وصوره التنموية السابقة من خلال المؤسسات الخيرية التي أسسوها خارج تركيا مثل: وكالة النيل للتنمية البشرية، التي أسسها متطوعو حركة الخدمة في أوغندا، والتي تحظى بتغطية واسعة من قبل وسائل الإعلام الأوغندية لكل ما تقدمه من خدمات الصحة والتعليم، ومشاريع آبار المياه، وتوزيع لحوم الأضاحي، والمواد الغذائية إلخ^(٣٥).

وكذا مؤسسة "تونا" (Tuna) الخيرية التابعة لحركة الخدمة والتي تأسست في عام ١٩٩٥، وتقدم يد العون لآلاف المحتاجين في جميع أنحاء رومانيا بمشاريع مختلفة؛ بل وخارج رومانيا أيضا كما حدث في رمضان ٢٠٢١ من إرسال وجبات إفطار رمضان إلى المحتاجين في اليونان^(٣٦).

وكذا مؤسسة الإغاثة (حان وقت المساعدة "TIME TO HELP - YARDIM ZAMAN") التابعة لحركة الخدمة في العديد من الدول الأوروبية وغيرها، والتي تمتد أنشطتها إلى خارج دول المقر كما حدث في مارس ٢٠٢١ من تقديم المنظمة المساعدات الغذائية إلى ٢٠٠ عائلة فقيرة تقيم في ريف صنعاء وذلك بالتعاون مع شريكها داخل اليمن منظمة يمن عون^(٣٧).

ولو ذهبنا نتبع كل ما تقوم به الخدمة وتبتكره في هذا المجال لأخذنا العجب والاندهاش من شلالات الخير المتدفقة في كل مكان، ولأدركنا الفرق بين الخدمة وبين من يضطهدها؛ كما ورد في الحديث الشريف: (إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه) (رواه ابن ماجة والبيهقي).

ومن خلال ما سبق يتبين أن حركة الخدمة لم تكتف في مكافحتها للفقر بالتنظير، ولكنها اتخذت في هذا الشأن خطوات عملية من برامج ومشاريع خدمية وتنموية على المستويين المحلي والعالمي، ولم تدع بابًا لمكافحة الفقر إلا وطرقته لتوفر بذلك مناخًا صالحًا للنهوض الحضاريّ قوامه العمل لا الشعارات.

الهوامش

- (١) حصل الباحث على هذه المعلومات من المدير العام لجمعية كيمسا يوك مو السيد متين تشتين آر أثناء لقاء في مقر الجمعية في إسطنبول، وذلك ضمن فعاليات ملتقى حراء للأكاديميين والباحثين في فكر الأستاذ فتح الله كولن ونموذج الخدمة، في الفترة من ٢٣-٣٠ ديسمبر ٢٠١٣م بإسطنبول. وينظر أيضًا كتاب: حركة كولن "تحليل سوسولوجي لحركة مدينة جذورها الإسلام المعتدل"، د/ هيلين روز ايبو ص ١٩٣ و ٢٢٥.
- (٢) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: "كيمسا يوك مو". بوابة الخير المفتوحة من تركيا على العالم، والمنشور بتاريخ ١٧/٤/٢٠١٥م. وهامش ص ١٣٣ من كتاب: حوارات مع الأستاذ فتح الله كولن كلمات شاهدة حول الدين والمجتمع والدولة بأفق إنساني.
- (٣) * بورما سابقًا وهي دولة تقع في جنوب شرقي آسيا على امتداد خليج البنغال، وقد نالت استقلالها من بريطانيا عام ١٩٤٨، ثم أعلنت الحكومة عام ١٩٨٩ تغيير الاسم الرسمي للبلاد من اتحاد بورما إلى اتحاد ميانمار، عاصمتها: رانجون. وأغلب سكانها من البوذيين وبها أقلية مسلمة مضطهدة. (ينظر: الموسوعة العربية العالمية ٥/٢٥٣-٢٦٠).
- (٤) ** ولا يتعارض ذلك مع منهج الإسلام فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَشَكْنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨)؛ قال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: "ما كان أسراهم إلا مشركين، لأن كل كبد رطبة ففيها أجر" (تفسير المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٤١٠).
- (٥) من لقاء في مقر الجمعية في إسطنبول، وذلك ضمن فعاليات ملتقى حراء للأكاديميين والباحثين في فكر الأستاذ فتح الله كولن ونموذج الخدمة، في الفترة من ٢٣-٣٠ ديسمبر ٢٠١٣م بإسطنبول.
- (٦) برامج ومشروعات مكافحة الفقر في الداخل والخارج نماذج مختارة، أيمن عبد الله شحاتة، وعبد الله محمد عرفان؛ ورقة عمل مقدمة لمؤتمر دولي مطبوع بعنوان: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية ص ٤٨٧، وينظر أيضًا كتاب: حركة كولن "تحليل سوسولوجي لحركة مدينة جذورها الإسلام المعتدل"، د/ هيلين روز ايبو ص ٢٢٦.
- (٧) رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان ٤١٣/٣ حديث رقم ٥٣٠٤.
- (٨) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: جمعية "كيمسا يوك مو" الخيرية التركية تفتتح دار أيتام بالسودان <http://www.zamanarabic.com>
- (٩) المصدر السابق؛ من خبر بعنوان: جمعية كيمسا يوك مو تحتضن ٢٢٢ يتيمًا بالسنگال.
- (١٠) الموقع الإلكتروني لوكالة "جهان" التركية للأبناء، من خبر بعنوان: هل من مغيث" التركية تفتتح دارا للأيتام في بروندي. والمنشور بتاريخ ٧/٥/٢٠١٥م.
- (١١) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: إقبال على المدارس الأفريقية للبنات بعد فتح آبار" كيمسا يوك مو". والمنشور بتاريخ ١٧/٤/٢٠١٥م.
- (١٢) رواه الإمام ابن خزيمة في صحيحه ٦٣٧/١ حديث رقم ١٢٩٢ (الناشر: المكتب الإسلامي-بيروت ٢٠٠٣م).
- (١٣) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: إقبال على المدارس الأفريقية للبنات بعد فتح آبار" كيمسا يوك مو". والمنشور بتاريخ ١٧/٤/٢٠١٥م.
- (١٤) حصلت على هذا الجدول من الموقع الإلكتروني لجمعية "كيمسا يوك مو" www.kimseyokmu.org
- (١٥) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: رئيس أوغندا يفتتح مشفى لجمعية كيمسا يوك مو التركية، والمنشور بتاريخ ١٢/٢/٢٠١٥م.

- (١٦) هذا الجدول مأخوذ عن تقرير منشور على الموقع الإلكتروني لجمعية كيمسا يوك مو.
- (١٧) حركة كولن تحليل سوسيولوجي لحركة مدينة جذورها الإسلام المعتدل، هيلين روز ص ٢٠٤-٢٠٩.
- (١٨) الموقع الإلكتروني لوكالة "جيهان" التركية للأبناء، من خبر بعنوان: كيمسا يوك مو توقع اتفاقية تاريخية مع الاتحاد الأفريقي. والمنشور بتاريخ ٢٨/٥/٢٠١٥م.
- (١٩) المصدر السابق؛ من خبر بعنوان: "هل من مغيث" ترسل ٢١٠ طالبًا صوماليًا للتعليم في تركيا، والمنشور بتاريخ ٢٩/٨/٢٠١٤م
- (٢٠) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: كيمسا يوك مو. "بوابة الخير المفتوحة من تركيا على العالم. والمنشور بتاريخ ١٧/٤/٢٠١٥م
- (٢١) ينظر: الموقع الإلكتروني "حصاد-نت" <http://www.7sad.net> من خبر بعنوان: منحة دراسية إلى تركيا بالتعاون بين موقع حصاد نت وجمعية هل من مغيث التركية (Kimse yok mu) منشور بتاريخ ١٢/٦/٢٠١٥م
- (٢٢) حصل الباحث على هذه المعلومات من المدير العام لجمعية كيمسا يوك مو السيد متين تشتين آر أثناء لقاء في مقر الجمعية في إسطنبول، وذلك ضمن فعاليات ملتقى حراء للأكاديميين والباحثين في فكر الأستاذ فتح الله كولن ونموذج الخدمة، في الفترة من ٢٣-٣٠ ديسمبر ٢٠١٣م بإسطنبول.
- (٢٣) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: "كيمسا يوك مو" مسيرة عطاء لدعم صمود الفلسطينيين في غزة ١٨/٤/٢٠١٥م
- (٢٤) المصدر السابق؛ من خبر بعنوان: كيمسا يوك مو لم تنس أطفال فلسطين. والمنشور بتاريخ ٢٠/٦/٢٠١٥م
- (٢٥) مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية ص ٤٨٨
- (٢٦) الموقع الإلكتروني لوكالة "جيهان" التركية للأبناء، من خبر بعنوان: تركيا تبني بلدة متكاملة في باكستان لإيواء المتضررين من سيول عام ٢٠١٠. والمنشور بتاريخ ١٧/٩/٢٠١٣م.
- (٢٧) ينظر: الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: جيش الفلبين يمنح جائزة الشرف لجمعية "كيمسا يوك مو" التركية. والمنشور بتاريخ ٥/٦/٢٠١٥م
- (٢٨) الموقع الإلكتروني لصحيفة الخبر الجزائرية، من خبر بعنوان: "كيمسا يوك مو" التركية توصل مساعدات للاجئين في الصحراء الغربية، والمنشور بتاريخ ٢٨/١/٢٠١٦م.
- (٢٩) الموقع الإلكتروني لوكالة "جيهان" التركية للأبناء، من خبر بعنوان: عروسان تركيان يوزعان ٤ آلاف وجبة على السوريين عبر "كيمسا يوك مو". والمنشور بتاريخ ٦/٨/٢٠١٥م.
- (٣٠) المصدر السابق، من خبر بعنوان: فلسطين تتصدر الدول المستفيدة من أنشطة "كيمسا يوك مو" التركية، والمنشور بتاريخ ٥/٥/٢٠١٥.
- (٣١) ((*) أسطول الحرية كان عبارة عن ست سفن، ممولة من تركيا والجزائر والكويت ومنظمة غزة الحرة العالمية، كانت تحمل على متنها مواد إغاثة ومساعدات إنسانية لقطاع غزة المحاصر، بالإضافة إلى نحو ٧٥٠ ناشطًا حقوقيًا وسياسيًا وبرلمانيًا وصحفيًا ساعين لكسر ذلك الحصار. وغادر الأسطول الشواطئ التركية في ٢٩ مايو ٢٠١٠م باتجاه غزة، إلا أن قوات البحرية الإسرائيلية شنت هجومًا يوم ٣١ مايو على سفينة "ماوي مزمرة" -كبرى سفن الأسطول- التي كان على متنها أكثر من خمسمائة شخص؛ ما أسفر عن استشهاد ثمانية أتراك، وأمريكي من أصل تركي، وإصابة العشرات. ولمزيد من التفاصيل ينظر موقع ويكيبيديا <http://ar.wikipedia.org/wiki>
- (٣٢) من لقاء مع المدير العام لجمعية كيمسا يوك مو السيد متين تشتين ضمن فعاليات ملتقى حراء للأكاديميين والباحثين في فكر الأستاذ فتح الله كولن ونموذج الخدمة، في الفترة من ٢٣-٣٠ ديسمبر ٢٠١٣م بإسطنبول
- (٣٣) الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: كليتون يثني على جمعية كيمسا يوك مو وأردوغان يسعى لإغلاقها. والمنشور بتاريخ ١١/٥/٢٠١٥.
- (٣٤) ينظر: الموقع الإلكتروني لهذا المشروع على الرابط التالي: <http://sankiyedim.eu/>
- (٣٥) ينظر: الموقع الإلكتروني لصحيفة "زمان عربي" التركية؛ من خبر بعنوان: حركة الخدمة توفر مياه الشرب لأكثر من ١٠٠ ألف نسمة في أوغندا بتاريخ ٨/٤/٢٠٢١م.
- (٣٦) المصدر السابق من خبر بعنوان: جسر الخير يمتد في رمضان من رومانيا إلى اليونان.
- (٣٧) المصدر السابق من خبر بعنوان: حركة الخدمة ترسل مساعدات غذائية إلى اليمن.

توماس ميشيل

ولد في سانت لويس بولاية ميزوري عام ١٩٤١، وهو أستاذ زائر في المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما. درس اللاهوت سابقًا في كلية الخدمة الخارجية بجامعة جورجيتاون في قطر، عمل ميشيل أيضًا في المجلس البابوي للحوار بين الأديان، وقاد مكتب التعامل مع الإسلام، كما ترأس مكاتب الحوار بين الأديان لاتحاد مؤتمرات الأساقفة الآسيويين والأمانة اليسوعية في روما. وحصل بعد ذلك على درجة الدكتوراه في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من جامعة شيكاغو بأطروحة بعنوان "الجواب الصحيح لابن تيمية: نقد رجل دين مسلم للمسيحية"، نشرت له سمات عدة مقالات من قبل.



مكافحة الفقر مع منظمة "كيمسا يوك مو"

١- أعداء المجتمعات البشرية

تعمق المفكر التركي البارز سعيد النورسي، منذ ما يقرب من مئة عام، في دراسة وضع المسلمين في العالم الحديث. وخلص إلى أن العدو الحقيقي للمسلمين على أعمق المستويات ليس مجموعة أو أخرى من المسيحيين، وليس حضارة أو أخرى من المشركين. بل إن العدو الحقيقي للبشرية ليس بشرًا في الأساس. تحدث النورسي عن أعداء البشرية كما لو كانوا أشخاصًا وأسماءهم "اللورد الجهل"، و"السير الفقير"، و"السيد الاختلاف"^(١). لا تتهدد هذه القوى الثلاثة الهدامة في المجتمع الإنساني (الجهل والفقر والاختلاف) المسلمين فحسب، بل أتباع كل الديانات؛ وبالتالي فإنها العدو المشترك الواجب توحيد الصفوف لمواجهته.



صحيح أن سعيد النورسي توفي عام ١٩٦٠، لكن كتاباته المتمثلة في ٦٦٠٠ صفحة من الخواطر حول القرآن بعنوان "رسائل النور" ما زالت تؤثر في ملايين المسلمين، خاصة في تركيا. وفتح الله كولن أحد هؤلاء الأشخاص الذين تأثر فكرهم بكتابات النورسي. تعرف كولن على كتابات النورسي للمرة الأولى عام ١٩٥٨، عندما كان في العشرين من عمره، ويقر أنه استفاد كثيراً من "رسائل النور".

هناك من يتهم كولن في تركيا بأنه نورسي (من أتباع سعيد النورسي). لا ينكر كولن أنه تعلم الكثير من كتابات النورسي، كما تعلم من كتابات عدة مفكرين مسلمين. لكنه يرفض وصفه بأنه أحد أتباع النورسي بالمعنى الفئوي. حيث قال في أحد اللقاءات:

"مع أن بديع الزمان سعيد النورسي استخدم كلمة "نورسي" بضع مرات، فإن خصومه يستخدمونها للتقليل من شأن حركته وأتباعه، ولإظهارها بمظهر الطائفة المهرطقة. يتأثر الشخص في حياته بعدة أشخاص وكتاب وشعراء وعلماء ويستفيد منهم. قرأت في حياتي أعمال العديد من المؤرخين والكتاب من الشرق إلى الغرب، واستفدت منهم. أحدهم بديع الزمان سعيد النورسي. لم يسبق لي أن التقيت به شخصياً. ومع ذلك، لم أستخدم أي ضمير إسناد للإشارة إلى مجموعة بعينها. بل ظل هدفي الوحيد أن أكون مؤمناً وأسلم روجي الله"^(٣).

وهكذا أقر كولن بتأثير النورسي على طريقة تفكيره، لكنه أضاف تأكيدات وتاويلاته وتوجيهاته إلى تعاليم "رسائل النور" الأصلية. يقترح العلماء الأتراك عدة طرق لربط فكر كولن وبرنامجه الاجتماعي بفكر أستاذه النورسي. يرى هاكان يافوز أن كولن كان أحد أولئك الذين "أعادوا تقديم" أفكار النورسي^(٤)؛ في إشارة إلى استباحة كولن لأفكار النورسي، في حين يتحدث إحسان يلماز عن "التغيرات الاقتصادية والسياسية والتعليمية"^(٥)، ويشير مصطفى أكيول إلى "مناهج جديدة تخصه وحده [كولن]"^(٥).

ومن الاختلافات الواضحة بين توجيهات الرجلين تأكيد النورسي على أهمية الدراسة، وتأكيد كولن على أهمية الخدمة. لا يوجد تناقض بين الاثنين، لكن التركيز يتحول من التغيير الروحاني الداخلي النابع من دراسة "رسائل النور" إلى تغيير المجتمع بمساعدة جهود الجماعة الملترمة حاملة راية التغيير.

٢- مواجهة أعداء البشرية الحقيقيين

وفي ضوء ذلك، نستطيع أن نفهم انشغال كولن الجاد بالتحدي الثلاثي الذي وصفه النورسي في القرن العشرين، وسعيه لحشد أتباعه لمحاربة الجهل والفقر والاختلاف. انصب تركيز

الحركة في السنوات الأولى خلال الثمانينيات على محاربة الجهل. هناك كتابات كثيرة حول النظرية التربوية لكولن، وإنجازات أكثر من ٦٠٠ مدرسة و٦ جامعات أسسها أعضاء مجتمع كولن ويديرونها^(٦). إن هذه المدارس، وغيرها من جهود تثقيف المجتمع، مثل جريدة زمان، وشبكة قنوات "صمان يولو" التلفزيونية، وأكثر من ٣٥ مجلة احترافية وشعبية؛ كلها دليل على التزام مجتمع كولن بمحاربة ظاهرة الجهل واسعة الانتشار.

ثم تحول تركيز الحركة في وقت لاحق خلال التسعينيات إلى تأسيس مؤسسات ومراكز حوار في مختلف أنحاء العالم. وكانت أول مؤسسة حوار يؤسسها مجتمع كولن "منظمة الكتاب والصحفيين" التي بدأت عملها في إسطنبول عام ١٩٩٤. تشجع هذه المنظمة الحوار بين الأديان، مثل دعم مؤتمرات الأديان الإبراهيمية الدولية في حران/أورفا (عام ٢٠٠٠) وماردين (عام ٢٠٠٤)، والتي استقبلت علماء يهود ومسيحيين ومسلمين ليدرسوا معًا أصول التوحيد في الأديان الإبراهيمية، بالإضافة إلى لقاءات منتدى "منصة أبانت" لمناقشة الشواغل الخاصة بالمجتمع التركي. وقد أصبحت منظمة الكتاب والصحفيين نموذجًا لمبادرات الحوار المحلية والوطنية في العديد من الدول. شهدت السنوات الأخيرة إلقاء مزيد من الضوء على مختلف مؤسسات ومراكز الحوار في جميع أنحاء العالم، التي أسسها ويديرها أعضاء في مجتمع كولن. لا توجد قائمة تضم هذه المراكز التي قد تتجاوز ٥٠ مركزًا في الولايات المتحدة وحدها. تعتبر مراكز الحوار محاولة مباشرة لمحاربة الاختلاف من خلال القضاء على حواجز سوء الفهم والشك وأصناف الحقائق التي تكتنف أغلب العلاقات بين الأديان.

بعد الالتزام في الثمانينيات بمحاربة الجهل من خلال التعليم، والالتزام في التسعينيات بمحاربة الاختلاف من خلال الحوار، شهد العقد الأول من القرن الجديد بداية حركة محاربة العدو الثالث الخطير؛ الفقر، من خلال الأعمال الخيرية. هناك تقارير موثقة كثيرة حول المدارس ومراكز الحوار التي يديرها أعضاء مجتمع كولن، لكن الكتابات قليلة حول جهود محاربة الفقر. ربما يكون الفقر العدو الأوسع انتشارًا في المجتمعات الحديثة بين الأعداء الثلاثة الذين أشار إليهم سعيد النورسي. سأحاول في هذه الدراسة أن ألقي الضوء على جهود مجتمع كولن في محاربة الفقر من خلال تقديم المعونات والإغاثة، وتأسيس منظمة "كيمسا يوك مو" لتكون التمثيل المؤسسي لهذا الشاغل^(٧).

٣- أصول منظمة "كيمسا يوك مو"

"كيمسا يوك مو" منظمة جديدة سريعة النمو ترجع أصولها إلى برنامج تلفزيوني عُرض عام ٢٠٠٢ على قناة "صمان يولو" التلفزيونية. كان هدف البرنامج توعية الجمهور بمشاكل

"الأشخاص المحتاجين، والتعساء، والبؤساء، والأقل حظاً". اسم البرنامج "كيمسا يوك مو"، وهي عبارة تركية تعني "ألا يهتم أحد؟" أو "أليس هناك من يهتم؟" حقق البرنامج التلفزيوني نجاحاً كبيراً، مما أدى إلى تأسيس المنظمة التي أصبحت الآن قناة المساعدة والإغاثة الرئيسية في مجتمع كولن.

انصب تركيز المنظمة في الأصل على أعمال الإغاثة أكثر من تخفيف حدة الفقر. فوجهت جهودها لتوفير المساعدات والإغاثة في حالات الطوارئ لضحايا الكوارث الطبيعية، وضحايا الفقر المتوطن. ركزت أنشطة المنظمة بشكل أساسي في البداية على مساعدة ضحايا الفقر داخل تركيا، ثم بدأت تستجيب لطلبات المساعدة الدولية. كان حجم العمل هائلاً بالنسبة لمنظمة صغيرة تحارب مشكلة الفقر. وكما أوضح محمد زي أوزكارا، رئيس مجلس اللجنة التنفيذية لمنظمة "كيمسا يوك مو": "بعد أن بدأنا تقديم أنشطة المعونة والتضامن الاجتماعي، أدركنا أن أبعاد مشكلة الفقر في بلادنا تفوق كل تصوراتنا".

٤- مشروعات منظمة "كيمسا يوك مو" في تركيا

ومع ذلك، انطلقت برامج عديدة تهدف إلى تخفيف حدة الفقر. يسعى "مشروع العائلة الشقيقة" إلى "توأمة" العائلات ذات الدخل المتوسط والعالي مع العائلات الفقيرة، لمساعدة العائلات المحتاجة على مواجهة أزماتها الاقتصادية، ودعم تعليم أطفالها، والوصول إلى مستوى معيشي كريم. أهم ما يميز هذا المشروع، الذي وجد مئات العائلات الشقيقة للمحتاجين، هو تركيزه على أهمية التواصل الشخصي في الحياة العائلية؛ إذ تهدف فكرة توأمة العائلات إلى تفادي "الأعمال الخيرية السرية" التي قد لا تحافظ على الاحترام الذاتي للمستفيدين من مشروعات المعونة.

المشروع الثاني الذي أطلقته منظمة "كيمسا يوك مو" هو مشروع المعونة الغذائية. وفرت حملة الغذاء في إسطنبول التي انطلقت في شهر يونيو ٢٠٠٤ العديد من الأغذية الأساسية لأكثر من ٦٠٠ عائلة تقدمت بطلبات للمنظمة. شهد نفس الشهر توزيع أكثر من ٢٠٠ عبوة من المواد الغذائية على ضحايا زلزال ضرب دوغو بايزيد على منحدرات جبل أرارات شرق الأناضول. وفي العام التالي، تم توزيع عدد أكبر من عبوات المواد الغذائية على عائلات منطقة كارليوفا في ولاية بينجول شرق الأناضول بعد أن ضربها زلزال في منتصف شتاء عام ٢٠٠٥. ثم اجتاحت السيول الشديدة بعض مدن جنوب شرق تركيا عام ٢٠٠٦ مثل مدينة باتمان، وأورفه (الرها)، وماردين، وإسكندرون، وديار بكر، فُوِّزعت المواد الغذائية على الضحايا بقيمة ٢ مليون يورو

تقريبًا. وفي أغسطس عام ٢٠٠٦، دمرت حرائق الغابات نصف قرية يايلا تيبسي (الطوق) في منطقة جانكري في وسط الأناضول. فساعدت منظمة "كيمسا يوك مو" في إعادة تشييد المنازل والمسجد، ووزعت الثلجات والأثاث المنزلي والبطانيات والطعام والملابس على العائلات التي أقامت في الخيام.

إلى جانب تقديم الإغاثة في حالات الطوارئ لضحايا الكوارث الطبيعية، نصبت المنظمة "الخيام الرمضانية" في مختلف أحياء إسطنبول وغيرها من المدن التركية الكبيرة، ونشرت الدعوات اليومية المفتوحة في رمضان لاستقبال أي شخص يرغب في تناول وجبة الإفطار. أقيمت الخيام في أماكن يسهل على الأفراد أو العائلات الفقيرة الوصول إليها. وكما هو الحال في برنامج "العائلة الشقيقة"، اتبع البرنامج صيغة خاصة لضمان التواصل الإنساني بين المحتاجين والميسورين، من خلال مشاركة وجبات الإفطار بدلاً من الاعتماد على التوزيعات الجاهزة التي تفتقر للمسمة الشخصية.

نجحت منظمة "كيمسا يوك مو" في رمضان عام ٢٠٠٧ في إطعام أكثر من مليون وثمانمائة ألف شخص ما بين وجبات الإفطار والعبوات الغذائية. ولم تقتصر الخيام الرمضانية عام ٢٠٠٦ على سبع مدن تركية، بل نُصبت أيضًا في الفلبين، وإندونيسيا، وباكستان، ولبنان، وإثيوبيا. وبحلول عام ٢٠٠٧، وصلت الخيام إلى ٢٢ مدينة داخل تركيا وعشرة دول (هي منغوليا، وباكستان، وسريلانكا، وإندونيسيا، ولبنان، والسودان، وأفغانستان، وكينيا، وإثيوبيا، والفلبين). تم إطعام أكثر من ٤ آلاف شخص يوميًا في شهر رمضان في مدينة ديزلي وحدها.

تحمل برامج منظمة "كيمسا يوك مو" بُعدًا تثقيفيًا كذلك. تسعى المنظمة، بمساعدة مشروعات المعونة التي تشجع الجميع على المشاركة، إلى توعية الأفراد بواجبهم الديني والأخلاقي والوطني، لتقديم مساعدات عينية لضحايا الفقر وسوء الحظ. وتقديرًا لجهود منظمة "كيمسا يوك مو" في إطعام الطعام في رمضان، قال رئيس الوزراء التركي أردوغان: "أشكركم على الأنشطة التي تنفذونها في منظمة "كيمسا يوك مو". رضي الله عنكم". تجب الإشارة إلى أن ميثاق المنظمة يجيز التعاون مع وكالات حكومية وغير حكومية وخاصة، لكن المنظمة ممنوعة صراحة من التدخل في الشؤون السياسية^(٨).

لا تقتصر المساعدات المقدمة للمحتاجين على الغذاء. فقد وُزعت ملابس النوم على المرضى في مستشفى بكركوي للأمراض النفسية في إسطنبول عام ٢٠٠٥، مع توفير مواعيد وزيت وقود للمحتاجين في فصل الشتاء خلال عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥. حصل أكثر من ألف

طالب في مختلف الأقاليم التركية على المساعدة في هيئة كتب ومستلزمات تعليمية أخرى خلال العام الدراسي ٢٠٠٦. كما شاركت المنظمة في شهر سبتمبر ٢٠٠٤ في برنامج لمحو الأمية، وتعاونت مع وكالة أنشئت لإيجاد وظائف لأطفال الشوارع. ومن بين المشروعات الأخرى التي شارك فيها ٢٢ فرعاً محلياً للمنظمة زيارات لمنازل كبار السن، وجمع الملابس، ومساعدة ذوي الإعاقات البدنية.

٥- مشروعات المعونة الدولية

بدأت منظمة "كيمسا يوك مو" أعمالها بمواجهة مشكلة الفقر في تركيا، وسرعان ما تحولت جهودها إلى مجال المعونة والإغاثة الدولية. بعد وقوع زلزال وتسونامي المحيط الهندي يوم ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٦، تضررت مناطق في إندونيسيا، وسريلانكا، والهند، وتايلاند، وتجاوزت الوفيات ١٢٨ ألف شخص في إندونيسيا وحدها. كانت منظمة "كيمسا يوك مو" واحدة من الوكالات الدولية الكثيرة التي قدمت الإغاثة في حالات الطوارئ، وشاركت في جهود إعادة إعمار المنطقة. أطلقت المنظمة حملة لجمع التبرعات لصالح المناطق المتضررة، وأرسلت الملابس والطعام والدواء للاجئين في الخيام، ووفرت المواد الكيميائية اللازمة لتنقية مياه الشرب. كما مولت المنظمة عمليات إصلاح المنازل والمدارس، وأعدت تشغيل مدرسة ضربها تسونامي. عقب الزلزال المدمر الذي ضرب إقليم كشمير في باكستان خلال شهر أكتوبر ٢٠٠٥، أقامت منظمة "كيمسا يوك مو" ثلاث مدن خيام للضحايا. استأجرت المنظمة طائرة بضائع لتوفير الإغاثة الفورية في حالات الطوارئ، وتولت مسؤولية توفير الاحتياجات الغذائية والملابس لعدد ٥ آلاف لاجئ على مدار ٦ أشهر. انطلقت ٢٩ مقطورة من تركيا إلى باكستان تحمل المعونات الطارئة، بما فيها لحوم أكثر من ٤٠٠ عجل. كما شيدت المنظمة ١٠ مدارس سابقة التجهيز وأنشئتها، تتسع كل منها لعدد ٣٥٠ طالباً، ثم سلمت إدارة هذه المدارس لوزارة التربية والتعليم في باكستان.

بعد اجتياح إسرائيل للبنان في شهر يوليو ٢٠٠٦، استجابت منظمة "كيمسا يوك مو" بإرسال معونات إنسانية لضحايا الحرب، وأغلبهم من النساء والأطفال. فقد أرسلت ١٣ مقطورة مليئة بالدقيق والأغذية الجافة من تركيا إلى السفارة الأردنية في فلسطين. وولت جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني توزيع المعونات. كما أرسلت المنظمة ١٣ مقطورة أخرى تحمل الدقيق والأغذية الجافة إلى لبنان مباشرة، وسرعان ما تبعتها قافلة ثانية تضم ١٠ مقطورات محملة بالأغذية.

بدأت منظمة "كيمسا يوك مو" عام ٢٠٠٧ تنفيذ برامج المعونات في إفريقيا. فبدأت بإثيوبيا وكينيا، ثم النيجر، وأوغندا، وإفريقيا الوسطى، والكاميرون، والسنغال، وغينيا، والكونغو، وبوركينا فاسو، والتشاد، وتوجو، وغانا، وليبيريا، ومدغشقر، وبنين، وموريتانيا، وأطلقت حملة خاصة إلى دارفور في السودان بداية من مارس ٢٠٠٦. تنفذ المنظمة مشروعات في آسيا، بخلاف المذكورة أعلاه، في كل من بنجلاديش والفلبين. كما أرسلت فرق إنقاذ وإغاثة إلى بنجلاديش بعد إعصار عام ٢٠٠٧.

أما أحدث الحملات التي أطلقتها المنظمة فجاءت استجابة للأحداث المأساوية الأخيرة التي شهدتها كل من ميانمار والصين. وصل أول فريق من المتطوعين والإمدادات من "كيمسا يوك مو" إلى ميانمار في شهر مايو ٢٠٠٨، وحصل على تصريح بتقديم المساعدات الطارئة لضحايا الإعصار، من خضراوات وأرز ومياه شرب ومواد مطهرة. واستطاع معلمو المدارس - التي يديرها أعضاء في مجتمع كولن - المقيمون بالفعل في ميانمار تنسيق جهود الإغاثة الإنسانية.

لم يمض وقت طويل على الجهود التطوعية التي قدمتها منظمة "كيمسا يوك مو" في ميانمار، حتى أعلنت عن إطلاق حملة ثانية لجمع التبرعات لضحايا زلزال الصين. وأعلنت المنظمة يوم ٢١ مايو ٢٠٠٨ إطلاق حملة جديدة، بدأت بتبرع بقيمة ١٥ ألف دولار أمريكي من فتح الله كولن نفسه^(٩).

٦- نظرة على المستقبل

وصلت برامج المعونة التي نفذتها منظمة "كيمسا يوك مو" بحلول عام ٢٠٠٧ إلى ٣٧ مدينة داخل تركيا و٤٢ دولة حول العالم. مع إن أغلب هذه الدول كانت في الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا، فقد نفذت المنظمة برامج المعونة والإغاثة في ٦ دول أوروبية، وفي بيرو في أمريكا الجنوبية. نجحت المنظمة في تحقيق الكثير خلال فترة قصيرة نسبياً منذ تأسيسها عام ٢٠٠٢، في حين لا توجد منظمات كثيرة استطاعت أن تنمو بهذه السرعة أو أن تحقق هذا القدر في وقت قصير.

اكتسبت المنظمة مكانة مرموقة بالفعل في أوساط هيئات المعونة الدولية. على سبيل المثال، من المتوقع عرض منشورات أعمال المساعدات الإنسانية التي تقدمها منظمة "كيمسا يوك مو" في معرض لندن للكتاب، المقرر إقامته خلال شهر أبريل ٢٠٠٩. لا تتردد المنظمة في تجربة طرق مبتكرة لتحقيق أهدافها. فقد أطلقت حملة جمع تبرعات لضحايا العنف في دارفور تعتمد على

تشجيع الشباب التركي على المساهمة بمبلغ ٥ ليرات تركية من خلال إرسال رسالة نصية قصيرة بمساعدة أكبر مشغلي خدمات المحمول في تركيا.

تفكر المنظمة في المستقبل في تشكيل فرق متطوعة من موظفي الإعانة تحمل الاسم المبدئي "متطوعو كيمسا يوك مو" لأداء أنشطة المعونة في تركيا وبعض الدول الأخرى. لا نملك سوى أن نتساءل، بعد أن تواصل المنظمة نموها وتطورها كغيرها من الوكالات، هل ستكرس الجزء الأكبر من الوقت والجهد لدراسة أسباب الفقر النظامية، مع تناقص الوقت المخصص للاستجابة لحالات الطوارئ وتقديم المساعدات الفورية لمن يحتاجها.

"كيمسا يوك مو" مبادرة مستوحاة من أسمى القيم والتعاليم الإسلامية. يشكّل نموذج المساعدة التي قدمها الأنصار للمهاجرين في حياة النبي محمد الأساس الذي بُنى عليه قيم المنظمة المستمدة من تجربة الجيل الأول من المسلمين. لقد أصبحت الأعياد الإسلامية مناسبة جيدة لإبداء الاهتمام الواضح بالفقراء. وأصبح شهر رمضان وقتًا أساسيًا لإلقاء الضوء على مشاكل الفقراء. فكان مشروع "أضحىة ٢٠٠٧" فرصة مواتية خلال عيد الأضحى لتوزيع اللحوم على المحتاجين في عدة دول. شارك في المبادرة ١٥٠٠ متطوع، تولوا مسؤولية ذبح الأضاحي وتوزيع اللحوم على فقراء المسلمين وغير المسلمين في ٤٢ دولة. وبحلول عيد أضحى عام ٢٠٠٨، كان أكثر من مليون ونصف المليون شخص فيما يزيد عن ٥٠ دولة قد تلقوا اللحوم التي تبرعت بها منظمة "كيمسا يوك مو" وقامت بتوزيعها^(١).

إذا كانت منظمة "كيمسا يوك مو" تستمد قوتها الروحانية من تعاليم الإسلام، فإن هذا لا يعني أن المعونات المقدمة للمحتاجين تقتصر على المسلمين. فإن جهود الإغاثة في حالات الطوارئ في كل من ميانمار والصين وبيرو وسريلانكا، ومبادرات توزيع اللحوم في عيد الأضحى دون تمييز على أساس الدين، تؤكد أن اهتمام المنظمة لا يقتصر على المحتاجين في الأمة الإسلامية.

سيلاحظ المسيحيون واليهود وغيرهم أن أغلب البرامج التي تقدمها منظمة "كيمسا يوك مو" تشبه -إن لم تكن تطابق- البرامج التي تقدمها غيرها من الهيئات الخيرية ذات التوجه الديني أو العلماني، بما فيها الهيئات الإسلامية الأخرى مثل هيئة الإغاثة الإسلامية. على سبيل المثال، يبدو الموقعان الإلكترونيان لمنظمة "كيمسا يوك مو" و"هيئة الإغاثة الكاثوليكية" متشابهين جدًا وكأنهما منظمتان شقيقتان. وهذا التشابه ليس غريبًا لأن منبعه نفس الإله الذي يهتم جدًا بمعاناة الفقراء، سواء في التقاليد اليهودية أو المسيحية أو الإسلامية. يمكن النظر إلى منظمة "كيمسا يوك مو" باعتبارها أحدث وأسمى فرصة لأتباع الأديان الإبراهيمية لوضع التزامهم حيز التنفيذ.

الهوامش

- (١) سعيد النورسي، "مناظرات"، (تحرير)، ص ٤٣٣، مأخوذ من شكران فاهيدي، "بديع الزمان سعيد النورسي"، إسطنبول، ١٩٩٢، ص ٩٥.
- (٢) فتح الله كولن، مأخوذ من "فتح الله كولن: هل يحمل أكثر مما تراه العين؟"، باترسون، نيويورك: دار نشر زينور، بدون تاريخ، ص ٩٦.
- (٣) إم هاكان يافوز، "الإسلام على الساحة العامة: حالة حركة النور"، الإسلام التركي والدولة العلمانية (تحرير إم هاكان يافوز وجون إل إسبوزيتو)، سيراكيوز: مطبعة جامعة سيراكيوز.
- (٤) إحسان يلماز، "تغيير الخطاب التركي الإسلامي حول الحداثة والغرب والحوار"، دراسة مقدمة للرابطة الدولية لدراسات الشرق الأوسط (IAMES)، برلين، ٥-٧ أكتوبر ٢٠٠٠، الحاشية السفلية ٣٣.
- (٥) مصطفى أكبول، "ماذا جعل حركة كولن ممكنة؟" في "العالم الإسلامي يتغير: إسهامات حركة كولن"، لندن: مطبعة جامعة ليدز متروبوليتان، ٢٠٠٧، ص ٢٨.
- (٦) مثل توماس ماكل، "فتح الله كولن المربي"، الإسلام التركي والدولة العلمانية.
- (٧) ترجمة الاسم الرسمي باللغة الإنجليزية "منظمة المعونة والتضامن كيمسا يوك مو"، ويمكن زيارة الموقع الإلكتروني للمنظمة هنا: <http://www.kimseyokmu.org.tr/en>
- (٨) "ميثاق منظمة المعونة والتضامن كيمسا يوك مو"، البند ٣.
- (٩) "Kimse Yok mu, Cin'e de yardimeliuzatiyor"، موقع تشايناتورك <http://www.chinaturk.com/modules.php?name=News&file=article&sid=١٧٨>
- (١٠) "يعيد العيد الوحدة إلى تركيا"، جريدة زمان اليومية، ١ يوليو ٢٠٠٨.

ياسين محمد

أستاذ رئيسي للفلسفة العربية والإسلامية، قسم اللغات الأجنبية في جامعة ويسترن كيب (UWC)، جنوب إفريقيا. حصل على الدكتوراه من جامعة يوهان فولفجانج جوته في فرانكفورت بألمانيا. وهو عضو مؤسس في الجمعية الدولية للفلسفة الإسلامية. حصل على الجائزة السنوية الدولية عن كتابه "الطريق إلى الفضيلة" من جمهورية إيران الإسلامية. من مؤلفاته: "فطرة: المفهوم الإسلامي للطبيعة البشرية" (١٩٩٦). الطريق إلى الفضيلة: الفلسفة الأخلاقية للراغب الأصفهاني: ترجمة مع مقدمة نقدية لكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة (٢٠٠٦)؛ سيكولوجية الشخصية: وجهات نظر إسلامية، محرر. ي. محمد و أ. حق (٢٠٠٩).



فلسفة فتح الله كولين التعليمية وتطبيقها في جنوب إفريقيا

يحتفظ أولياء الأمور المسلمون في جنوب إفريقيا من تحرر المدارس العلمانية الخاصة وانفتاحها، وينتقد البعض النزعة الانتقائية في المدارس الإسلامية الخاصة. صحيح أن مدارس كولين علمانية، لكنها تحاول الموازنة بين احتياجات الفرد والمجتمع. فهي تركز على بناء الشخصية وغرس القيم الأخلاقية العالمية، وتوفر في ذات الوقت مستوى ممتازاً من التعليم يؤهل الطلاب ليكونوا مواطنين صالحين يفيدون المجتمع. تستقبل هذه المدارس كل الطلاب، بغض النظر عن قناعتهم الدينية، أو خلفيتهم الثقافية، أو حالتهم الاجتماعية الاقتصادية.

ي

تتناول هذه الدراسة الفكر التعليمي لفتح الله كولن، وتطبيقه في إحدى المدارس في جنوب إفريقيا. ستحاول أن تبين مدى كفاءة المدرسة، من الناحية الأكاديمية وفي سعيها لنشر القيم الأخلاقية العالمية. تقدم مدارس كولن بديلاً للمدارس الإسلامية الخاصة والمدارس العلمانية الخاصة. فهي تختلف عن المدارس العلمانية في تركيزها على غرس القيم الأخلاقية، وتختلف عن المدارس الإسلامية في قبولها لكل الطلاب بغض النظر عن قناعاتهم الدينية. تقدم مدارس كولن خدمة للمجتمع من خلال نقل المعرفة إلى البشر، وغرس قيم أخلاقية مثل تحمل المسؤولية، والتسامح، والاحترام، والموثوقية، والتعاطف.

تنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: أولاً، نتحدث عن مشكلة ثنائية التعليم في تركيا منذ عام ١٩٢٤، وتوضح كيف حاول فتح الله كولن التوفيق بين العلم والدين. ثانياً، تشرح النظرية التعليمية التي يتبعها فتح الله كولن، ولا سيما التعليم الأخلاقي، مع التركيز على دور المعلم بوصفه ناقلاً للعلم والقيم الأخلاقية للبشرية. ثالثاً، تناقش تطبيق نظرية كولن التعليمية، مع الإشارة إلى مدرسة ستار الدولية الثانوية في كيب تاون، وتتناول دوافع المعلمين، والمنهج الأخلاقي للمدرسة، والمشكلات التعليمية، والفرص المحتملة.

تأسست مدرسة ستار الدولية الثانوية -وهي أول مدرسة تركية- في كيب تاون عام ١٩٩٩. ثم تأسست بعدها مدرستان، إحداهما في دربان (مدرسة ستار الدولية) والأخرى في جوهانسبرج (مدرسة هورايزون الدولية). وهي مدارس ثانوية علمانية خاصة، تدرّس مناهج وزارة التربية الوطنية، وتقبل كل الأطفال، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. قد يرجع أحد أسباب نجاحها الهائل في تركيا إلى رؤية التربويين المستمدة من رؤية فتح الله كولن. تعزز الدراسة التعمق في استكشاف هذه الرؤية، وشرح طريقة تطبيقها في جنوب إفريقيا. تستقبل المدارس التي تتبع النظام التركي الطلاب من مختلف الأديان، والأعراق، والمستويات الاجتماعية، والخلفيات الثقافية. تشجع المدارس تنمية القيم الاجتماعية مثل الاحترام، والتعاون، والتسامح، وإعداد الطلاب للانضمام إلى مجتمع تعددي ديمقراطي. كما توفر المدارس للأقليات المسلمة فرصة غرس القيم الأخلاقية لدى الطلاب في بيئة غير دينية، وتيسير انضمامهم إلى مجتمع غالبيته مسيحية. يمكن محاكاة هذا النموذج في أي دولة أخرى حيث يشكل المسلمون أقلية. فهو يؤكد على إمكانية حفاظ الشخص على هويته الإسلامية الخاصة، والاندماج في مجتمع واسع في الوقت ذاته.

لا تدرّس القيم الأخلاقية في مواد مستقلة مثل "مبادئ الحياة الصحيحة" أو "الإرشاد". فحصر الأخلاق في حدود مادة تدرّس مرة واحدة في الأسبوع دليل كافٍ على الإخفاق الأخلاقي.

بل يجب أن ترسم الأخلاق معالم رؤية المدرسة ومنهجها، وأن تتكامل مع دروس الصف، بل أن يعيشها المعلمون ويمارسونها.

ثنائية التعليم في تركيا

أوضح نظام الفكر الكمالي منذ عام ١٩٢٤ أن مشكلة تركيا تكمن في الدين، وأنه السبب في إهمال العلم وتأخر تركيا. وبالتالي، فقد شجع طلب العلم، لكن على حساب الدين والإنسانية. استطاعت الدولة العلمانية أن تُبعد الدين عن السياسة ونظام التعليم العام. فظل الدين شأنًا خاصًا، وأصبح النظام التعليمي علمانيًا، مع تخصيص حصة واحدة أسبوعيًا في المنهج الدراسي للتعليم الديني، وذلك في حال مطالبة أولياء الأمور بذلك.

على الجانب الآخر، لم يثق أنصار الدين في نظام التعليم العلماني الجديد، وتجنبوه تمامًا، وواصلوا تأييد التعليم الديني. لكن خريجهم تعرضوا للتهميش، ولم تُتاح لهم فرصة تقديم إسهامات مهمة في المجتمع المدني. أدرك الفيلسوف الإسلامي التركي سعيد النورسي (المتوفى عام ١٩٦٠) مشكلة ثنائية العلماني والديني، وحاول حلها من خلال التوفيق بين الدين والعلوم. لا يوجد ما يمنع المسلم المتدين من الاهتمام الشديد بالعلم، فالإسلام يحث على التدبر والتفكير في الطبيعة. فكرّس النورسي رسائل النور للتوفيق بين العلم والدين، وعارض فلسفة الوضعية العمياء للعلم، وشجع المسلمين عوضًا عن ذلك على محاولة الفهم الحقيقي للعلم. رأى النورسي أن العلم هو دراسة قوانين الطبيعة، وبالتالي إبداع الخالق.

تأثر فتح الله كولن بأفكار معاصره الأكبر سنًا سعيد النورسي في رسائل النور، وشجع مثله التوفيق بين العلم والدين. فهو يرى أن تعليم العلوم وتعليم الدين أمران متوافقان يكمل أحدهما الآخر. صحيح أنه درس في مؤسسات تعليمية تقليدية، فقد شجع أتباعه على افتتاح مدارس عصرية بدلاً من المدارس الدينية والمساجد التقليدية. فهو يرى، كالنورسي، أن التعليم المثالي يجمع بين العلم الحديث والمعرفة الإسلامية. العلم في غياب الدين قد يقود المرء إلى الإلحاد، والدين في غياب العلم قد يقوده إلى التعصب والتطرف. والجمع بينهما يحفز الطالب على إجراء مزيد من البحث، وتعميق معتقداته ومعارفه (كورو، ٢٠٠٣: ١٢٠، ويلماز، ٢٠٠٥: ٢٠٤).

ويضيف أن العلم والتكنولوجيا لا يمكنهما شرح معنى الحياة ومغزاها، وقد يضّرّان بالبشرية إذا تلاعب بهما أشخاص متحيزون غير مسؤولين. لا يستطيع العلم أن يوفر السعادة الحقيقية، أو أن يحل محل الدين. كما يؤكد أن تطور الفيزياء في القرن العشرين قضى على فلسفة وضعية العلم (كورو، ٢٠٠٣: ١٢٠).

غير أن كولن، خلافاً للنورسي، شجع هذا التصالح من خلال تشييد المدارس في جميع أنحاء العالم. ولم يعن ذلك حينها أسلمة المعرفة بالصورة التي نراها اليوم^(١). لم تكن هناك أي محاولة لبث عناصر إسلامية في المناهج العلمانية. بل اقتصر هدفه على إعداد معلمين مسلمين ملتزمين يتقنون العلوم المختلفة. يساعدهم التعليم على "تربية جيل تترسخ فيه تعاليم الإسلام، قادر على تقديم إسهاماته في عالم العلوم المعاصر. إنه يطمح لبناء نخبة مثقفة في الأمة الإسلامية بوجه عام، وفي البيئة التركية بوجه خاص" (أجاي، ٢٠٠٣: ٥٠). يؤهل التعليم عالي المستوى المسلمين المتدينين لشغل مناصب اقتصرت في السابق على أتباع النظام الكمالي. بالطبع أوقع ذلك كولن في مشكلة مع الدولة. كيف يستطيع رجل متدين التوفيق بين العلم والدين؟ كان هذا تحدياً للدولة التركية العلمانية التي حاولت تفويض دور الدين في الشؤون العامة على مدار ما يقرب من قرن.

يرى كولن أن المدارس العلمانية الحديثة لم تنجح في تحرير نفسها من التحيزات والأعراف الخاصة بالأيديولوجية الحديثة، في حين أبدت المدارس الدينية اهتماماً ضئيلاً أو قدرة محدودة على مواجهة تحديات التكنولوجيا والفكر العلمي. تفتقر المدارس الدينية إلى المرونة والرؤية والقدرة على التخلي عن الماضي، وإدخال التغيير، وتقديم تعليم يلائم العصر الحالي. يكمن التحدي الآن في الجمع بين نقاط قوة التعليم التقليدي والتعليم الحديث. يجدر بالشباب أن يسمو فوق نظام التعليم الحالي الذي يصرف انتباهه عن المعرفة واستخدام العقل. كذلك شجع كولن تعليم النساء واتباع المعايير العالية في تعليمهن (مايكل، ٢٠٠٣: ٧٢، ويلماز، ٢٠٠٥: ٢٠٣-٢٠٤). يستطيع المتعلمون، بمساعدة التعليم المتوازن، أن يصبحوا رواد التغيير الإيجابي، لكن إذا افتقروا إلى المثل العليا والمهارات المطلوبة، فسيكونون عبئاً إضافياً يزيد أزمة المجتمع. يبدو أن المثقفين يفضلون "الثقافة الحديثة المهووسة بالتكنولوجيا التي تفتقر إلى الروحانيات، على الأسس الثقافية التقليدية التي تطورت على مر القرون بمهارة ودقة" (مايكل، ٢٠٠٣: ٧٤). لا شك أن تدريب المعلمين أمر ضروري؛ ليس فقط على مناهج التدريس، بل على تربية الطفل بكل جوانبه. يجب أن يكون المعلم قدوة، أو لن يكون لديه أمل في إصلاح الآخرين. يقول كولن: "حتى تجذب الآخرين للسير في الطريق إلى عالم أفضل، يجب أن يظهروا عالمهم الداخلي من الكره والضغائن والغيرة، ويزينوا عالمهم الخارجي بكل أنواع الفضائل" (مايكل، ٢٠٠٣: ٧٨). وبالتالي يجدر بالمعلمين أن يجمعوا بين دراسة العلم وتنمية الشخصية. يجب أن يُقاس النجاح بالتقدم المحرز في الجانبين العلمي والأخلاقي، لأن التقدم المادي وحده في غياب الأخلاق كفيلاً بالقضاء على البشرية.

لعل الهدف الأسمى للقضاء على ثنائية التعليم هو بناء "الجيل الذهبي" المسلح بأدوات العلم والدين. سيكون هذا الجيل الجديد، الذي يجمع بين المعرفة والقيم الإنسانية، قادرًا على حل مشكلات المستقبل (أجاي، ٢٠٠٣: ٥٧). يعلمنا الإيمان كل ما هو طيب ومفيد، وبالتعاون مع العلم، يمكنه أن يفيد البشرية. لاقت هذه الفكرة التأييد بعد عام ١٩٨٠، واعتُبر هذا النهج المتكامل (أجاي، ٢٠٠٣: ٥٧) بديلاً أفضل من التعليم الكمالي، الذي يميل إلى تفويض الدين، وإبعاد النخبة العصرية عن أصولها التقليدية (أجاي، ٢٠٠٣: ٥٨).

يشير يلماز إلى نسخة الدولة الرسمية من الإسلام ويطلق عليها "إسلام لوزان"، والتي تعني فصل الدين عن الدولة، غير أن النسخة التركية من "إسلام لوزان" متناقضة إلى حد ما، في محاولتها إبعاد الدين عن الحياة العامة عن طريق وضعه تحت إشراف الدولة. وبناء على ذلك، بالرغم من جواز التعليم الديني بموجب الدستور، فإنه يتحكم في تقديمه للمتعلمين (يلماز، ٢٠٠٥: ٣٨٩). وهكذا لا يتخلص النظام الكمالي من مادة الدين من المنهج كلياً فحسب، بل يتحكم فيها بما يحقق مصلحته. على النقيض من ذلك، تزاوّل مدارس كولن عملها بصورة مستقلة عن الدولة؛ فتتحداهما بطريقة غير مباشرة، عندنا تبين أن التقدم ليس حكراً على العلمانيين، وأن المعلمين المتدينين متقدمون أيضاً.

قد تكون النظرية التعليمية مأخوذة من فتح الله كولن، لكن وضع المنهج وإدارة المدارس متروك للتربويين. كذلك لا يلعب التجار الأتراك أي دور في إدارة المدارس، ويتركون اتخاذ كل القرارات التعليمية للمديرين والمعلمين. يأتي التمويل من تركيا؛ من التجار الأتراك المحليين الذي يقيمون في جنوب إفريقيا، وبعض الشركات في جنوب إفريقيا (مقابلة مع كمال الدين أوزدمير، مايو ٢٠٠٦). يرى كولن أن دور التعليم إعداد المتعلمين ليكونوا مواطنين وأشخاصاً صالحين. تحرص المدارس الجيدة على غرس الفضائل في الطلاب، ومساعدتهم على الارتقاء بعقولهم وأرواحهم. المعلم الحقيقي هو الذي يغرس البذور ويتعهدا بالرعاية. ومن واجبه أن ينشغل بالأشياء الطيبة والمفيدة، وأن يرشد الطفل إليها.

نظراً للتوجه العلمي لمدارس كولن، فإنها تحرص دائماً أن تكون مجهزة بأفضل المختبرات وغرف الكمبيوتر. فهدفها أن يبرع الطلاب في هذه المجالات، لتحسين مستوى المدارس العلمي. غير أن الإنسانيات والأدب لا تلقى نفس القدر من الاهتمام^(٣).

لا يرى كولن أي تعارض بين القرآن والكون؛ فالكون يعكس دلائل وجود الله. لا يتعارض الدين مع العلم والبحث العلمي أو يحد منهما؛ بل إنه يوجه العلوم، ويحدد أهدافها، ويكسوها

بالقيم الإنسانية (كولن، ٢٠٠٢: ٨٠-٨١). وبالتالي فإن السعي لطلب العلم متوافق مع تعاليم القرآن، ويزيد الإيمان، شريطة أن يوجهه الدين. غير أن الدين أسمى من العلم، لأنه يعد الفرد للعالم الأبدى، في حين يعده العلم لعالم زائل. حتى يفيد العلم الإنسانية يجب أن يوجهه الإيمان. الحقائق الدينية أسمى لأنها مطلقة، لكن الحقائق العلمية نسبية ومتغيرة على الدوام. والحقائق العلمية المذكورة في القرآن لا يُفترض أن تكون غايات في ذاتها، بل أن تخدم هدفاً أكبر وهو الدين، الذي يعد مصدر الإرشاد الروحي والأخلاقي للبشرية. إذا تعارضت إحدى الحقائق العلمية مع حقيقة دينية وفشلت كل جهود التوفيق بينهما، فعلياً أن نقف في صف الحقيقة الدينية. حقائق الدين المطلقة هي الفيصل عند الحكم على الحقائق العلمية (باكار، ٢٠٠٥: ٣٦٢-٣٦٣).

فلسفة فتح الله كولن التعليمية

يركز كولن على بناء الشخصية بوصفه جزءاً لا يتجزأ من فلسفته التعليمية، ويستند تعريفه للشخصية إلى الفكرة الإنسانية الكلاسيكية عن الروح.

سيكولوجية الروح

معرفة الروح هي مفتاح بناء شخصية تتحلى بالأخلاق والفضيلة. يتبنى كولن فكرة ثلاثية الروح لأفلاطون، ويعتبرها الأساس لشرح سيكولوجية الإنسان، والأصل الذي يستند إليه منهجه في تعليم الأخلاق. يتحدث كولن عن الجوانب الثلاثة للروح، متأثراً بمسكويه (المتوفى عام ١٠٣٠)، ويوضح أنها العاقل والنزق والشهواني، وتمثل الحكمة والغضب والشهوة. عند إدارة هذه الجوانب الثلاثة بحكمة، فإنها تجلب الشجاعة والحكمة والعفة بالترتيب. وعند إدارتها بحكمة، فإنها تجلب العدالة. وهذه الفضائل الأربع هي جوهر المبادئ الأخلاقية للروح. يتحكم الجانب العاقل في الجانبين الأقل منه. وإذا تلقى التربية الملائمة، فسينجح في إدارة (وليس القضاء على) الشهوة والغضب، لأنهما مهمان ومفيدان^(٣). يقول كولن، استكمالاً لهذه الرؤية المتفائلة للطبيعة البشرية:

"يجب ألا نسعى للقضاء على غرائزنا، بل أن نستخدم إرادتنا الحرة لاحتوائها وتطهيرها، لتوجيهها وإرشادها إلى طريق الفضيلة. على سبيل المثال، لا يُفترض بنا التخلص من شهوتنا، بل أن نشبعها بطريقة مشروعة من خلال التكاثر. تكمن السعادة في اتباع القيود الشرعية لللياقة والعفة، وليس الانغماس في الملذات والفجور. وبالمثل، يمكن تحويل الغيرة إلى منافسة خالية من البغض تلهمنا أن نقتدي بالأشخاص الذين يُكثرون من الفضائل وفعل الخير. يساعدنا

تأديب وتهذيب عقولنا على اكتساب المعرفة، والفهم أو الحكمة في النهاية. إن تدريب النفس على السيطرة على الغضب يولد الشجاعة وقوة التحمل. وتهذيب الشهوات والرغبات يولد العفة" (كولن، ٢٠٠٢: ٦٠، وكولن، ٢٠٠٦: ٢٠٣-٢٠٤).

تقع على عاتق المعلم مسؤولية تربية الطفل، عقلاً وروحاً. عندما نسمو فوق رغباتنا الحيوانية بمساعدة العقل، نرتقي إلى مرتبة البشر. يحتل الإنسان مكانة متوسطة بين الحيوانات والملائكة، فهو ليس حيواناً بالكامل لأنه يتمتع بالعقل، وليس ملائكاً بالكامل لأن لديه رغبات، وهذا ما يمنحه السعادة في الحياة الدنيا والآخرة. ولهذا فإنه يحتاج المعرفة، وهي رغبة متأصلة فيه. بخلاف الحيوانات التي تتعلم بالغريزة، لا ينضج الإنسان إلا باكتساب المعرفة بمرور الوقت. يقول كولن:

"نحن نولد عاجزين، وجاهلين بقوانين الحياة، ولا بد أن نصرخ طلباً للمساعدة التي نحتاجها. وبعد مرور عام أو أكثر، نستطيع الوقوف على أقدامنا والمشي قليلاً. وعندما نبلغ ١٥ عاماً، من المفترض بنا أن ندرك الفرق بين الخير والشر، والنافع والضار. لكننا نستغرق حياتنا بأكملها لنحقق الكمال الفكري والروحي. مهمتنا الرئيسية في الحياة الوصول إلى الكمال والتقاء في تفكيرنا ومفاهيمنا ومعتقداتنا. من خلال الوفاء بمقتضيات عبوديتنا للخالق الرازق الحفيظ، ومن خلال سبر أغوار معجزة الخلق بمساعدة قدراتنا ومداركنا، نسعى للوصول إلى مرتبة البشر بحق، واستحقاق حياة النعيم الأبدي في الآخرة" (كولن، ٢٠٠٢: ٥٨، وكولن، ٢٠٠٦: ٢٠٢).

قد نحتاج إلى ٢٠ عاماً لتعلم ما يتعلمه عصفور في ٢٠ يوماً. لا يولد الحيوان ليتعلم، على عكس البشر. وقد يقضي الشخص حياته بأكملها "للوصول إلى نقاء الفكر والمخيلة والعقيدة" (كولن، ٢٠٠٢: ٧٩، وكولن، ٢٠٠٦: ١٩٥). وكما أشرنا سابقاً، فإن تهذيب غرائزنا الدنيا مفتاح إنسانيتنا. وهو ما يتطلب كمال الروح للهروب من "سجن" غرائزنا الدنيا. ولا يتحقق كمال الروح إلا بالتعليم، الذي يشمل العقيدة والعبادة.

نحن مخلوقات لا يقتصر تركيبها على الجسم، أو العقل، أو المشاعر، أو الروح، بل نحن مزيج متناغم من كل هذه الجوانب. يمتلك كل شخص منا الجسم باحتياجاته المختلفة، والعقل باحتياجاته الأكثر دقة وأهمية، تدفعه مخاوف الماضي والمستقبل للبحث عن إجابات أسئلة مثل: "من أنا؟ ما هذا العالم؟ ماذا تريد الحياة والموت مني؟ من الذي أوجدني في هذا العالم ولماذا؟ ما مصيري وما الهدف من الحياة؟ من دليلي ومرشدي في هذه الرحلة الدنيوية؟" أضف إلى ذلك أن كل شخص لديه المشاعر، التي لا يشبعها العقل، والروح التي تمنحه هويته

الإنسانية الأساسية. كل فرد منا هو مجموع هذه الجوانب. إذا نظرنا إلى أي رجل أو امرأة، هو محور كل الأنظمة والجهود، وسعينا إلى تقييمه كمخلوق يمتلك كل هذه الجوانب، فإنه عند تلبية كل احتياجاته، سيصل إلى السعادة الحقيقية. وبالتالي، لن يتحقق التقدم الإنساني وتطور الذات إلا بالتعليم" (كولن، ٢٠٠٢ / ٧٨، وكولن، ٢٠٠٦ : ١٩٤).

التعليم المنزلي

يبدأ التعليم في المنزل، وما المدرسة إلا امتداد للمنزل. لا يقتصر دور المعلم على تقديم المعلومات فحسب، بل إنه يربي الشخصية بجانبها العقلي والانفعالي. والشخصيات القوية هي التي تبني مجتمعات قوية، لهذا يجب أن يكون الآباء والمعلمون قدوة للأطفال. تبدأ كل الجهود بالمعرفة.

يعتمد مستقبل الأمة على شبابها. وإذا أراد أي شعب أن يؤمن مستقبه، فعليه تسخير كل جهد ممكن لتربية أطفاله كما يفعل مع مشكلاته الأخرى... إن ظهور الرذائل في الجيل الجديد، إلى جانب عدم كفاءة بعض المسؤولين وانتشار مشكلات أخرى على نطاق الأمة، راجع إلى الظروف السائدة والصفوة الحاكمة على مدار الـ ٢٥ عامًا الماضية. وبالمثل، فإن الأشخاص المكلفين بتعليم الصغار حاليًا سيكونون مسؤولين عن الرذائل التي ستظهر بعد ٢٥ عامًا. إذا أردنا التنبؤ بمستقبل أمة، فيمكننا النجاح في ذلك بالتعمق في دراسة نظامي التربية والتعليم للصغار. لا تُعتبر الحياة "حقيقية" إلا بالمعرفة. لهذا يمكن اعتبار أولئك الذين يهتمون بالتعليم والتدريس "أمواتًا" برغم حياتهم، لأننا خُلِقنا لتعلم وتبادل المعارف مع الآخرين. يعتمد اتخاذ قرارات صائبة على سلامة العقل والقدرة على التفكير. ينير العلم والمعرفة العقل ويساعدانه على النمو والتطور. لهذا فإن العقل المحروم من المعرفة لا يستطيع اتخاذ قرارات صائبة، ومعرض دائمًا للخداع، ويسهل تضليله" (كولن، ٢٠٠٢ : ٦٢، وكولن، ٢٠٠٦ : ٢٠٥).

الآباء مسؤولون عن تنمية عقول أطفالهم. لهذا من الضروري اختيار شريك الحياة المناسب بحكمة. ويجب تقديم الأخلاق على الثراء والجمال.

يمكن أن يتلقى الأطفال التعليم الجيد في المنزل، شريطة أن يحظوا بحياة أسرية صحية. لهذا فإن الزواج يجب أن يهدف إلى تأسيس أسرة صحية، تسهم في بقاء الأمة بوجه خاص، والجنس البشري بوجه عام. إرساء السلام والأمان والسعادة في المنزل اتفاق مشترك بين الأزواج المتوافقين في الأفكار والأخلاق والمعتقدات. إذا أقدم اثنان على الزواج، فيجب أن يعرف أحدهما الآخر حق المعرفة، وأن يقدم نقاء المشاعر والعفة والأخلاق والفضيلة

على الثراء المادي وجمال الشكل. تكشف وقاحة الأطفال وتصرفاتهم السيئة حقيقة البيئة التي تربوا فيها. تنعكس الحياة الأسرية المختلة على روح الطفل بشكل متزايد، وبالتالي على حياة المجتمع. يجب أن يملأ الآباء عقول أطفالهم بالمعارف والعلوم قبل أن تمتلئ بأشياء غير نافعة، لأن الأرواح التي تفتقر إلى الحقيقة والمعرفة بيئة خصبة للأفكار الشريرة (كولن، ٢٠٠٢: ٧٢، وكولن، ٢٠٠٦: ٢٠٧).

المعلم: أخلاقياته ومهنته

لا بد أن يتحلى المعلم برؤية متكاملة ليتمكن من تهذيب قلوب وعقول الطلاب بطريقة متوازنة. ليس الهدف إجراء تغيير جذري في تقاليد الماضي، لأن هذا من شأنه تشيئة جيل عصري بدون أخلاق. لا يكفي النجاح المادي وحده في السوق العالمية، بل لا بد من وجود بعض القيم المعنوية مثل وضوح الفكر والتعاليم الأخلاقية. يجب ألا يكون هدف المدرسة تخريج أشخاص جشعين، بل أشخاص كرماء. لا بأس بتقاضي الأجر، لكن الهدف الرئيسي يجب أن يظل خدمة البشرية.

انصب تركيز المناهج الدراسية في الدول الغربية مثل الولايات المتحدة الأمريكية على إعداد الطلاب لحياة مهنية تعود عليهم بالنقود، لا ليكونوا أشخاصًا متدينين أو ذوي مبادئ أخلاقية. جمع المال في ذاته هدف خاطئ. يجب ألا يكون طلب العلم والمعرفة مدفوعًا بأهداف نفعية، بل بهدف إثراء الشخصية. ينبغي ألا تكون المدرسة مكانًا لتدريس القيم الأخلاقية في حصة واحدة في الأسبوع، بل أن تكون الأخلاق جزءًا من منهج المدرسة، وأن يحرص المعلمون على غرسها في طلابهم.

يؤكد كولن في جميع كتاباته أن المعرفة يجب أن تكون مقترنة بالحب. تقع المعرفة في نطاق العلوم، وتوفر للطلاب القدرات الفكرية اللازمة لنفع الآخرين؛ لكنها لن تفيد البشرية إلا إذا اقترنت بالحب، وهو "أسمى عناصر الإنسان" (كولن، ٢٠٠٢: ٤١). يعني كولن بالحب هنا الاستعداد للتضحية بالنفس، والعمل من منطلق طاعة الله المطلقة وحرصًا على الآخرين وليس طمعًا في منفعة. يستتبع هذا الحب نكران الذات والرغبة في تغيير الحياة على الأرض (يافوز، ٢٠٠٣: ٣٤). هذا الحب هو أساس التعليم. لهذا فليس كل المعلمين مرتبين. يؤكد كولن (٢٠٠٤) أن "التعليم مختلف عن التدريس. يستطيع أغلب الأشخاص القيام بالتدريس، لكن قلة تستطيع التعليم" (ص. ٢٠٨). يقتصر التدريس على نقل المعلومات، لكن التعليم يشمل تقديم المعرفة والتوجيه الأخلاقي. ينشغل المعلم الحقيقي بالأشياء الطيبة والمفيدة (كولن، ٢٠٠٤: ٢٠٨).

التعليم مهمة "مقدسة" تحقق نتائج إيجابية. ينقل المعلمون المعرفة بحكمتهم ويقدمون التوجيه الأخلاقي بضرب المثل. والهدف من ذلك تنشئة "جيل ذهبي" متكامل فيه الروحانية والمعرفة، القلب والعقل (كولن، ١٩٩٨، وكولن، ١٩٩٦).

تم عملية اختيار المعلمين بعناية، ويُفضّل خريجو مدارس كولن لأنهم أكثر استعداداً لبذل الوقت والجهد. تجذب بعض الدول المعلمين من أجزاء معينة في تركيا. على سبيل المثال، تجذب مدارس تركمانستان المعلمين من خريجي مدرسة تورجوت أوزال الثانوية العريقة في تركيا.

يجب أن ينصب التركيز على ضرب المثل، لا الوعظ. ينقّر الوعظ الأشخاص ولا يجذبهم (بالجي، ٢٠٠٣: ١٠-١٦). يجذب الأشخاص إلى المثل الحي، لا إلى السرد. لا بد أن يكون المعلم تجسيدا للقيم العالمية، وأن يعرف طلابه جيدا، ويتمتع بالقدرة على إثارة عقولهم وقلوبهم (أصلان دوغان وشيتين، ٢٠٠٦: ٣٧).

قال أحد الطلاب من قيرغيزيا إنه يحب المدرسة لأنها تغرس فيه القيم الأخلاقية والنظرة الإيجابية للدين. يريد المعلمون الأتراك خدمة تركمانستان وقيرغيزستان، وسرعان ما يعتادون لغة الطلاب وثقافتهم. يدعم الآباء المدرسة بفضل مستواها الأكاديمي العالي، وتفاني المعلمين الذي يشاركونهم الثقافة العامة (بالجي، ٢٠٠٣: ١٠).

لا بد أن يصقل المعلمون عقولهم وقلوبهم ليتمكنوا من مساعدة الطلاب على تكوين رؤية واضحة لحقيقة الأمور. يجب أن تقود المعرفة الطلاب إلى تقدير الخلق، ومن ثم تقدير الخالق. تأسست هذه المدارس وفقاً لنموذج المدارس الثانوية الأناضولية، وهي مجهزة بأحدث المعدات التكنولوجية والمختبرات، وتدرّس مناهج وزارة التربية الوطنية. ولا تقدم أي مواد دينية للطلاب. وتُطبّق جميع الأنشطة في إطار القوانين السارية والفلسفة التعليمية لكل دولة. على سبيل المثال في أوزبكستان، بعد أن يتعلم الطلاب اللغتين التركية والإنجليزية في المرحلة الابتدائية، يدرسون العلوم باللغة الإنجليزية على يد معلمين أتراك، والمواد الاجتماعية باللغة الأوزبكية على يد معلمين أوزبك. ولا يدرسون المواد الدينية لأنها ليست ضمن الأهداف (كولن، ٢٠٠٢: ٨٧).

يرى كولن أن المعلم يؤدي عملاً مقدساً، وهو شخص مبارك حتى إن كان يدرّس مواد دينوية. العالم مكان مقدس؛ حتى المدرسة التي تدرّس ما يُطلق عليه العلوم الدينوية (كولن، ١٩٩٨ ب: ١٧). يؤدي المعلم واحدة من أسمى الواجبات في الإسلام؛ الخدمة، التي تنطوي على

الخدمة الدينية والوطنية (أجاي، ٢٠٠٣: ٥٩). تنفع هذه الخدمة المقدمة للآخرين المرء في الحياة الآخرة. غير أنه يجب مراعاة الحذر عند تقديم هذه الخدمة بدافع ديني. يجب عدم الخلط بين تطبيق القيم الأخلاقية وتطبيق الدين. يجدر بالمعلمين التحلي بحسن التقدير والحكمة أثناء التدريس^(٤). لا تلزم الحكمة عند تعليم المناهج فحسب، بل أيضاً عند نشر القيم الأخلاقية. ففي غيابها، قد يأخذ الأشخاص الانطباع الخاطئ، ويعتقدون أن المعلم يحاول الدعوة إلى الإسلام. أغلب الطلاب في جوهانسبرج من الأفارقة المسيحيين، وفي دربان أغلبهم من الهنود الهندوس، وفي كيب تاون نصف الطلاب من المسيحيين الملونين ونصفهم من المسلمين. لن يكون من الحكمة محاولة الدعوة إلى الإسلام علانية في مدرسة علمانية تضم طلاباً من مختلف الخلفيات الدينية. قد يؤدي ذلك إلى تنفير الطلاب والآباء غير المسلمين، وقد تفقد المدرسة دعم غير المسلمين. القيم الأخلاقية مشتركة بين جميع الأديان، ولن تنفّر الطلاب غير المسلمين. لهذا فإن المنهج الأخلاقي أحد أهم مزايا المدرسة.

يستمد المعلمون الإلهام من نظرية كولن التعليمية برغم عدم وجود علاقة تربطهم به مباشرة، نظراً للخضوع كل مدرسة لإدارة مستقلة. بالطبع يُطلب رأي المربين الأتراك على المستوى الوطني، بهدف رفع الكفاءة الإدارية ومستوى التفوق الأكاديمي.

تنطبق فكرة الهجرة على المعلمين. المؤمن الحقيقي مستعد دائماً للهجرة. فقد يُطلب من المعلم بعد عدة سنوات من الخدمة أن ينتقل إلى مدرسة في منطقة أو دولة أخرى، لسبب أكاديمي أو عملي. قد يُطلب من معلم الفيزياء الانتقال إلى مدرسة أخرى أكثر احتياجاً إليه، أو قد يُنقل إلى مدرسة تواجه الكثير من التحديات لشعوره بالسأم والملل في مدرسته الحالية. تتوافق هذه الدواعي مع مفهوم الهجرة. إذا عمل معلم في مدرسة لمدة عقد كامل، فسيزيد تعلقه المادي بالمدرسة والمنزل والأصدقاء. وإذا طُلب منه الانتقال إلى مدرسة أخرى فسيشعر بالتردد. لكن إذا عمل لمدة خمسة أعوام فقط، فسيكون من السهل عليه الإقدام على خطوة الهجرة.

العمل واجب ديني (الخدمة) نظراً لأن الشخص يعيل عائلته ويتصدق على فقراء مجتمعه. إنها خدمة ومهمة مقدسة، لأن الله وحده يبسر الشخص لما خُلق له. لكن يجب تجنب إهدار النقود التي كسبها الشخص من عمله وتبذيرها.

تنتفع المدرسة من هذه الأخلاقيات في العمل بطريقتين. يقدم التجار الدعم للمدرسة من الخارج والمعلمين من الداخل. ينظر المعلمون المتفانون إلى مهنتهم بوصفها واجباً دينياً (أجاي،

من خلال تقديم المعرفة، ولو لغير المسلمين، فإن هؤلاء المعلمين يخدمون الإسلام لأنهم يفيدون البشرية. يستطيع الطلاب أن يتعلموا من المعلمين الأتراك وسائل تطبيق المعرفة بطريقة صحيحة ومفيدة. يثق الآباء في المعلمين لأنهم مسلمون أتقياء يعلمون أبناءهم بأسلوب يتوافق مع مبادئ الإسلام. يشعر الآباء بالرضا عن المدرسة لسمعتها الطيبة، بصرف النظر عن مزاياها التقنية والأخلاقية. يقدّر الآباء المعلمين الذين يمتنعون عن التدخين والخمر، المستعدين للتضحية من أجل الآخرين.

مدارس كولن في جنوب إفريقيا

أصبحت مدارس كولن الثانوية اختيار الصفوة في تركيا، وجمهورية الاتحاد السوفيتي السابق، وإفريقيا. إنها مدارس علمانية خاصة تحت إشراف هيئات الدولة، يراها الآباء ورواد الأعمال. تتبع هذه المدارس مناهج علمية علمانية تضعها الدولة، وبرامج معترف بها دولياً. نطلق عليها اسم "مدارس كولن"، وقد يكون ذلك مضللاً لأنه لا يوجد أي رابط حقيقي بين كولن وهذه المدارس، باستثناء الرابط الروحاني. يستمد المرّبون إلهامهم من نظرية كولن التعليمية التي تلقى قبولاً عالمياً واسعاً. ينهر الآباء بإنجازات المدارس في مجال العلوم، وتركيزها على أن يضرب المعلمون المثل في الأخلاق الحميدة (أصلان دوغان وشيتين، ٢٠٠٦: ٣٢-٣٣).

في حين استند نظام التعليم في جنوب إفريقيا خلال فترة الفصل العنصري إلى نظرة مسيحية أحادية، كانت هناك مدارس خاصة تتبع نهجاً علمانياً أو إسلامياً أو يهودياً صريحاً. التزمت هذه المدارس بوجه عام بالمنهج الوطني، حتى إذا استتبع ذلك تدريس اللغة العربية أو العبرية أو الألمانية، التي كانت جزءاً من المنهج الوطني، لكنها درّستها إما لأنها من متطلبات الدراسة في المدرسة أو بناء على طلب الآباء. أما بعد انتهاء الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، فقد قضى الدستور الديمقراطي الجديد على الطابع المسيحي للمنهج الوطني، وأصبحت المدارس تتبع منهجاً علمانياً لا يميل إلى أي دين. تُجيز الديمقراطية الجديدة إنشاء مدارس دينية خاصة، شريطة أن تتبع المنهج المحلي. وبالطبع يحق لها إضافة مواد أخرى إلى المنهج المعتمد؛ إذا كانت المدرسة إسلامية فيحق لها تدريس العربية بوصفها مادة اختيارية أو إجبارية، وإذا كانت المدرسة يهودية فيحق لها تدريس العبرية إجبارياً.

انتشرت المدارس الإسلامية الخاصة في البلاد على مدار الخمسة عشر عاماً الماضية. كانت ظروف مدارس حكومية كثيرة غير مستقرة خلال فترة الفصل العنصري بسبب مقاطعة المدارس والاضطرابات السياسية. مما دفع الآباء إلى إرسال أطفالهم إلى مدارس علمانية ومسيحية خاصة. ولاح في الأفق بديل جديد مع تأسيس المدارس الإسلامية الخاصة.

تأسست مدرسة ستار الدولية الثانوية عام ١٩٩٩، وكانت أول مدرسة تركية ثانوية خاصة في كيب تاون تقدم التعليم العلماني وتتبع المنهج الوطني، مع التركيز على القيم الأخلاقية. فأصبحت بديلاً متاحاً للمسلمين، والمسيحيين، والأفارقة، والهندوس. كانت المدرسة التركية بالنسبة للمسلمين بديلاً عن المدارس الإسلامية، لاهتمامها بغرس القيم الأخلاقية ومراعاتها للدين. توفر المدارس للمسلمين فرصة تلقي التعليم الحديث بتوجه أخلاقي.

تتيح مدرسة كولن للطفل المسلم أن يحتفظ بهويته الإسلامية في بيئة علمانية، وهو أمر غير متاح في مدارس الدولة الليبرالية التي لا تراعي الدين أو القيم الأخلاقية، وغير متاح في المدارس الإسلامية الخاصة التي تُدار بعقلية المعسكرات الإسلامية، مما يجعل من الصعب على الطلاب التكيف مع الثقافة العلمانية والتعايش في السياق التعددي. وبالتالي كان هذا التوازن بين الحفاظ على القيم الأخلاقية للهوية الإسلامية (التي يشترك فيها أيضاً الطلاب من الأديان الأخرى) والتعايش في سياق المدرسة العلمانية ما دفع العديد من الآباء لإرسال أطفالهم إلى هذه المدارس.

رأى مسلمون كثر في جنوب إفريقيا أن المدارس الإسلامية الخاصة ذات نزعة انتقائية. صحيح أنها تدرّس المواد الإسلامية مثل اللغة العربية والدراسات الإسلامية، لكنها تشجع التوجه المادي دون أي أخلاق أو روحانيات^(٥). كذلك أتهمت مدارس كولن بنزعتها الانتقائية، لكننا سنناقش هذه النقطة لاحقاً.

يدير صندوق هورايزون التعليمي (HET) ثلاثة مدارس ستار ثانوية دولية؛ واحدة في كيب تاون والثانية في دربان والثالثة في جوهانسبرج. تتبع كلها المنهج الوطني، لكنها تدرّس اللغة التركية حتى الصف ١١. كذلك يتبع صندوق فاوتنن التعليمي (FET) -المستوحى أيضاً من نظرية كولن- المنهج الحكومي (مقابلة مع كمال الدين أوزدمير، ٣١ مايو ٢٠٠٦)، لكنه مسؤول عن مدارس "سما" الإسلامية. تقتصر هذه الدراسة على مناقشة المدارس التي يديرها صندوق هورايزون التعليمي.

تميز مدارس ستار بتركيزها على تدريس العلوم، والفيزياء، والأحياء، والتكنولوجيا. يحرص الصندوق على توفير أحدث الأجهزة في مختبرات العلوم وغرف الكمبيوتر. يتعلم الطلاب المواد العلمية من معلمين أترك، واللغات الإنجليزية والأفريقية والجغرافيا والتاريخ من معلمين أفارقة.

تستقبل المدرسة الطلاب من مختلف المعتقدات الدينية، خلافاً لمدارس الدولة التركية. تقدم مدارس الدولة التركية التعليم الديني لكنه لا يحظى باهتمام كبير، في حين لا تقدم مدارس كولن التعليم الديني، الذي يحظى بالاهتمام والاحترام.

تضم مدرسة ستار الدولية الثانوية في كيب تاون عدداً مساوياً من الطلاب المسلمين والمسيحيين، وبالتالي يستحيل على المدرسة الدعوة إلى دين معين. لكنها لا تجد غضاضة في تعليم القيم الأخلاقية المشتركة بين مختلف الأديان. يشرح المعلمون للطلاب القيم الأخلاقية مثل السلام والتآلف، ويشيرون أحياناً إلى نموذج نيلسون مانديلا ومهاتما غاندي. تشجع المدرسة العلاقات الجيدة بين المسلمين والمسيحيين^(١)، وتعد الطلاب ليكونوا مواطنين في مجتمع تعددي. تؤيد المدرسة التحلي بالإيمان، ما دام يراعي الاحترام والتسامح تجاه كل الأديان.

الخلفية التعليمية للمعلمين

المعلمون الأتراك مسلمون ملتزمون، يتشاركون الفلسفة التعليمية مع أستاذهم فتح الله كولن. لكنهم لا يفرضون القيم والممارسات الإسلامية على الطلاب. فهم يؤمنون أن القدوة الحسنة أبلغ من أي وعظ وأكثر تأثيراً في نفوس الطلاب. وكما أشرنا سابقاً، فإنهم لا يدرسون الدين، غير أن القيم الأخلاقية متأصلة في منهج المدرسة. ويقع الاختيار كل شهر على قيمة أخلاقية واحدة لتكون موضوع الشهر^(٢).

درس جميع المعلمين الأتراك في مدارس بلادهم وتخرجوا في كليات العلوم. وسرعان ما يتكيف المعلمون الجدد مع نظام المدرسة لأنهم يتشاركون الرؤية والمهمة مع أستاذهم فتح الله كولن. يعلمون أنهم يجب أن يتفانوا في خدمة المدرسة، ويندمجون بسهولة مع زملائهم الأتراك الذين يشاركونهم القيم الدينية والأخلاقية. يدركون أن خدمتهم في المدرسة نوع من أنواع التضحية؛ التضحية بترك الوطن، وبذل الوقت والجهد، والتدريس مقابل أجر متوسط.

يضحى المعلمون بوقتهم في نهاية الأسبوع بإعطاء دروس إضافية للطلاب، وخاصة المرشحين للالتحاق بالجامعة. ويشاركون في الورش الوطنية مرتين سنوياً، ويتشاركون خبراتهم في التعليم بهدف تحسين أساليبهم (مقابلة مع كمال الدين أوزدمير، ٣١ مايو ٢٠٠٦).

يتوقع من المعلمين الاقتصاد في حياتهم، فلا يُسمح لهم بالإقامة في شقق باهظة الثمن، أو قيادة سيارات فاخرة، أو ارتداء ملابس غالية، ولا يُشجعون على ذلك. يُعتقد أن هذا النوع من التبذير قد يؤثر على صورة المدرسة، ويزعزع ثقة الممولين. لكن هذا لا يعني أن المعلمين

يعيشون حياة فقيرة، بل إنهم يتلقون راتبًا يغطي احتياجاتهم الأصلية. يقيم أغلب المعلمين الأتراك العاملين في كيب تاون في منطقة ويستفيل، وهي أحد أحياء الطبقة المتوسطة. لا يعني هذا أنهم يقيمون في منازل فاخرة، أو أن مبنى المدرسة في المنطقة أنيق. بل إن مبنى المدرسة قائم على هياكل سابقة الصنع، ومظهره أقل جاذبية من مدرسة كيب تاون. وعمومًا يتحدد مكان إقامة المعلم بناء على قربه من المدرسة، لا على أساس الطبقة أو المستوى الاجتماعي. تنطبق المزايا الصحية والتقاعدية على المعلمين الأتراك فقط. ولا يُطلب من سواهم مراعاة الاقتصاد في الإنفاق.

لا يقدم التعليم الديني لكن القيم الدينية واضحة في سلوك المعلم. وتدرّس القيم الأخلاقية بأسلوب بعيد كل البعد عن الوعظ والتوجيه، فالأهم ممارسة هذه القيم^(٨). لا يحاول المعلم فرض هويته الإسلامية داخل الصف، كما لا يحاول إخفاءها خارجها. على سبيل المثال، يصلي عندما يحين وقت الصلاة. يسعى المعلم إلى توجيه انتباه الطالب إلى القيم الأخلاقية داخل الصف وخارجه، مع التأكيد على قيم مثل تحمل المسؤولية، وضبط النفس، والعفو. تُختار قيمة مختلفة كل شهر، وتُعلق على جدران الصف والمدرسة، ويذكر المدير الآباء بهذه القيمة لتطبيقها خلال الشهر أو الفصل الدراسي. واجب المعلم أن يهتدي بهدي الرسول ﷺ عندما قال في الحديث النبوي: "إنما بُعثت لأتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق".

قد يشعر بعض خريجي الجامعات التركية الذين حصلوا على منحة من الصندوق بالتزام أخلاقي دون أي إلزام قانوني - بالتدريس في مدارس كولن قبل العمل في مجال تخصصهم (مقابلة مع إلهامي ديميرتاب، مايو ٢٠٠٦). جميع المعلمين الأتراك مؤهلون أكاديميًا لتدريس المواد التي يدرّسونها، ويحملون شهادة الماجستير في الآداب أو العلوم، غير أن أغلبهم لا يحمل إجازة أو شهادة في التعليم. ومن عيوب ذلك عدم قدرة المعلم على التعامل مع الأطفال قليلي الذكاء. إلا إن المدرسة لا تستهدف سوى الأطفال أصحاب الذكاء المتوسط أو فوق المتوسط. ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار المدرسة ذات نزعة انتقائية تقتصر على الصعيد الأكاديمي، لكن ليس من الطبيعي اختيار الأفضل أكاديميًا في مرحلة التقديم.

نظمت مدرسة ستار الدولية الثانوية في كيب تاون مسابقة ستار للرياضيات واستضافتها لعدة أعوام، وحظيت بمشاركة طلاب من مختلف المدارس. كان من المتوقع أن تكون المسابقة فرصة جيدة لإلقاء الضوء على المدرسة، لكنها لم تساعد في زيادة أعداد المتقدمين. وحتى الآن، لم تكن نتائج اختبارات القبول في الجامعة جيدة، ومنذ افتتاح المدرسة، لم يتفوق سوى اثنين من خريجها المرشحين لارتداد الجامعة.

جاء التغيير الحقيقي عام ٢٠٠٥ عندما انتقلت المدرسة إلى مبنى جديد في سايبيراند بارك. كان في الأصل مدرسة يهودية، لكنه مؤجر الآن للأتراك. مبنى المدرسة الجديد أكبر من سابقه، وأكثر خضرة وأماناً. أصبحت المدرسة الآن تجذب مستوى أعلى من الطلاب في الصف ٨ (أول عام في الدراسة الثانوية). شهد هذا العام إقبال عدد كبير من الطلاب، لدرجة افتتاح فصل ثانٍ، يضم الطلاب المتفوقين، ومن المتوقع أن يحققوا خلال خمسة أعوام نتائج ممتازة. يوجد حالياً ثلاثة طلاب فقط مرشحين للالتحاق بالجامعة، وهم طلاب متفوقون تتوقع المدرسة حصولهم على مراتب الشرف والتقدير. وحينها ستكون علامة فارقة في تاريخ المدرسة ووسيلة جيدة لزيادة شهرتها.

دعم التجار الأتراك

يرى كولن أن العالم مكان مقدس، لهذا يجدر بالتجار التبرع ليس فقط للمساجد، بل أيضاً للمدارس، وسيثابون في الدنيا وفي الآخرة. يدرك التجار أهمية نشر المعرفة، وخاصة العلوم والتكنولوجيا، كما يدركون أهمية ربطها بالدين. أدى التركيز على العلوم وحدها إلى إهمال الإنسانيات، ولهذا نادى كولن مؤخرًا بضرورة الاهتمام بالعلوم الاجتماعية، مثل التاريخ والجغرافيا والأدب^(٩).

يتجاوز إجمالي عدد المدارس التركية في العالم ٥٠٠ مدرسة، أغلبها ذاتية التمويل. يحتاج تأسيس مدارس جديدة إلى دعم مادي، تقدمه عادة المنظمات الخيرية التركية التي تضم التجار الأتراك (بايدار، ٢٠٠٧: ٢). يتحمل تجار منطقة معينة في تركيا مسؤولية تمويل مدرسة كيب تاون. كما تساهم الرسوم التي يدفعها الطلاب، لكن المدرسة لا تحقق أي ربح لأنها ليست مؤسسة بشكل ملائم. كذلك تتلقى المدرسة الدعم من تجار أترك محليين وشركات تجارية في جنوب إفريقيا، خاصة لأداء الأعمال المدرسية وإقامة المسابقات الأولمبية.

وكما يتشارك المعلمون الأتراك الثقافة التركية مع الطلاب، فإنهم يتعلمون الكثير من الجوانب الإيجابية في ثقافة جنوب إفريقيا، ويعودون إلى بلادهم بثقافة ثرية (بايدار، ٢٠٠٧: ٢). قال تحسين تومر مدير مدارس كولن في جنوب إفريقيا: "نقدم التعليم حالياً لـ ١٤٠٠ طالب في المجممل. لدينا ٥٠ معلماً من تركيا و٧١ معلماً من جنوب إفريقيا. (علاقتنا) بالسلطات المحلية جيدة جداً" (بايدار، ٢٠٠٧: ٢). يقيم المعلمون الأتراك في شقق مستأجرة، ويتقاضون راتباً شهرياً يساوي ١٣٠٠ دولار (مع المزايا). وثلث المعلمين متزوج من تركيات (بايدار، ٢٠٠٧: ٢).

المعلمون الأتراك متفانون، يتلقون راتبًا متواضعًا لكنه كافٍ، ولا يهتمون بالأموال المادية في هذه الحياة، بل بمتاع الآخرة (كولن، ٢٠٠٢: ٨٦). راتبهم أقل من المعلمين، لكن المتزوج منهم يتقاضى راتبًا أكبر من الأعزب. بالطبع يزيد راتب مدير المدرسة مع زيادة مسؤولياته. يتلقى المعلمون المحليون رواتبهم في موعدها، لكن المعلمين الأتراك قد ينتظرون رواتبهم دون تدمر، فهم يعرفون أن المنفعة المادية ليست غايتهم، بل الأهم تقديم الخدمة. لا يفكرون مثل المعلمين المحليين الذين يعملون من الثامنة صباحًا إلى الثالثة مساءً. بل يتحلى المعلمون الأتراك بأخلاقيات العمل التي تسمو فوق ساعات العمل، ويعتبرون أنفسهم في العمل ٢٤ ساعة في اليوم. يعيشون حياة جيدة براتب شهري ٦٠٠٠ راند في المتوسط، لكنها ليست حياة بدخ. حتى إذا توفرت لهم سبل الحياة الميسورة، ربما بدعم من والديهم، فسيظلون يشعرون بواجب أخلاقي للحفاظ على الاعتدال والاقتصاد. تستهجن المنظمة المغالاة في اقتناء الممتلكات المادية^(١).

ساهم التجار الأتراك في تأسيس مدارس كولن في إفريقيا إما لأسباب إنسانية أو تجارية (مقابلة مع كمال الدين أوزدمير، ٣١ مايو ٢٠٠٦). واليوم يشجعهم كولن على تحقيق الشراء، لأنهم سيتمكنون حينها ليس فقط من دفع المزيد من أموال الزكاة والصدقة، بل أيضًا من تخصيص ١٠٪ من عائداتهم للمنظمة. يدفع بعض التجار نصف أرباحهم للمدارس! يعمل التجار الآن بجهد أكبر من أي وقت مضى، ليس فقط لإعالة عائلاتهم، بل أيضًا لدعم الصندوق. يتبرع أحد التجار بكل أمواله لمشروع مدرسة ضخمة في جوهانسبرج^(٢).

تحرص المؤسسة أن يحافظ المعلمون على مستوى معيشة جيد. ولطمأنة أي مخاوف بشأن أمانهم المادي في المستقبل، يُتفق على ترتيبات الرعاية الصحية والمعاش بعد تقاعدهم. إذا احتاج معلم إلى دخول المستشفى أو الخضوع لجراحة، تتكفل المنظمة بكل التكاليف. المعلمون غير مضطرين للتعامل مع شركات المساعدة الطبية ومواجهة المخاوف المصاحبة لها؛ خاصة في ظل القيود الصارمة على استخدام العقاقير، والاضطرار لدفع مقابل الخدمات الطبية من نفودهم الخاصة بقيمة أعلى مما تقدمه شركات المساعدة الطبية.

من الأهمية أن تستمر ثقة الممولين في المعلمين الأتراك، واليقين في إنفاق النقود في موضعها؛ سواء لدفع الإيجار أو الرواتب أو أجهزة الكمبيوتر. وبالتالي تتضح أهمية اتباع أسلوب حياة جيد ومقتصد للحفاظ على هذه الثقة وتهذئة أي شكوك محتملة^(٣).

المعايير الأكاديمية وسياسة التقديم

تفخر مدارس كولن بالحفاظ على مستوى أكاديمي عالٍ، بفضل الاستعانة بمعلمين مؤهلين، وتوفير الاهتمام الفردي لكل طالب، والتواصل الوثيق مع الآباء^(١٣). ينص بيان المهمة في مدرسة كيب تاون على ما يلي:

مهمتنا توفير التعليم عالي المستوى بمساعدة المرافق والمعدات والبنية التحتية الملائمة، لتحسين تجربة تعلم طلاب المدرسة. نسعى جاهدين لتحقيق ذلك من خلال مواصلة التطوير وتحقيق الأفضل على كل الأصعدة. أصبح تنفيذ ذلك الآن أسرع بكثير في موقعنا الجديد (سايراند بارك). تطبق المدرسة أحدث طرق التدريس المتاحة، وتتبع منظومة من القيم العالمية التي تهدف إلى بناء شخصية الطلاب. نحن نغرس هذه القيم لنساعدهم أن يكونوا أعضاء موقرين وبارزين في المجتمع^(١٤).

مدرسة ستار الدولية في كيب تاون مدرسة خاصة، لكنها غير مستعدة للتنافس مع مدارس خاصة عريقة مثل مدارس بيشوب^(١٥). يدرك المعلمون ذلك، ويضعون أهدافاً واقعية، بحيث يستهدفون التنافس مع مدارس النموذج "ج"، مثل مدرسة ويستيرفورد الثانوية^(١٦).

مدارس النموذج ج هي مدارس البيض الحكومية القديمة التي حظيت بمرافق أفضل خلال فترة الفصل العنصري، لكنها تستقبل الآن كل الأعراق. رسوم المدرسة أعلى بكثير من رسوم المدارس الحكومية، لكنها في نفس مستوى المدارس الخاصة الميسورة مثل مدرسة ستار الدولية الثانوية والكلية الإسلامية. يحقق الطلاب المرشحون للالتحاق بالجامعة في مدارس النموذج "ج" نتائج أفضل من طلاب المدارس الحكومية.

تهدف مدارس ستار الدولية لتحقيق التميز الأكاديمي، لهذا لا تسعى للتنافس مع المدارس الحكومية، بل مع مدارس النموذج ج. لكنها لم تحقق حتى الآن نفس المستوى الأكاديمي، مع إنها قادرة على تحقيقه وتجاوزه. وبالفعل جاءت نتائج اختبارات القبول بالجامعة لطلاب مدرسة ستار في دربان أفضل من أغلب طلاب مدارس النموذج "ج".

تشتهر مدارس كولن بتحقيق نتائج جيدة، لكن هذا ليس السبب الوحيد الذي يدفع الآباء لإرسال أطفالهم إليها. فهم معجبون أيضاً بمنهجها الأخلاقي. لم تصل مدرسة كيب تاون إلى نفس المستوى الأكاديمي لمدرسة دربان، التي تفوق ١٠٠٪ من طلابها المرشحين للجامعة. والأسباب كما يلي: أولاً، أسس المدير، الأستاذ يسار^(١٧)، المدرسة في "ويستفيل"، وهو أحد الأحياء الراقية في دربان. جذب الموقع ذاته عائلات الطبقة المتوسطة. ومع زيادة الإقبال،

استطاعت المدرسة أن تفرض قواعد صارمة لقبول الطلاب. ثانيًا، يقيم الطلاب الأكبر سنًا في سكن الطلبة تحت إشراف معلم خاص وبعض المعلمين، الذين يتأكدون من إتمام الطلاب الفروض المدرسية منذ مغيب الشمس وحتى منتصف الليل. ثالثًا، تضم المدرسة فريقًا من المعلمين المتفانين، الشغوفين بالمواد التي يدرسونها، والذين يقدمون المعلومات بوضوح وفعالية. المعلمون مستعدون كذلك للتضحية بوقتهم لإقامة معسكرات دراسية^(١٨) تستمر أسبوعًا كاملًا، وتعليم الطلاب في عطلات نهاية الأسبوع.

بالمقارنة، لم تحقق مدرسة ستار الدولية الثانوية في كيب تاون نفس النتائج العالية لمدرسة دربان. تأسست أول مدارس كولن في كيب تاون، وكانت التجربة الأولى التي يخوضها المعلمون الأتراك. وسرعان ما لاحظوا أن الخلفية الثقافية للطلاب تختلف عن الطلاب الأتراك والروس الذين حققوا معهم نتائج مبهرة. لم يكن الطلاب في جنوب إفريقيا مُقبلين على التعلم كما توقعوا، واحتاجوا لبذل جهد كبير للحفاظ على انضباطهم. لم تحصل المدرسة حتى الآن سوى على وسامين في اختبارات الطلاب المرشحين لارتداد الجامعة. دعونا نستعرض أهم أسباب ضعف الأداء الأكاديمي. أولاً، كانت المدرسة مشيدة في منطقة أثلون المتواضعة اقتصاديًا.^(١٩) المبنى متهالك ومظهره قديم، لهذا جذب أبناء الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا في الأغلب. لا يصح الحكم على المدرسة بناء على مظهرها، لكنه كان معيار الحكم الوحيد في ظل عدم توفر أي معلومات عن المدرسة. قال المدير: "لم يكن الآباء متعاونين؛ وبالكاد حضروا الاجتماعات وفعاليات المدرسة. قد يرجع السبب إلى عدم كفاءة وسائل النقل العامة، ونقص الأمان ليلاً" (مقابلة مع إلهامي، أغسطس ٢٠٠٧). ثانيًا، ظهرت مشكلة قدرة المعلمين الأتراك على التواصل باللغة الإنجليزية. يتمتع المعلمون من خريجي العلوم بوجه عام بالقدرة على قراءة النصوص الإنجليزية، في المجال العلمي غالبًا. وعندما حضروا إلى كيب تاون، تحدثوا الإنجليزية بطلاقة بعد مرور خمسة أو سبعة أعوام، بناء على مدى اختلاطهم بغير الأتراك وممارستهم للغة.

وفي أثناء محاولة تحسين قدراتهم اللغوية، لا يمكنهم التواصل بفعالية، الأمر الذي يضعف كفاءتهم التدريسية. وبالتالي تتأثر قدرة الطلاب على التعلم والانضباط^(٢٠). ثالثًا، اتضح أن عيوب تغيير المعلمين تفوق المزايا. فبمجرد تمكّن المعلم من اللغة الإنجليزية، ربما بعد خمس سنوات، يُنقل إلى مدرسة أخرى. ويبدأ المعلم الجديد رحلة التكيف مع البيئة الجديدة، ليس فقط لإتقان مهارات الإنجليزية، بل أيضًا للتكيف مع ثقافة الطلاب وخلفيتهم. ويحتاج الطلاب

بدورهم إلى التكيف مع المعلم الجديد. يزعزع تغيير المعلمين إحساس الاستقرار والاعتدال على المدرسة، وبالتالي تخفق المدرسة في الحفاظ على صورتها الثابتة. المعلمون هم عماد المدرسة؛ وهم الذين يمنحونها شخصيتها ونهجها، وترتبط المدرسة في ذهن الآباء بالمعلمين، وليس بمبنى المدرسة أو موقعها.

لا شك أن أي مدرسة جديدة ستواجه بعض المشكلات في البداية، لكن الحكم عليها في النهاية يكون بناء على النتائج النهائية التي تحققها. لهذا نتقل إلى الإنجازات والفرص المستقبلية. حققت المدرسة تقدماً كبيراً منذ انتقالها إلى سايراند بارك عام ٢٠٠٥. كان للموقع الجديد ومبنى المدرسة الأنيق تأثير فوري على نوعية الطلاب المتقدمين. نظرًا للإقبال الشديد من المتقدمين عام ٢٠٠٧، اضطرت المدرسة لافتتاح فصل آخر للصف ٨. يعكس ذلك مقدار الدعم والإقبال المتزايد على المدرسة.

تعتمد عملية القبول على معايير أكاديمية، لا على الطبقة الاجتماعية أو العقيدة. أوضح السيد إلهامي مدير المدرسة أن معايير القبول الصارمة لا تعكس سياسة المدرسة، بل إنها عنصر مهم في سياق التعليم في جنوب إفريقيا. وأضاف: "من غير الأخلاقي أن نطبق سياسة قبول صارمة، لكنها الطريقة الوحيدة لضمان الحصول على الأوسمة ومراتب الشرف. نجحت مسابقات الأولمبياد والميداليات في أماكن أخرى، لكن ليس في جنوب إفريقيا، حيث يُحكم على المدرسة بناء على نتائج اختبارات القبول للجامعة فقط" (مقابلة مع إلهامي، أغسطس ٢٠٠٦).^(٢١) دفع هذا الاكتشاف الجديد السيد إلهامي لتطبيق سياسة قبول صارمة، تستبعد عائلات الطبقة العاملة، ليس بسبب طبقتهم، بل لأنهم أقل اهتمامًا بروية أطفالهم يحققون التفوق. وهكذا فإن تبني هذه النزعة الانتقائية ضمن معايير القبول لا ينظر إلى الطبقة الاجتماعية في حد ذاتها، بل إلى الأداء الأكاديمي البحث. تريد المدرسة أن تضمن نسبة مقبولة من المتفوقين، وأنها إذا دعمت تعليم الطفل، فلا بد أن تكون احتمالات تفوقه الأكاديمي وإكماله الصف ١٢ عالية. لا تستطيع المدرسة قبول الطلاب من منطلق إحساسها بالشفقة، بل من منظور التفوق الأكاديمي فحسب.

ستفيد سياسة القبول الصارمة سمعة المدرسة على المدى الطويل أكثر من مسابقات الأولمبياد أو الميداليات الذهبية. وستجني المدرسة ثمارها بعد خمس سنوات عندما يصل الطلاب إلى الصف ١٢، وتُنشر أسماءهم في الصحف لحصولهم على الأوسمة ومراتب الشرف. تحصل مدارس كولن على الميداليات الذهبية والفضية في مسابقات الأولمبياد التي تقيمها مختلف الدول في الرياضيات والعلوم والكمبيوتر واللغة الإنجليزية. لهذا تشتهر بإنجازاتها

ومكانتها المرموقة^(٢٢)، باستثناء جنوب إفريقيا. فمنذ تأسيس مدرسة كيب تاون حصلت على ٢٣ ميدالية ذهبية، لكنها لا تعني شيئاً بالنسبة للآباء الذين يتخذون القرارات بناء على النتائج الأكاديمية لاختبارات القبول في الجامعة فحسب. كما أن عوامل أخرى مثل موقع المدرسة القريب، وعدد الطلاب في الصف، والنهج الأخلاقي للمدرسة تلعب دوراً في اتخاذ قرار إلحاق الطفل بالمدرسة.

مرت أعوام كانت فيها نتائج اختبارات القبول للجامعة لطلاب مدرسة ستار أسوأ من نتائج أفضل المدارس الحكومية، وهذا غير وارد. فلا بد أن تكون نتائج مدرسة ستار الدولية أفضل من المدارس الحكومية؛ وإلا فليس هناك سبب وجيه لإلحاق الآباء أطفالهم بمدرسة ستار^(٢٣). نفترض أن الآباء المسلمين يدعمون المدرسة لأنها تحت إدارة صندوق إسلامي، ولأنها تكافح الرذائل الاجتماعية مثل حفلات المواعدة واحتساء الخمر. لكنه ليس السبب الرئيسي لدعمهم. فهم مثل الآباء غير المسلمين يدعمون المدرسة لأنها توفر تعليمًا أفضل لأطفالهم (مقابلة مع إلهامي، ٨ أغسطس ٢٠٠٦). عادت فكرة التعليم الأفضل تجول في أذهان الآباء عندما انتقلت المدرسة إلى منطقة سايراند بارك. ومن ذلك الحين، بدأ عدد كبير من آباء الطبقة المتوسطة يدعمون المدرسة. ولهذا كان مستوى الطلاب الذين التحقوا بالمدرسة منذ العام الماضي أفضل.

تركز مدارس كولن على المواد العلمية، بما فيها الرياضيات والفيزياء والتكنولوجيا. وتسعى جاهدة لتوفير أحدث الأجهزة التكنولوجية في ظل التمويل المتاح (مقابلة مع كمال الدين أوزدمير، ٣١ مايو ٢٠٠٦). يدرّس المعلمون الأتراك العلوم، ومعلمو جنوب إفريقيا المواد الاجتماعية واللغات. وبالطبع يعلم اللغة التركية معلم تركي، واللغات الإنجليزية والأفريقية والهوسا والزولو معلمون من جنوب إفريقيا. أغلب الطلاب في مدرسة جوهانسبرج من إفريقيا (وهم الغالبية في البلاد)، وتضم مدرسة دربان طلاباً هنود (وهم أقلية في البلاد)^(٢٤). وتضم مدرسة كيب تاون مزيجاً من الطلاب المسيحيين الملونين والمسلمين "الملونين".

قال إلهامي ديميرتاش، معلم الأحياء خريج جامعة الشرق الأوسط التقنية في أنقرة، ومدير مدرسة ستار الدولية الابتدائية والثانوية في كيب تاون، إن هناك ٢٠٠ طالب، نصفهم من البنات في المدرسة الابتدائية المختلطة. أما المدرسة الثانوية فللبين فقط. قال أحد أبناء جنوب إفريقيا: "تضرب هذه المدارس المثل للمدارس الإسلامية الخاصة الأخرى؛ فهي تهتم بشدة بالعلوم، وتركز على نشر القيم العالمية" (بايدار، ٢٠٠٧: ٢).

أوضح المدير أن طلبات التقديم تنهال على المدرسة منذ العام الماضي، وأصبح بالإمكان انتقاء المقبولين. تكمن الفكرة في نشر صورة إيجابية عن المدرسة في منطقة عادية للطبقة المتوسطة. وفي مراحل لاحقة، يمكن تأسيس مدارس في مناطق راقية مثل رونديبوش ونيولاندز. وبمجرد أن تحقق هذه المدارس الربح، ستكون في وضع يؤهلها لدعم مدارس كولن في المناطق الفقيرة. لهذا فإن فكرة تأسيس مدرسة في منطقة راقية ليس لها علاقة بالنزعة الانتقائية^(٢). بل الأهم هو بناء مدارس مستدامة ذاتياً، تحقق الربح وتساعد المدارس التي تحتاج إلى دعم مادي.

أطفال العائلات الموسرة بوجه عام طموحاتهم أعلى وقدرتهم على التعلم أفضل من أطفال العائلات الفقيرة. يرجع ذلك إلى أنهم حظوا بفرص أكثر، وليس لسمة فطرية تميزهم. إذا انجذب أطفال العائلات الموسرة إلى المدرسة، فهذا لا يجعلها مدرسة انتقائية للطبقة الاجتماعية. حتى إن المدرسة مستعدة لتقديم منحة لأي طالب متفوق من عائلة فقيرة، ولن تستبعده لأنه من طبقة اجتماعية اقتصادية دنيا.

الانتقائية فكرة نسبية كما أشرنا من قبل. فقد يُنظر إلى مدرسة كولن في منطقة فقيرة بوصفها انتقائية على عكس المنطقة الراقية. فكرة الانتقائية نسبية أيضاً في تكلفة التدريس، كلما كانت المدرسة ميسورة التكلفة زادت نزعتها الانتقائية. مدارس كولن ميسورة التكلفة لعائلات الطبقة المتوسطة، لكن ليس للطبقة العاملة. غير أن فرصة التعليم الأفضل متاحة أمام الطلاب المتفوقين من أبناء الطبقة العاملة لأن المدرسة تدعم تعليمهم عادة.

مدرسة كولن غير انتقائية بمعايير الطبقة المتوسطة، لكنها انتقائية بمعايير الطبقة العاملة. تقع مدرسة دربان في منطقة راقية، لكن مبنى المدرسة متواضع. وأغلب الطلاب من أبناء الطبقة المتوسطة، لكن كما أشرنا سابقاً، فإن هذا لا يعني أنها مدرسة انتقائية اجتماعياً، بل أكاديمياً فحسب.

النتيجة

أكد كولن على أهمية غرس القيم الأخلاقية في بيئة مدرسة علمانية، تعمل في إطار التعليم الموحد للبلد. يرسل الآباء أطفالهم إلى مدارس كولن لأن خريجها قُبلوا في جامعات وكليات مرموقة، ولأن طلابها أقل عرضة للاستجابة للمؤثرات السلبية مثل إدمان المخدرات والكحوليات.

سيكون السؤال الرئيسي الذي يطراً للمسلم: "لماذا أرسل طفلي إلى مدرسة علمانية بدلاً من مدرسة إسلامية؟" فتكون الإجابة أن معلم المدرسة يجسد القيم العالمية مثل الصدق، والثقة، واحترام الوالدين، وتوقير الكبير، واحترام التراث، وحب كل البشر. يؤمن الآباء المسلمون بهذه القيم ويريدون غرسها في أطفالهم (أونال وويليامز، ٢٠٠٠: ٣٤٨).

تناولنا فلسفة فتح الله كولن التعليمية، وأوضحنا وسائل تطبيق جانبيها الأكاديمي والأخلاقي في سياق جنوب إفريقيا، مع إشارة خاصة إلى مدرسة ستار الدولية الثانوية في كيب تاون. تحدثنا عن إنجازات المدرسة، ونقاط ضعفها، والفرص المتاحة أمامها في المستقبل.

توفر المدرسة بديلاً للمدارس الخاصة ومدارس النموذج "ج". ومع أنها علمانية، تحرص على نشر القيم الأخلاقية، وتحترم التنوع الديني في مجتمع جنوب إفريقيا. يجدها الطالب المسلم بديلاً عن المدرسة الإسلامية الخاصة. يتمتع المعلمون الأتراك بالنزاهة والتدين، وهو ما يلهمهم الصواب. وفي الوقت ذاته، يتعلم الطفل المسلم التعامل مع زملائه ومعلميه المسيحيين، ويدرك أنهم يتشاركون جميعاً مجموعة قيم أخلاقية عالمية. ويؤهله ذلك للانخراط في مجتمع جنوب إفريقيا التعددي.

تكتسي مدارس كولن بالطابع التركي؛ فهي مستوحاة من الفلسفة التعليمية للمفكر الديني التركي فتح الله كولن. المدير تركي الجنسية، ومعلمو العلوم أتراك، واللغة الأجنبية هي التركية، ويردد الطلاب النشيد الوطني والأغاني التركية في فعاليات المدرسة.

حصلت المدرسة على دعم كبير منذ انتقالها إلى منطقة سايراند بارك من عائلات الطبقة المتوسطة، وينعكس ذلك في عدد الطلاب الجدد هذا العام. وخلال خمسة أعوام من الآن، فإن المتفوقين حالياً في الصف ٨ سيخضعون لاختبارات القبول في الجامعة، ونحن نتوقع أن يحصل أغلبهم على الأوسمة ومراتب الشرف.

الهوامش

- (١) انتشرت محاولات "أسلمة المعرفة" منذ الثمانينيات، بين مسلمي أمريكا في البداية، ثم في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وسارعت المدارس والجامعات الإسلامية بأسلمة المعرفة، ومن بينها العلوم. أعتقد أن كولن لم يشغل نفسه بالأسلمة؛ بل ظل تركيزه منصّباً على العلوم الطبيعية (وليس الاجتماعية)، ورأى أنه من الضروري طلب العلوم، شريطة أن تكون مجتمعة بالإيمان والأخلاق.
- (٢) تريد المدرسة طلابها المرشحين لارتداد الجامعة أن يدرسوا العلوم على مستوى أعلى، وهي مستعدة لتقديم المنح أملاً في أن يخدم الخريج المدرسة لبضعة أعوام قبل العمل في تخصصه. على سبيل المثال، تخرج السيد ميحيت يامان من مدرسة كولن في تركيا، وحصل على شهادة في العلوم، وعمل بالتدريس في مدرسة كولن في كيب تاون. حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة كيب تاون أثناء عمله. والآن عاد إلى تركيا ويؤدي حالياً الخدمة العسكرية. يميل كولن على ما يبدو إلى الإنسانية، لكن مدارسه تركز على العلوم لأسباب عملية. وهو يشجع المعلمين الآن أن يهتموا بالأدب والعلوم الاجتماعية.
- (٣) للاطلاع على المزيد حول سيكولوجيا الروح لمسكويه ومقارنتها بفلسفة الراغب الأصفهاني (المتوفى عام ١٠٦٠) وأبو حامد الغزالي (المتوفى عام ١١١١)، راجع ياسين محمد، "طريق الفضيلة: فلسفة الراغب الأصفهاني الأخلاقية". تأثر كولن بهؤلاء الفلاسفة المسلمين، الذين تبنا جميعاً فكرة ثلاثية الروح لأفلاطون، وجعلوها أساس فلسفتهم الأخلاقية. قد لا يتفق كولن مع الفلسفة الإنسانية الحديثة، لكنه تأثر بالإنسانية اليونانية والإسلامية القديمة، وتحلى بعقل منفتح، وتقبل الأفكار من مختلف المصادر، ما دامت قابلة للتوفيق من القرآن.
- ربما تغير منظوره للإنسانية بعد هجرته إلى أمريكا. وربما تكون هناك محاولة للتوفيق بين التصوف والعلم الحديث؛ حيث يقدم التصوف طريقاً للكمال الأخلاقي. ترتبط التعاليم الصوفية بنظريته التعليمية لأنها تركز على غرس القيم الأخلاقية. إن إشارة كولن إلى مسكويه (الذي تأثر أيضاً بأراء أفلاطون وأرسطو) دليل واضح على انجذابه إلى تقاليد الفلسفة الإنسانية الإسلامية الكلاسيكية. راجع أفسار الدين، "فلسفة التعليم الإسلامي: آراء كلاسيكية ومنظور فتح الله كولن"، لمعرفة المزيد حول علاقة كولن بالفكر الإسلامي الكلاسيكي.
- (٤) على سبيل المثال، عند تدريس موضوع التطور، يجدر بالمعلم تقديم مختلف الآراء لمؤيدي الخلقية والتطور والنقد العلمي للنظرية.
- (٥) تتراد بنات ابن عمي مدرسة إسلامية خاصة في دربان. اعتدن الذهاب إلى المدرسة بسيارة BMW، وعندما اشترت العائلة سيارة جديدة Toyota Corolla رفضن الذهاب بها إلى المدرسة. فوجئ ابن عمي بتعلمهن القيم المادية في مدرسة إسلامية! فأخرجهن من المدرسة، وألحقهن بمدرسة حكومية عادية. ولا يجد حرجاً في توصيلهن بالسيارة الجديدة.
- (٦) صندوق فاونتن التعليمي (FET) لديه مركز للحوار بجوار مسجد شارع كليرمونت. يقيم الصندوق مآدب إفطار في رمضان ورحلات جماعية إلى تركيا. وخلال إحدى الرحلات، زارت المجموعة قونية، وإسطنبول، وإزمير، وكبادوكيا. كبادوكيا منطقة قديمة في منتصف شرق الأناضول، كان من بين المشاركين في الجولة الأستاذ ستانلي ريدج، الأكاديمي المسيحي ونائب رئيس جامعة ويسترن كيب. قال السيد خليل رئيس مركز الحوار: "تهدف الجولة إلى مد الجسور بين أشخاص من مختلف العقائد الدينية". اخترت أكاديميين من جامعة كيب تاون، وجامعة ستيلينبوش، وجامعة ويسترن كيب.
- (٧) زرت المدرسة في منطقة سايراند بارك. تقع في منطقة للطبقة المتوسطة، وتتصل بطريق "N2" المؤدي إلى المدينة مباشرة. المنطقة خضراء، تتراص الأشجار على جانبي شوارعها الواسعة. المدرسة نظيفة وفي حالة جيدة. رأيت في الصف الدراسي ٨ علم جنوب إفريقيا وعلم تركيا معلقين على الحائط. ورأيت القيم التالية مكتوبة على الحائط:
- مارس: الاحترام: نفسك وعائلتك ومجتمعك وبلدك
مايو: الأمل، المثابرة، التراحم، الحب
يوليو: الشكر، الامتنان، التقدير
أغسطس: الوحدة، الوفاء، التضامن، السلام، الصداقة
- وجدت هذه الكلمات أيضاً على جدران المدرسة. وقد رأيت المدير يعلقها بنفسه في أحد أيام السبت.
- (٨) سلاحظ الطلاب على الأرجح أن المعلم يصلي، وإذا سأله عما يفعل، فلا بأس أن يقول بثقة: "نحن مسلمون وهذا وقت صلاتنا". لكنه لن يقول شيئاً إلا إذا سُئل. يجب أن يكون التركيز على ضرب المثل وليس الوعظ.
- (٩) حضرت مؤتمراً في جوهانسبرج حول الحضارة الإسلامية في إفريقيا، وأعلن الدكتور خالد إيرين من ISRICA تقديم منح للراغبين في دراسة الدراسات الاجتماعية في إسطنبول. صادف ذلك نشر بحثي حول إهمال الإنسانية في مدارس كولن.

- قال السيد إلهامي: "يميل كولن شخصيًا إلى الأدب والإنسانيات، لكن اهتمامه بالعلوم جاء استجابة للتحديات في تركيا. واليوم أصبحت مواد العلوم مهمة لسد فجوة سوق العمل في هذه المجالات. تدريس مواد العلوم إلزامي في جنوب إفريقيا، أو لن يدعم الآباء المدرسة. يمكن منح الدراسات الاجتماعية اهتمامًا مساويًا، لكن ليس على حساب العلوم الطبيعية".
- (١٠) يقيم أغلب المعلمين الأتراك في باينلانديز؛ وهي منطقة للطبقة المتوسطة أغلب سكانها من الإنجليز. يقيمون في شقق واسعة بغرفتين، ويتكيفون مع الحياة معًا برغم عدم وجود معرفة سابقة في تركيا. يتشاركون الرؤية، مما يساعدهم على التوافق معًا والانسجام مع زوجاتهم من نفس المنظمة.
- (١١) السيد علي تاجر تركي ثري يبلغ ٧١ عامًا. زار مدينة كيب تاون خلال أول أسبوعين من شهر أغسطس ٢٠٠٧، والتقى رئيس الوزراء إبراهيم رسول. أراد بناء مدرسة (ومسجد ملحق بها) في جوهانسبرج قبل وفاته. قال: "أنا كالثمرة التي قد تسقط من الشجرة في أي وقت، لا أريد أن أكون ثمرة ضائعة، لهذا أريد رؤية المدرسة في أقرب وقت". تبرع السيد علي بمبلغ ١٥ مليون دولار لبدء المشروع في ميدراوند. سيكون المسجد على طراز عمارة سنان. ومن المزمع إقامة المشروع على مساحة ١٣٠ ألف متر مربع. سيضم مراكز تسوق تدر دخلًا من الإيجارات للحفاظ على المجمع (مقابلة مع إلهامي، ٩ أغسطس ٢٠٠٧). يمكن تنفيذ مشروع مشابه في كيب تاون إذا أتيحت الأرض.
- (١٢) حضرت أول مجموعة من المعلمين الأتراك إلى كيب تاون وأقامت في نفس الشقة في كليرمونت (شخصان في كل غرفة). بدأت المدرسة العمل في منطقة ريتريت، وعندما انتقلت إلى أثلون، انتقل المعلمون إلى باينلانديز، وهي أول مدينة حدائق إنجليزية. يسهل الوصول إلى المدرسة من هذا المكان والطريق سريع إلى شارع كليفتونتين. يقيم المعلمون في شقق واسعة بغرفتين، يصل إيجارها إلى ٣٥٠٠ راند في الشهر. وهي جيدة وميسورة التكلفة. جذب المستوى الاقتصادي للمدرسة في أثلون طلابًا من مانينبرج وأثلون وميتشلز بلين. ثم انتقلت المدرسة إلى منطقة الطبقة المتوسطة سايراند بارك عام ٢٠٠٥. أنفقت المدرسة ٢٠٠ ألف راند لتطوير الحدائق وتجهيز غرف الكمبيوتر ومختبرات العلوم. كان التغيير مهمًا. فبدأت عائلات الطبقة المتوسطة تدعم المدرسة، التي شهدت في عام ٢٠٠٧ إقبالًا كبيرًا كان من نتيجته افتتاح فصلين للصف ٨ (مقابلة مع إلهامي، ٩ أغسطس ٢٠٠٧).
- (١٣) راجع كتيب مدرسة ستار الدولية الابتدائية والثانوية (المؤسسة عام ١٩٩٩): من بين المزايا الخاصة الأخرى الواردة في الكتيب (المطبوع عام ٢٠٠٧) الفرص الترفيهية، ومختبر العلوم المجهز بالكامل، وغرفة الكمبيوتر باتصال إنترنت، والمخيمات الخاصة، والرحلات والزهايات، وعروض الطلاب السنوية، والأنشطة اللا منهجية وأنشطة الأندية، إلى جانب البيئة المنضبطة الحنونة، والأجواء الآمنة، وأحدث السياسات والممارسات التعليمية.
- (١٤) راجع كتيب مدرسة ستار الدولية في كيب تاون، ٢٠٠٧.
- (١٥) يشوب مدرسة مستقلة للبنين في منطقة رونديبوش في كيب تاون، تقدم التعليم للأطفال من البداية إلى الصف ١٢ (٦ إلى ١٨ عامًا)، وبها قسم للمرشحين لارتياذ الجامعة. أسست المدرسة عام ١٨٤٩ على يد روبرت جراي يشوب الذي عاش في كيب تاون. اسم المدرسة الرسمي كلية ديوسيسان لكنها تُعرف باسم يشوب. تستمد المدرسة طابعها من أصولها المسيحية، وتاريخها، ومكانتها في جنوب إفريقيا، والقيم التي تسعى لغرسها في الطلاب.
- (١٦) ويستيرفورد مدرسة ثانوية مختلطة، تقع بالقرب من نيولانديز رجيبي جراوند وتيبيل ماونت، تأسست يوم ٢١ يناير ١٩٥٣.
- (١٧) انتقل المدير السابق لمدرسة ستار الدولية في كيب تاون إلى دربان في وقت لاحق لبدء المدرسة هناك. تعلم من إخفاقات تجربة كيب تاون، وبنى سياسة قبول صارمة في دربان.
- (١٨) يعكف الطلاب في هذه المعسكرات التي تستمر أسبوعًا كاملاً على مراجعة العلوم والرياضيات تحت إشراف المعلمين. ذهب نيبيل محمد إلى دربان مرتين هذا العام للمشاركة في أسبوع المعسكر الدراسي. توفر المدرسة الإقامة في سكن الطلاب. قال: "تعلمت الكثير من أستاذ بيندر، معلم الرياضيات والفيزياء؛ فلديه خبرة طويلة وأسلوب ممتاز في التدريس. ألهمني كذلك طلاب مدرسة دربان وطموحاتهم العالية، فبعضهم يطمح للحصول على امتياز في سبع مواد".
- (١٩) بدأت المدرسة العمل في منطقة ريتريت في ضواحي المدينة، التي كانت بعيدة إلى حد ما. ثم انتقلت إلى منطقة أثلون التي تتميز بموقعها المتوسط، وسهولة الوصول منها إلى المدينة.
- (٢٠) تحدث الإنجليزية بطلاقة شرط أساسي، حتى لتدريس مواد العلوم. يرى كولن أن المعلم يجب أن يهتم بكل جوانب الطفل، ولا يقتصر على المادة التي يدرّسها. عندما قال أحد المعلمين الأتراك: "أدرّس الرياضيات، ولا داعي لأن أتحدث الإنجليزية بطلاقة"، اختلفت معه في الرأي وقلت له: "بأي لغة ستوجه الطفل؟" قال: "بالإنجليزية". تتأثر عملية التوجيه والتأديب في ظل وجود صعوبة في التواصل.

- (٢١) شاركت في مؤتمر أقيم في مدينة جوهانسبرج في شهر سبتمبر ٢٠٠٦، وقدمت دراسة حول التعليم التركي في جنوب إفريقيا. طرح شخص هذا السؤال: "كيف لا يدرّس الأتراك المسلمون مواد إسلامية مثل التوحيد، والحديث، والتلاوة، وغيرها؟" فأجبت أنها مدرسة علمانية، لكن ظل متشككاً حتى قلت له: "حققت مدرسة ستار الدولية في دربان ١٠٠٪ من مراتب الشرف في الصف ١٢". حينها انتهت علي ردود الأفعال الإيجابية، وأراد بعض الآباء إلحاق أطفالهم بالمدرسة.
- (٢٢) توفر المدرسة التدريب للمعلمين في نهاية الأسبوع والعطلات للحفاظ على معاييرها العالية. تسعى المدرسة لغرس الروح التنافسية، وينعكس ذلك في إرسال الأطفال إلى مسابقات أولمبياد المدارس الثانوية في جميع أنحاء العالم. وبالفعل يعود الطلاب بالميداليات الذهبية والفضية.
- (٢٣) لا تعتمز المدرسة التنافس مع المدارس الحكومية مثل مدرسة ليفنجستون الثانوية ومدرسة بلجرافيا الثانوية، بل مع المدارس الخاصة ومدارس النموذج ج. كما لا تعتمز التنافس مع أفضل المدارس الخاصة في البلاد؛ فهي مؤسسة منذ سنوات طويلة ومصروفاتها عالية. تستهدف المدرسة التنافس مع مدارس النموذج ج مثل مدرسة ويستيرفورد الثانوية ومدرسة رونديوش للبينين (مدارس البيض الحكومية سابقاً)، التي تضم مرافق تماثل مدارس ستار الدولية ومصروفاتها ميسورة بالنسبة لأطفال الطبقة المتوسطة (مقابلة مع إلهامي، ٧ أغسطس ٢٠٠٧).
- (٢٤) مناخ مدينة دربان حار ورطب. المدرسة قائمة على هياكل سابقة الصنع، وكانت في الأصل قبل عام ١٩٩٩ مدرسة تبشيرية مسيحية. تضم الآن ساحة كبيرة وملعباً لكرة السلة، وبها ٢٠٠ طالب يدفعون ٢٠٠٠ دولار سنوياً. يمكن أن يحصل الطلاب على منحة بقيمة ٢٠٠ دولار لإكمال المصروفات. مبنى المدرسة متواضع مقارنة بمدرسة كيب تاون، لكن الطلاب من عائلات موسرة ولديهم طموحات عالية بشأن مستقبلهم المهني.
- (٢٥) الانتقائية فكرة نسبية. فقد يُنظر إلى مدرسة في منطقة بوصفها انتقائية على عكس منطقة أخرى. ربما يُنظر إلى مدرسة كولن في منطقة فقيرة مثل مانينبرج بوصفها انتقائية على عكس المدرسة في منطقة رونديوش الراقية. ليست المدرسة انتقائية بناء على الطبقة الاجتماعية، بل بناء على الأداء الأكاديمي. لهذا فإن تمويل الطلاب ودعمهم يعتمد على قدرتهم على التعلم وليس على طبقتهم الاجتماعية.

إبراهيم كلش

دكتوراه في الفلسفة وإدارة الأعمال جامعة مناص التركية بقرغيزستان ٢٠١١، نائب رئيس جامعة النيل السابق بأبوجا نيجيريا، وعمل أستاذًا مشاركًا ورئيسًا لقسم الإدارة بجامعة ألتو الدولية ببشكيك-قرغيزستان، مقيم حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية، واهتماماته البحثية هي المحاسبة والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في قرغيزستان، والاستثمار الأجنبي المباشر وما هو أعلى التعليم. وله عديد من المقالات والأبحاث المتعلقة بهذا المجال.



إسهامات مدارس كولن في قرغيزستان

حصلت دول آسيا الوسطى على استقلالها عام ١٩٩١، وسرعان ما بدأت مرحلة انتقالية ليس فقط على الصعيد السياسي، بل أيضًا في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وظهرت حاجة الأفراد إلى إعادة تحديد قيمهم التي تشكلت في ظل النظام السوفيتي ولم تحقق النتائج المطلوبة. أضيف إلى ذلك الاختلاف بين القيم التركية والإسلامية.

بادر رواد أعمال أنراك في تلك الفترة، بافتتاح مدارس تركية في قرغيزستان، والتقى أهل البلد بأفراد يعتنقون مجموعة قيم شبيهة. وقد أدى هذا التقارب إلى تأسيس عدة مدارس وجامعات في المنطقة. كانت مؤسسة ثبات التعليمية الدولية "ثبات" المنظمة غير الحكومية المسؤولة عن تأسيس المدارس التركية في قرغيزستان.

أسهمت جودة مستوى التعليم وتعامل المعلمين الإيجابي مع الطلاب وأولياء الأمور في نجاح هذه المدارس. يتعلم الطلاب أربع لغات (الإنجليزية، والروسية، والتركية، واللغة المحلية)، إلى جانب مهارات استخدام الحاسوب، ويحصلون على العديد من الجوائز في مسابقات العلوم المحلية والدولية. ولا شك أن هذه الأنشطة تزيد جودة مستوى التعليم. غير أنه من الصعب إلى حد ما تحديد أثر هذا التعليم على القيم الاجتماعية، وعملية التحول الديمقراطي، والعولمة في المجتمع القيرغيزي وفي البلد ككل.

تعكف هذه الدراسة على تحليل إسهامات المدارس في تشكيل شخصية الطلاب وغرس قيم مثل الأمانة، والتسامح، والعمل الجاد، والمسؤولية، والولاء، والصبر، والشجاعة، والتعاون بين مدارس ثبات وغيرها، وذلك بمساعدة أداة استطلاع لقياس القيم. كما أُجريت بعض اللقاءات مع الطلاب. تركز البيانات المجموعة من الطلاب في تلك اللقاءات على فكرة أين يرى الطلاب أنفسهم في المجتمع العالمي. وأخيرًا، تناقش الدراسة إسهامات مؤسسة ثبات في تعزيز ممارسات التحول الديمقراطي للمجتمع القيرغيزي والبلد ككل.

قيرغيزستان والعالم التركي

تقع قيرغيزستان، أو الجمهورية القيرغيزية، في آسيا الوسطى، وهي دولة داخلية ذات طبيعة جبلية عاصمتها بشكيك. تحدها الصين، وكازاخستان، وطاجيكستان، وأوزبكستان. تحتضن قيرغيزستان مزيجًا من الثقافات والمجموعات العرقية، ويشكل القيرغيز غالبية السكان. كان توزيع السكان في قيرغيزستان عام ١٩٩٩ يقدر بنسبة ٦٤,٩٪ قيرغيز، و١٣,٨٪ أوزبك، و١٢,٥٪ روس. يتألف باقي السكان من نحو تسعين جنسية أخرى. القيرغيزية هي اللغة الرسمية في البلاد، والروسية هي لغة التعامل بين المجموعات العرقية المختلفة. تبلغ نسبة الأشخاص الذين يتحدثون اللغة الرسمية بطلاقة حاليًا ٧٠٪ من عدد السكان (مقارنة بنسبة ٥٣٪ في عام ١٩٨٩).

يمكن وصف العالم التركي من منظور جغرافي بأنه عالم مواز للشعوب المقيمة في شمال ووسط أوراسيا، التي تتحدث لغات تنتمي للعائلة التركية، وتتشارك بعض السمات الثقافية والتاريخية بدرجات متفاوتة. تعتبر اللغات التركية مجموعة فرعية ضمن عائلة اللغات الألطية، وواحدة من أكثر اللغات انتشارًا في العالم؛ فهي لغة الحديث في مناطق شاسعة تمتد من أوروبا إلى سيبيريا. تقع قيرغيزستان في مركز العالم التركي تقريبًا.



الشكل ١: خريطة العالم التركي (ويكيبيديا، ٢٠٠٧)

اللغة القبرغيزية فرد في عائلة اللغة التركية. كان من نتائج التجربة السوفيتية التي مرت بها البلاد وتفاعل الأتراك مع الحضارة الغربية حدوث تمايز لغوي بين الشعبين التركيين. على سبيل المثال، يستخدم الشعب القبرغيزي الأبجدية السيريلية، في حين يستخدم الأتراك الأحرف اللاتينية. غير أن المنطق والقواعد النحوية متشابهة في اللغتين.

قدمت الحضارة القبرغيزية إسهامات جليلة للحضارة التركية الإسلامية. على سبيل المثال، شرح يوسف خاص حاجب البلاساجوني، مؤلف كتاب "قوتادجوبيليك" (خزائن الحكم)، الفلسفة وراء الحياة وطريقة إدارة دولة عام ١٠٧٠، ودرس محمود الكاشغري اللهجات التركية، ووضع أول قاموس شامل للغات التركية بعنوان "ديوان اللغات الترك" عام ١٠٧٢. وهذان الكتابان اثنان من أقدم الأمثلة على المؤلفات التركية الإسلامية.

الديانة السائدة في البلاد هي الإسلام السني (ولا سيما المذهب الحنفي)، والذي يعتنقه نحو ٧٠٪ من السكان، اعتبارًا من عام ١٩٩٤، كغيره من الشعوب التركية.

مؤسسة ثبات الدولية (SEBAT)

مؤسسة ثبات التعليمية الدولية، التي أنشأت المدارس التركية في قبرغيزيا، منظمة غير حكومية تشكلت في الجمهورية القبرغيزية عام ١٩٩١. استطاعت ثبات منذ فبراير ١٩٩٢ أن تفتتح ١٤ مدرسة ثانوية، و٤ مساكن جامعية للطلبة، وجامعة أتاتورك ألاتو الدولية، ومدرسة طريق التحرير الدولية، ومركز سيكوم لدراسات اللغات والكمبيوتر. واستثمرت مؤسسة ثبات ٦٠ مليون دولار أمريكي حتى الآن في مجال التعليم.



الشكل ٢: مؤسسات ثبات التعليمية الدولية في أرجاء قيرغيزستان

ملفات العاملين في المجال التعليمي والإداري^(١)

أغلب المدارس التي أنشأتها مؤسسة ثبات مدارس ثانوية، بها مدير واحد وثلاثة نواب. ١٢ من إجمالي المديرين من الأتراك و ٤ من القيرغيز. علاوة على ذلك، يوجد ٢٧ نائب مدير تركي و ٢١ نائب مدير قيرغيزي. تخرّج اثنان من المدراء و ١٠ من النواب القيرغيز في مدارس المؤسسة.

يعمل في مدارس مؤسسة ثبات ٥١٠ معلّمًا، من بينهم ١٧٠ تركيًّا و ٣٤٠ قيرغيزيًّا (تخرّج ١٥٠ منهم في مدارس المؤسسة). أضف إلى ذلك وجود نحو ٥٠٠ عامل في المدارس من بينهم ١٠ أتراك فقط.

يقوم على جامعة أتاتورك ألتو الدولية رئيس واحد ونائب رئيس واحد (كلاهما تركي الجنسية)، فضلاً عن نائب رئيس قيرغيزي. عمداء الكلية الثلاثة قيرغيزيون. وهناك ٣ رؤساء أقسام قيرغيزيون و ٤ أتراك. يضم المحاضرون ٦٤ قيرغيزيًّا و ٢٠ تركيًّا. تضم العمالة في الجامعة ٤٦ قيرغيزيًّا و ٧ أتراك.

عملية اختيار الطلاب وملفاتهم

أهم ما يميز هذه المدارس اختبارات القبول التي توجه عملية اختيار الطلاب. تضم العملية مرحلتين. في المرحلة الأولى، يخضع الطلاب لاختبار يقيس معلوماتهم المدرسية بوجه عام. يتقدم للمدرسة نحو ٥٠ ألف طالب سنويًّا في هذه المرحلة. ثم يخضع الناجحون (نحو ١٠

آلاف) إلى اختبار آخر في المنطق والرياضيات، وهذه المرحلة الثانية. يجب على الطلاب تقديم تقرير صحي يثبت أنهم بحالة بدنية وعقلية جيدة تلائم الحياة في سكن الطلبة. هذا النظام محايد جدًّا ولا يشوبه أي فساد.

ينقسم سكان البلاد إلى ٣٤,٨٪ في الحضر و٦٥,٢٪ في الريف، بحسب إحصاءات اللجنة الإحصائية الوطنية (NSC) عام ١٩٩٩. تضم مدارس مؤسسة ثبات ٥١٪ من طلاب الحضر و٤٩٪ من طلاب الريف (أورموشيف وآخرون، ٢٠٠٧: ٢٢). استنادًا إلى جودة مستوى التعليم في المناطق الحضرية والريفية، نلاحظ أن طلاب الريف لا يحرزون درجات عالية في اختبارات القبول مثل قرنائهم في الحضر، كما أن الظروف الاقتصادية في المناطق الريفية أقل منها في المناطق الحضرية.

يرى سولبيرج (٢٠٠٦) أن هذه المدارس يُنظر إليها بوصفها مدارس "الصفوة" لأنها مدارس خاصة بمصروفات، لكنها ليست كذلك. فاختبارات القبول مفتوحة أمام الجميع، والمصروفات ميسورة بالنسبة لأي أسرة متوسطة الدخل. وتؤكد ذلك الإحصاءات السابقة حول سكان الحضر والريف.

الأجر (في عام واحد)	١٣٥٢,٤ دولار أمريكي
متوسط رسوم المدرسة الثانوية	٦٠٠ دولار أمريكي
متوسط رسوم الجامعة	٨٥٠ دولارًا أمريكيًا

الجدول ١: مقارنة أجر الموظف العادي في قيرغيزستان ورسوم مدرسة ثبات عام ٢٠٠٧،

سعر الدولار الأمريكي ٣٧,٨ سوم قيرغيزي (المصدر: NSC وNBKR وثبات)

علاوة على ذلك، فإنه من بين إجمالي ٤٦١٦ طالبًا، هناك ٣٢٤ من عائلات كثيرة الأفراد، و٣٤٤ من يتامى الأب والأم، و٢٠٤ من يتامى الأب، و٤٧ من يتامى الأم (أورموشيف وآخرون، ٢٠٠٧: ص. ٢٣). يوفر هذا النظام الفرصة أمام الجميع للحصول على تعليم بجودة عالية.

وأخيرًا، فإن التوزيع العرقي للطلاب كما يلي: ٧٤٪ قيرغيز، و١٣٪ روس، و٦٪ أوزبك، و٧٪ عرقيات أخرى. عند مقارنة هذه النسب بالبنية السكانية، نلاحظ أن عدد الطلاب القيرغيز في مدارس ثبات أعلى من المتوسط الإحصائي، والطلاب الأوزبك أقل من المتوسط (NSC، ١٩٩٩).

أسلوب التعليم

تُدْرَس الفصول الأساسية باللغة الإنجليزية، فضلاً عن تدريس اللغات المحلية، مثل القيرغيزية والروسية والتركية بوصفها لغات أجنبية. يتحدث أغلب الطلاب اللغات الأربعة بطلاقة بحلول وقت التخرج، ويمكنهم استخدام برامج الكمبيوتر الأساسية.

وقد ظهرت كفاءة طلاب مدارس ثبات في الأولمبياد المحلية والدولية في جميع أنحاء العالم. (٢) بعد النجاح الذي حققه الطلاب على الساحة الدولية، قال وزير التربية والتعليم القيرغيزي إسنجول بولكوروفا: "فتحت مدارس ثبات آفاقاً عالمية جديدة لقيرغيزستان في مجال التعليم" (جريدة زمان التركية، يوم ٦/٨/٢٠٠٢).

الإجمالي	على المستويين العالمي والدولي			على مستوى الجمهورية			العام
	الذهبية	الفضية	البرونزية	الذهبية	الفضية	البرونزية	
٤	٢	٢	-	٢٣	٨	٩	٢٠٠٢-٢٠٠١
١	١	-	-	٢٤	٦	٩	٢٠٠٣-٢٠٠٢
١٤	٩	٤	١	٤١	١٨	١١	٢٠٠٤-٢٠٠٣
١٢	٧	٢	٣	٤٣	١٠	١٨	٢٠٠٥-٢٠٠٤
١١	٨	٢	١	٤٥	١٠	١٥	٢٠٠٦-٢٠٠٥
١٥	٧	٦	٢	٤٠	١٠	١٢	٢٠٠٧-٢٠٠٦
٥٧	٣٤	١٦	٧	٢١٦	٦٢	٧٤	الإجمالي

الجدول ٢: إجمالي الدرجات في أولمبياد العلوم على مستوى الجمهورية والمستويين العالمي والدولي التي أحرزها طلاب مدارس ثبات بين عامي ٢٠٠١ و ٢٠٠٧ (المصدر: مؤسسة ثبات)

ساعدت العلاقات الوثيقة بين المعلمين وأولياء الأمور في تحسين مستوى الطلاب. يحرص المعلمون في مدارس ثبات على إقامة علاقة قوية مع أولياء الأمور. كما تنظم المدارس ٣ اجتماعات سنوية^(٣) مع أولياء الأمور وتكون فرصة جيدة لمناقشة وضع الطلاب بالتفصيل بهدف تحسين مستواهم الدراسي. بل إن ثبات تشجع المعلمين على إجراء زيارات منزلية، في

إطار سياستها لرفع مستوى جودة التعليم في المدارس. لا شك أن عدد الطلاب الذين يسافرون لإكمال دراساتهم في الخارج أحد مؤشرات نجاح مدارس ثبات. فقد سافر خريجي مدارس ثبات عام ٢٠٠٦ لإكمال دراساتهم العليا إلى ٢٤ دولة مختلفة. وواصل ١٥٧١ خريجًا (٧٥٪ تقريبًا) دراساتهم الجامعية في قيرغيزستان، من بينهم ٢٩٨ (١٤٪) خريجًا سافر إلى تركيا لإكمال دراسته العليا. تتصدر تركيا قائمة دول التي يسافر إليها الطلاب بإكمال الدراسات العليا بفضل المنح التي تقدمها الحكومة التركية، وهذا سبب ارتفاع النسبة. علاوة على ذلك، يعمل ٢٧٦ من خريجي جامعة أتاتورك ألاتو أو يدرسون في ١٦ دولة مختلفة.

قيرغيزستان	تركيا	روسيا	كازاخستان	أمريكا	الصين	أخرى	الإجمالي
١٥٧١	٢٩٨	٧١	٢٢	٢١	١	٥٠	٢٠٥١

الجدول ٣: توزيع خريجي مدارس ثبات الثانوية الذين يواصلون دراساتهم العليا في الخارج على الدول، بين عام ١٩٩٦ و٢٠٠٦.

قيرغيزستان	تركيا	روسيا	كازاخستان	أخرى	الإجمالي
٢١٢	١٥	١٩	٨	٢١	٢٧٦

الجدول ٤: توزيع خريجي جامعة أتاتورك ألاتو على الدول، بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٦ (المصدر: مركز التنمية المهنية بجامعة أتاتورك ألاتو الدولية، ٢٠٠٧)

يمكن نسبة هذا النجاح إلى عدة أسباب: أولاً، أن مدارس ثبات تختار الطلاب المناسبين عبر اختبارات التقديم. وثانياً، أغلب هؤلاء الطلاب يقيمون في سكن المدرسة، ويدرسون ساعتين يومياً (١٠ ساعات أسبوعياً) تحت إشراف المعلمين. أضف إلى ذلك أن المعلمين يذهبون إلى سكن الطلاب في المساء لمساعدتهم على أداء فروضهم المنزلية. ثالثاً، نحو ٥٠٪ من الطلاب وفقاً لإحصاءات ثبات يستعدون للمشاركة في الأولمبياد، ويقضون أكثر من ١٠ ساعات أسبوعياً في الدراسة. كما تنظم مؤسسة ثبات مخيمات أولمبية (استعدادات مكثفة للأولمبياد) في نهاية كل ثلاثة شهور. يعكف الطلاب على الدراسة في هذه المخيمات لأكثر من ١٠ ساعات يومياً على مدار ١٥ يوماً، ويحضرين محاضرات لمدة ٤ ساعات، هذا بخلاف الدراسة الفردية لمدة تزيد عن ٦ ساعات. ولا شك أن كل هذه الدراسة الجادة والاستعداد

للأولمبياد يحقق نتائج مبهره.

تعتبر المشاركة في الأندية أحد الأنشطة التي تهدف إلى تنمية المهارات الاجتماعية لطلاب. تضم كل مدرسة أكثر من ١٠ أندية؛ منها أندية معنية بالرياضة، واللغة الإنجليزية، والرياضيات، والشطرنج، والإنترنت، والتمثيل، وغير ذلك. يكمن الهدف الرئيسي وراء أنشطة أندية مدارس ثبات في المساعدة في بناء شخصية الطلاب. بالفعل تسهم الأندية إسهامًا واضحًا في غرس قيم التعاون، وتحمل المسؤولية، واحترام الآخر، ومراعاة الحقوق، والإصرار على النجاح. يشير مسؤولون في مدارس ثبات إلى عوامل أخرى تسهم في نجاح الطلاب مثل انخفاض عدد الطلاب لكل معلم، وارتفاع أجور المعلمين نسبيًا في هذه المدارس. يوجد حاليًا ٥١٠ معلمين و٤٦١٦ طالبًا في مدارس ثبات، بحيث تصبح نسبة عدد الطلاب لكل معلم ٩:١ تقريبًا. كما يؤكد المسؤولون في مدارس ثبات على دفع أجور عالية للمعلمين المحليين والأجانب مقارنة بالأجور في قيرغيزيا، مما يؤدي إلى تحسن أداء المعلمين وزيادة الإنفاق على كل طالب. ولا شك أن مستوى تعليم المعلمين وخبرتهم تزيد من كفاءة الطلاب. تحرص مدارس ثبات على تنظيم لقاء سنوي للمعلمين على مستوى البلاد. ونظرًا لأن كل مدرسة تضم نحو ٣٠٠ طالب، فإن مرافق مثل المختبرات وأجهزة الكمبيوتر متاحة دائمًا للطلاب. تساعد كل العوامل السابقة في رفع مستوى أداء الطلاب في مدارس ثبات.

المسؤولية الاجتماعية

المسؤولية الاجتماعية هي الالتزام باتخاذ قرارات وإجراءات تحقق رفاهة المجتمع والمؤسسة ومصالحتهما (دافت، ٢٠٠٠: ١٤٣). والمسؤولية التقديرية هي مسؤولية المؤسسة الطوعية النابعة من رغبتها في تقديم إسهامات اجتماعية لا تفرضها الظروف الاقتصادية أو القوانين أو منظومة الأخلاق. وهي أعلى معايير المسؤولية الاجتماعية، لأنها تتجاوز كل التوقعات الاجتماعية لتحقيق رفاهة المجتمع (دافت، ٢٠٠٠: ١٤٩). الآن يمكننا تقييم كل أنشطة مؤسسة ثبات في ضوء ذلك. فإلى جانب تعليم الطلاب، تقوم ثبات بتنظيم عدد من الأنشطة ورعايتها مثل:

- رعاية الأولمبياد البيئية في البلاد (إن بيسيجيتوف، ٢٠٠٧).
- توزيع اللحوم في عيد الأضحى على دور الأيتام والمستشفيات.
- مساعدة ضحايا الكوارث مثل الزلازل والسيول (إم توكثوروف، ١٢ يناير ٢٠٠٧).
- تنظيم مؤتمرات علمية محلية ودولية ورعايتها.

- نشر كتب تعليمية وقواميس باللغة القيرغيزية.
- تنظيم "يوم الثقافة القيرغيزية" في الدول الأوروبية للتعريف بقيرغيزستان والثقافة القيرغيزية (صفحة ويب مؤسسة ثبات، ٢٠٠٧).
- تنظيم جولات سنوية لرجال الأعمال في قيرغيزستان بعنوان "حوار الأعمال" لجذب الاستثمار (جريدة زمان التركية، ٢٤ مايو ٢٠٠٦).

آراء حول مؤسسة ثبات

- تحدث دكتور توماس مايكل في أحد المؤتمرات المنعقدة في جامعة جورجتاون عام ٢٠٠١، وقدم تقييمه لجامعة أتاتورك ألاتو والمدارس الثانوية التابعة لمؤسسة ثبات:
- كانت هذه المدارس من أكثر المؤسسات التعليمية التي عرفها نشاطاً وقيمة في العالم اليوم.
- أتقن الطلاب اللغة الإنجليزية إتقاناً لا يضاهيه سوى إتقانهم للغتين الروسية والتركية، إلى جانب لغتهم الأم القيرغيزية.
- سعى المعلمون لغرس القيم العالمية في نفوس الطلاب، مثل الأمانة والعمل الجاد والتناغم والخدمة المستمرة.
- درس ديمير وآخرون (٢٠٠٠) المدارس التركية في قيرغيزستان، وأجروا مجموعة مقابلات مع أولياء الأمور والطلاب والمعلمين في تلك المؤسسات، لتحديد أهم ثلاث سمات للمدارس التركية القيرغيزية في المنطقة، وكانت كالتالي:
- جودة مستوى التعليم، والتي تضمنت سلوكيات المعلمين الإيجابية تجاه الطلاب وأولياء أمورهم.
- تدريس أربع لغات
- تربية أفراد مهذبين
- تحدث رئيس جمهورية قيرغيزستان كرمان بيك باكيف، في فعاليات افتتاح سكن الطلبة في جامعة أتاتورك ألاتو، موضحاً رأيه في السكن والجامعة ومؤسسة ثبات كما يلي (جريدة زمان التركية، ٢٠٠٦):
- أتمنى أن تكون مباني المؤسسات التعليمية الأخرى في بلادي على نفس القدر من الجمال والجودة العالية.
- أشكر مؤسسة ثبات ورعاتها على المساعدات التي يقدمونها للنظام التعليمي في قيرغيزستان.

- تبذل المؤسسة جهودها لتعليم أطفالنا في ١٤ مدرسة ثانوية في جميع أنحاء البلاد، وجامعة أتاتورك ألاتو، ومركز تعليم اللغات.
 - الأجيال التي تعلمونها طريقنا لمستقبل مشرق.
 - يعمل أغلب خريجي مدارس ثبات وجامعة أتاتورك ألاتو في شركات أجنبية في قبرغيزستان، لأن هذه الشركات تميل إلى توظيفهم لأنهم يتمتعون:
 - بمهارات لغوية محلية وأجنبية عالية المستوى.
 - بمهارات استخدام الكمبيوتر.
 - بخبرة في التعامل مع الأجانب.
 - بالقدرة على اتباع أساليب العمل المختلفة.
- في محاولة لتحديد مواطن تميز جامعة أتاتورك ألاتو عن غيرها من مؤسسات التعليم العالي في المنطقة، أُجريت مقابلات مع المحاضرين، وكانت النتائج كما يلي:
- جودة البنية الأساسية للتعليم.
 - التوافق بين الفريق الإداري والفريق الأكاديمي.
 - التعليم قائم على الطلاب.
 - اتباع الطرق الغربية.
 - اتباع أحدث التقنيات والأدوات والمناهج.
 - انضباط العملية التعليمية.
 - تطبيق نظام تعليمي جيد.
- كما أعرب الرئيس القيرغيزي كرمان بيك باكييف عن رأيه في مدارس ثبات عام ٢٠٠٧، فقد منح رئيس مؤسسة ثبات أورهان إناندي "تكريماً رفيعاً" تقديراً لإسهامات مؤسسة ثبات في النظام التعليمي القيرغيزي (جريدة زمان التركية، ٢٤ أبريل ٢٠٠٦). كما أنعم عليه الرئيس السابق عسكر أكايف في عام ٢٠٠٤ بـ "ميدالية دانك العليا" (وهي ثاني أهم ميدالية في دولة قبرغيزيا) (جريدة زمان التركية، ٨ أكتوبر ٢٠٠٤).

التحول الديمقراطي والعولمة

التحول الديمقراطي

تزيد احتمالات إرساء الديمقراطية وتأصلها في الدول ذات مستويات التعليم العالية

(إي بابايونو وإس جريجوروس، ٢٠٠٦: ٢٦). وهناك علاقة متبادلة قوية جدًا بين التعليم والديمقراطية في جميع أنحاء العالم. وجد جلايسر وآخرون (٢٠٠٧) أن معامل الارتباط بين هذين المتغيرين وصل إلى ٧٤ بالمائة في ٩١ دولة. ويشير لبيستب (١٩٥٩: ٧٩) إلى أن التعليم يترك أثرًا إيجابيًا على وجهات نظر البشر، ويمكنهم من إدراك الحاجة إلى التسامح، ويمنعهم من اعتناق آراء متطرفة ومبادئ أحادية، ويزيد قدرتهم على انتقاء خيارات انتخابية منطقية. وبهذه الطريقة، يدعم التعليم إرساء مبادئ الديمقراطية.

تمتع قيرغيزستان بمستوى عالٍ من التعليم. وليست إسهامات مدارس ثبات في النظام التعليمي القيرغيزي كمية بقدر ما هي كيفية. تعمل مدارس ثبات على إضافة قيمة إلى نظام التعليم القيرغيزي، بفضل جودة تعليمها والتنوع الثري الذي تضيفه إلى النظام. تُعد المدارس الأفراد للمشاركة في الحياة الاقتصادية والسياسية، وتوفر لهم المعرفة لاتخاذ قرارات مسؤولة، والدافع لتقديم إسهامات قيمة نحو رفاهية المجتمع، والوعي بتبعات سلوكياتهم (إي اتش إستان، ٢٠٠٧). ومن هذا المنطلق، يشجع نظام التعليم في قيرغيزستان انتخاب رئيس للفصل ورئيس للمدرسة. ويعتبر هذا الشخص في الواقع مساعدًا للمعلم. لكن مدارس ثبات تنظر إلى فكرة انتخاب رئيس للفصل ورئيس للمدرسة باعتبارها وسيلة تعليمية لغرس مبادئ الديمقراطية وتنمية مهارات القيادة وتحمل المسؤولية لدى الطلاب، وقناة اتصال بين الطلاب والمعلمين والإدارة.

يقضي الطلاب أغلب وقتهم معًا وفق نظام التعليم المطبق في مدارس ثبات. فيظلون في فصولهم أثناء النهار، وفي سكن الطلبة في المساء على مدار خمس سنوات. ينحدر الطلاب من خلفيات مختلفة، نظرًا للطبيعة العرقية الخاصة في قيرغيزستان. وبهذه الطريقة، يتعلمون قيمة التسامح خلال سنوات الدراسة في المدرسة.

العولمة

أصبحنا نعيش الآن في قرية عالمية، بفضل التقدم الذي وصل إليه العالم في مجالي الاتصالات والنقل. وحتى يجد الطلاب ما يبحثون عنه على هذه الشبكة العالمية، من الضروري أن يتعلموا طريقة استخدام الإنترنت بكفاءة ويتقنوا اللغة الإنجليزية. ولعل أهم ما يميز مدارس ثبات أنها تعلم الطلاب استخدام مثل هذه الأدوات بطريقة جيدة. هذا إلى جانب، تنمية المهارات اللغوية القيرغيزية والروسية وتعلم التركيبة.

تضم مدارس ثبات نسبة كبيرة من المعلمين الأتراك، إلى جانب المعلمين من جنسيات أخرى. يساعد هذا التنوع الطلاب على التواجد في بيئة عالمية. فهم يلتقون بأشخاص من مناطق أخرى من العالم، لهم تاريخهم وعاداتهم ولغاتهم وسلوكياتهم المختلفة. كما يلتحق الطلاب ببرامج مختلفة في جميع أنحاء العالم. على سبيل المثال، يشارك الطلاب في فعاليات "يوم الثقافة القيرغيزية" التي تُقام عدة مرات في الدول الأوروبية، ويشاركون في الأولمبياد العالمية بمختلف الدول.

إلى جانب هذه الجهود المبذولة نحو التحول الديمقراطي والعولمة، تسعى مؤسسة ثبات لتوفير أفراد مؤهلين للعمل في القطاع التعليمي في البلاد. وقد يكون هذا الهدف الأهم من منظور الدولة. قبل أن تحصل قبرغيزستان على استقلالها، كانت تعتمد على العمالة الماهرة التي كان أغلبها من الأقليات التي تتحدث الروسية، مثل الألمان والروس والأوكرانيين (إن ماميدوف، ٢٠٠٥: ٥٢). وصلت نسبة المهندسين والتقنيين القيرغيزيين في عام ١٩٨٠ إلى ١٣٪ فقط (إن ماميدوف، ٢٠٠٥: ٧٧). وبعد الحصول على الاستقلال، هاجرت أعداد كبيرة من الأقليات التي تتحدث الروسية إلى روسيا. وقد أدى ذلك إلى نقص هائل في إجمالي الناتج المحلي، وتسبب في ظهور مشكلات جديدة في البلاد. وكان لزاماً على الدولة أن تبدأ في تعليم العمالة الفنية والاحترافية وتدريبها. وانطلقت برامج حكومية مثل برنامج CadryXXI veka لمحاولة حل هذه المشكلة. وبفضل جهود مدارس ثبات، بات من الممكن الآن الاستعانة بموظفين إداريين ومعلمين مؤهلين من البلاد.

المسؤولية الاجتماعية

أُجريت دراسات متخصصة تركز على المدارس التركية الخاصة في منطقة آسيا الوسطى وقبرغيزستان. على سبيل المثال، يحلل ديمير وآخرون عام ٢٠٠٠ الأدوار التي تلعبها المدارس التركية القيرغيزية في تركمانستان وقبرغيزستان. كما قدم دكتور توماس مايكل، في أحد المؤتمرات المنعقدة في جامعة جورجتاون عام ٢٠٠١، تقييمه لجامعة أتاتورك ألاتو والمدارس الثانوية التابعة لمؤسسة ثبات، ونشر اتش إم يافوز وجيه إل إسبوزيتو هذه المحاضرة عام ٢٠٠٣. كذلك يضم كتاب "مؤيد الحوار: فتح الله كولن" أمثلة من المقابلات التي أُجريت مع العاملين في المدارس التركية في مختلف بلاد العالم، ومن بينها قبرغيزستان. ويحتوي كتاب "جسور السلام" تفتحتها المدارس التركية على العالم، بقلم أورتايلي وآخرين عام ٢٠٠٥، آراء الكتاب الأتراك في المدارس التركية القيرغيزية.

يقدم كتاب (Sebat" Bilim Beruu Uyasi) بقلم إيه أورموشيف وأو إيناندي وتي أسانولو (٢٠٠٧) المنشور باللغة القيرغيزية نبذة مختصرة عن تاريخ المدارس التركية القيرغيزية في قيرغيزستان. أما كتاب "تجربة التعليم العالي التركية في آسيا الوسطى: الجوانب الإدارية والتعليمية في جامعة أتاتورك ألاتو الدولية"، فيتناول الجوانب التعليمية والإدارية في جامعة أتاتورك ألاتو الدولية التابعة لمؤسسة ثبات.

منهج الدراسة

تركز هذه الدراسة على تحليل أهمية قيم مثل الأمانة، والتسامح، والعمل الجاد، والمسؤولية، والولاء، والصبر، والشجاعة، والتعاون بين طلاب مدارس ثبات وغيرهم، وذلك بمساعدة أداة استطلاع. ينقسم الاستطلاع إلى قسمين. يعتمد القسم الأول في الأغلب على "مسح قيم العالم"، في حين يتألف القسم الثاني من أسئلة تحدد السمات الديموغرافية والاجتماعية الاقتصادية للمشاركين.

يُعد مسح قيم العالم (WVS) شبكة عالمية من علماء الاجتماع الذين يستكشفون القيم والمعتقدات الأساسية للشعوب في أكثر من ٨٠ مجتمعًا في القارات الست المأهولة. وهذا المسح أداة لتحليل التغيرات الاجتماعية الثقافية والسياسية من منظور عالمي. نفذت الفكرة في البداية المجموعة الأوروبية لمسح قيم العالم بقيادة يان كيركوفس ورودي موردي عام ١٩٨١. وقد أُجريت أربع حملات استطلاعية حتى الآن، كان من نتيجتها نشر أكثر من ٤٠٠ عمل بأكثر من ٢٠ لغة (مسح قيم العالم، ٢٠٠٧).

تطلق هذه الدراسة على طلاب مدارس ثبات اسم "ثبات"، وكل الطلاب الآخرين اسم "آخرين". جُمعت البيانات المستخدمة في الدراسة في مدينة بيشكك القيرغيزية في شهر سبتمبر ٢٠٠٧. يبين الجدول ١٤ الخصائص الديموغرافية للطلاب المشاركين في الاستطلاع. "قيم الطلاب" هي المتغير التابع في هذه الدراسة، والمتغير المستقل هو التخرج في مدارس ثبات. سيخضع عدد قليل من طلاب المجموعتين لاختبار سابق قبل بدء الاستطلاع الفعلي، ويهدف هذا الاختبار السابق لقياس مدى موثوقية الاستطلاع، والتأكد من فهم القائمين على العملية لأدوارهم.

يضم الاستطلاع في المجلد ٨ مجموعات من الأسئلة لتحديد القيم، و٤ أسئلة لتحديد الخصائص الديموغرافية والاجتماعية الاقتصادية في الاستطلاع.

شارك في الاستطلاع مجموعة من طلاب العام الأول في جامعة أتاتورك ألتو الدولية، تخرجت نسبة ٥١٪ منهم من مدارس ثبات و ٤٩٪ من مدارس أخرى في قيرغيزستان. أُجري الاستطلاع في أول يوم للدراسة في بيئة الفصل تحت إشراف المحاضرين. أعاد الطلاب أوراق الاستطلاع بعد توزيعها عليهم بنحو عشرين دقيقة. تم توزيع ٤٤٩ ورقة استطلاع، لكن بسبب عدم اكتمال الإجابات، اعتمدنا على ٤٢٨ ورقة استطلاع فقط.

النتائج

توفر الثقافة بوجه عام مجموعة من الغايات العامة للأفراد، ليحددوا أهدافهم وطموحاتهم الشخصية. القيم هي المفاهيم المشتركة لما يُعتبر جيداً ومُرضياً وملائماً في الثقافة، وتشير إلى تفضيلات الأشخاص في ثقافة معينة وما يعتبرونه مهماً وصحيحاً من الناحية الأخلاقية. تؤثر القيم على سلوكيات الأشخاص، وتوفر لهم المعيار الذي يمكنهم من تقييم تصرفات الآخرين (آرتي شايفر وآر بي لام، ٨٠-٨١). من المقرر استخدام نتائج الاستطلاع في هذا الجزء لتحليل الفرق بين طلاب مدارس ثبات وغيرها من المدارس في إدراكهم للقيم الاجتماعية. أولاً، تطرأ بعض التغييرات على سمات الطلاب الشخصية نتيجة التعليم. والسؤال المطروح هنا هو كيف تؤثر المدرسة على سماتهم الشخصية؟ استخدمت الدراسة مقياس ليكرت الثلاثي، حيث (١) يعني "لا شيء" و(٣) يعني "كثيراً".

المدارس الأخرى	ثبات	التسامح	المدارس الأخرى	ثبات	تحمّل المسؤولية
٢,٥٧	٢,٦٩	التسامح	٢,٧٣	٢,٧٧	الاحترام
٢,٦٩	٢,٨٣	الأمانة	٢,٨١	٢,٨٣	تقدير الذات
٢,٦٠	٢,٧١	التعاون	٢,١٧	٢,٠٥	الاهتمام
٢,٢٤	٢,٣٨	الشجاعة	١,٩٢	٢,١٣	المثابرة
٢,٦٨	٢,٧٩	الولاء	٢,٢٣	٢,٢٢	

الجدول ٥: فكرة الطلاب حول دور المدرسة في تنمية شخصياتهم.

يعكس هذا الجزء من الاستبانة دور المدارس في بناء شخصية الطلاب، سواءً كان ذلك نابعاً من طبيعة العملية التعليمية أو المعلم. أقر الطلاب من القسمين بدور المدارس في تشكيل شخصياتهم. نلاحظ بمقارنة النتائج أن طلاب مدارس ثبات أشاروا إلى درجة أعلى مقارنة بالطلاب الآخرين. تشير نتائج هذا الجزء من الاستطلاع إلى الجهد الكبير الذي تبذله مدارس ثبات في تنمية شخصية الطلاب مقارنة بالمدارس الأخرى. علاوة على ذلك، إذا نظرنا إلى جزء "تقييم الذات" في الاستطلاع، فسنلاحظ أن طلاب مدارس ثبات حصلوا على درجة أقل من طلاب المدارس الأخرى.

ومن النتائج الأخرى التي توصل إليها هذا الجزء من الاستطلاع أهمية السمات الشخصية بالنسبة للمدارس. إذا كان الطلاب قد أشاروا إلى إسهام المدرسة بصورة كبيرة في تنمية شخصياتهم، فهذا يعني أن المدرسة تبذل الجهود وتولي الأمر أهمية كبيرة. خلصت الدراسة إلى أن أهم السمات التي تركز عليها مدارس ثبات هي الأمانة، والاحترام، والولاء، وتحمل المسؤولية، والتعاون، والتسامح. حصل "تقدير الذات" على أقل درجة في مدارس ثبات. وقد يرجع السبب في ذلك إلى التركيز على قيمة "التعاون" التي تطغى إلى حد ما على قيمة "تقدير الذات".

التصنيف	المدارس الأخرى	التصنيف	ثبات	
٣	٢,٦٩	١	٢,٨٣	الأمانة
١	٢,٨١	٢	٢,٨٣	الاحترام
٤	٢,٦٨	٣	٢,٧٩	الولاء
٢	٢,٧٣	٤	٢,٧٧	تحمل المسؤولية
٥	٢,٦	٥	٢,٧١	التعاون
٦	٢,٥٧	٦	٢,٦٩	التسامح
٧	٢,٢٤	٧	٢,٣٨	الشجاعة
٨	٢,٢٣	٨	٢,٢٢	المثابرة
١٠	١,٩٢	٩	٢,١٣	الاهتمام
٩	٢,١٧	١٠	٢,٠٥	تقدير الذات

الجدول ٦: تصنيف السمات الشخصية حسب المدرسة في الجزء الثاني من الاستطلاع، حيث طُلب منهم تقييم أهمية العائلة، والأصدقاء، والدين، ووقت الفراغ، والسياسة. استخدمت الدراسة مقياس ليكرت الرباعي، حيث (١) يعني "غير مهم" و(٤) يعني "مهم جداً".

فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى	
٣,٩٩	٣,٩٥	٣,٩٥	٣,٩	العائلة
٣,٧٢	٣,٧٥	٣,٥	٣,٦٤	الأصدقاء
٣,٤٩	٣,٥	٣,٣	٣,٣	الدين
٣,٠٩	٣,٤	٣,٠٨	٣,٠٤	وقت الفراغ
٢,٧٨	٢,٦٧	٢,٧٧	٣	السياسة

الجدول ٧: أهمية بعض المؤشرات في حياتهم اليومية

ترتيب أهمية المؤشرات متشابه في المجموعتين. فإتني مؤشر العائلة في القمة، يليه الأصدقاء، والدين، ووقت الفراغ، والسياسة. سجّل فتیان وفتيات مدارس ثبات في المؤشرات الأربعة الأولى أهمية أعلى من طلاب المدارس الأخرى، لكن بالنسبة لمؤشر السياسة تساوت درجات الفتيات. وعلى العكس سجّل فتیان ثبات أهمية قليلة للسياسة. أيضًا، هناك اختلاف واضح في تقييم أهمية وقت الفراغ بين فتیان ثبات وفتیان المدارس الأخرى، حيث يعطي فتیان ثبات أهمية كبيرة لوقت فراغهم.

قام المشاركون في الجزء الثالث بتقييم أهمية العبارات التالية، واستخدم الدراسة مقياس ليكرت الرباعي، حيث (١) يعني "غير مهم" و(٤) يعني "مهم جدًا".

ما أهمية...	فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى
الثراء المادي؟	٣,٣٣	٣,٥٩	٣,٥	٣,٥٥
مساعدة شخص في محنة؟	٣,٨	٣,٥٩	٣,٦٩	٣,٥٨
اتباع فلسفة ذات مغزى في الحياة؟	٣,٥١	٣,٣٤	٣,٥٦	٣,٣١
أثر القيم الاجتماعية؟	٣,٠٨	٣,٠٨	٣,٠٥	٣,٠٩

الجدول ٨: أهمية بعض المواقف

يشير الجزء الثالث إلى أن الشراء المادي ومساعدة شخص في محنة أمران مهمان جدًا للمجموعتين، مع تسجيل طلاب ثبات درجة أعلى لمساعدة شخص في محنة ودرجة أقل للشراء المادي، مقارنة بطلاب المدارس الأخرى.

هناك بعض الاختلافات بين طلاب ثبات في تقييم اتباع فلسفة ذات مغزى في الحياة وأثر القيم الاجتماعية. سجّلت فتيات ثبات درجة أعلى من الأهمية مقارنة بفتيان ثبات. والأمر مشابه في أثر القيم الاجتماعية.

طُلب في الجزء الرابع رأي المشاركين في المواقف التالية المتعلقة بالفساد، سواء كان مُبررًا دائمًا، أو غير مُبرر، أو بين الاثنين. استخدمت الدراسة مقياس ليكرت الثلاثي، حيث (١) يعني "مُبرر" و(٣) يعني "غير مُبرر".

فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى	
٢,٨٢	٢,٧	٢,٥٩	٢,٦٦	التهرب من دفع الأجرة في وسائل النقل العامة
٢,٨٥	٢,٧٤	٢,٦٥	٢,٦٥	الغش في الضرائب إذا سنحت الفرصة
٢,٨٢	٢,٧٤	٢,٦٣	٢,٦٥	قبول رشوة في إطار مهام العمل

الجدول ٩: الحساسية تجاه الفساد

يتمتع طلاب المجموعتين بحساسية عالية تجاه الموضوعات المتعلقة بالفساد. ربما يرجع ذلك إلى الإجراءات المتبعة في الدولة، كما خلصت الدراسة.

طُلب من المشاركين في الجزء الخامس رأيهم في المواقف التالية، سواء كانت مُبررة دائمًا، أو غير مُبررة، أو بين الاثنين. استخدمت الدراسة مقياس ليكرت الثلاثي، حيث (١) يعني "مُبرر" و(٣) يعني "غير مُبرر".

فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيات ثبات	
٢,٦١	٢,٧٣	٢,٧٧	٢,٧٨	الإجهاض
٢,٤٩	٢,٥٥	٢,٤٨	٢,٦١	الطلاق
٢,٧٢	٢,٦٩	٢,٧٧	٢,٨٢	القتل الرحيم
٢,٨٨	٢,٨٥	٢,٨٦	٢,٩٣	الانتحار
٢,٦٢	٢,٦٨	٢,٧٥	٢,٧٨	تعدد الزوجات

الجدول ١٠: تبرير بعض المواقف

أظهر الاستطلاع أن طلاب ثبات قد سجّلوا آراء سلبية تجاه الإجهاض والطلاق وتعدد الزوجات. سجّل طلاب المدارس الأخرى آراء سلبية تجاه هذه الموضوعات أيضاً، ولكن ليس بقدر طلاب ثبات. جاءت آراء المجموعتين أقل سلبية تجاه القتل الرحيم والانتحار، لكن بالنظر إلى كل المجموعات، سجّلت فتيات ثبات أعلى الآراء السلبية، وسجّل فتيان ثبات أقل الآراء السلبية تجاه هذين الموضوعين.

تختلف نظرة الأشخاص إلى أنفسهم وطريقة تعاملهم مع العالم. طُلب من المشاركين إبداء مدى موافقتهم مع أو رفضهم للعبارات التالية حول أنفسهم. استخدم الدراسة مقياس ليكرت الرباعي، حيث (١) يعني "لا أوافق مطلقاً" و(٤) يعني "أوافق بشدة".

أرى نفسي...	فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى
مواطن عالمي	٣,٣٣	٣,٢٩	٣,٤١	٣,١٦
جزءاً من مجتمعي المحلي	٣,٣٥	٣,٠٥	٣,٠٢٥	٣,٠٦
جزءاً من الأمة القيرغيزية	٣,٧٩	٣,٤٦	٣,٦٧	٣,٦١
جزءاً من أوراسيا	٣,٢٢	٢,٨٧	٣,٣١	٢,٩
فرداً مستقلاً	٣,٥٤	٣,٤٥	٣,٥٦	٣,٥٥

الجدول ١١: رؤية الهوية الشخصية

يبين جدول فتيات ثبات/المدارس الأخرى أن هناك اختلافًا في إحساس الانتماء إلى المجتمع المحلي، والأمة القيرغيزية، وأوراسيا. يمكننا القول إن إحساس فتيات ثبات بالانتماء إلى العالم مشابه لغيرهن من الفتيات (تسجل فتيات ثبات درجة أعلى في جزء المواطن العالمي). يبين جدول فتيان ثبات/المدارس الأخرى أن هناك اختلافًا في إحساس الانتماء في كل المجموعات. طُلب من المشاركين في الجزء الثامن التعبير عن مدى فخرهم بأنهم قيرغيزيون. استخدمنا مقياس ليكرت الرباعي، حيث (٤) يعني "فخور جدًا" و(١) يعني "غير فخور مطلقًا".

فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى
٣,٩٠	٣,٦٢	٣,٧٦	٣,٦٦

هل تفخرين بأنك قيرغيزية؟

الجدول ١٢: الفخر بالمواطنة القيرغيزية

تبين النتائج أن كلاً من فتيات وفتيان ثبات أكثر فخرًا من غيرهم. وأخيرًا سألنا المشاركين عن اللغة التي يستخدمونها عادة في المنزل.

فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى
٦٥,٣٣	٥٠	٥٧,٢٤	٥٢,٨٧
١٧,٣٣	٢٠,١٨	١٥,١٣	٢٠,٦٩
١٤,٦٧	٢٥,٤٤	١٧,٧٦	١٨,٣٩
٢,٦٦	٤,٣٨	٩,٨٧	٨,٠٥

الجدول ١٣: اللغة المستخدمة في المنزل، في صورة نسبة مئوية

يؤكد جزء اللغة المستخدمة في المنزل النتائج السابقة الخاصة بإحساس الفخر بالمواطنة القيرغيزية.

مجالات البحث في المستقبل

البيانات المقدمة هنا غير تفاعلية ومحدودة في طبيعتها، لأنها تعتمد على آراء وتصورات الطلاب التي جمعناها. وبالتالي فقد يكون من المفيد إجراء أبحاث على نطاق أوسع لتحديد أثر هذه المدارس على شكل الحياة اليومية. تبين الدراسة أن مدارس ثبات تولي أهمية كبرى لقيم الأمانة، والاحترام، والولاء، وتحمل المسؤولية، والتعاون، والتسامح. ولتحديد مدى نجاحها في غرس هذه القيم، تدعو الحاجة إلى إجراء مزيد من الدراسات. على سبيل المثال، قد يفيد إجراء دراسة لتحديد السمات الشخصية للسجناء في قيرغيزستان.

ومن مجالات البحث الأخرى التي تستحق الدراسة العائلات التي أسسها خريجو مدارس ثبات. تبين هذه الدراسة أن المدارس تركز على أهمية العائلة وتسجل آراء سلبية عالية بشأن الطلاق. يمكن إجراء دراسة جديدة لاختبار هذه الفرضية. يمكن أيضًا مقارنة بعض الأزواج من خريجي ثبات وغيرها من المدارس. ربما يمكن إدراك تأثير مدارس ثبات على القيم بشكل أفضل عند إجراء دراسة على هذه العائلات.

الاستنتاجات

تزاول مدارس ثبات أعمالها في أرجاء قيرغيزستان منذ أكثر من ١٥ عامًا. وبفضل جهودها وأنشطتها، حصل آلاف الطلاب القيرغيز على التعليم بمستوى عالٍ. وقد أسهم نجاح المدارس في المسابقات العلمية المحلية والدولية في ترسيخ سمعتها الطيبة في البلاد. كما تبذل مدارس ثبات جهدًا كبيرًا لتنمية شخصية طلابها.

يدعم التعليم المقدم في هذه المدارس جهود التحول الديمقراطي والعولمة في البلاد. يتعود الطلاب منذ سنواتهم الأولى على الممارسات الديمقراطية، ويتعرفون على العالم الواسع من خلال معلمهم الأجانب (أتراك في الأغلب)، ويستخدمون الإنترنت، ويتعلمون اللغات الأجنبية، ويشاركون في الأولمبياد العلمية على الساحة الدولية.

وأخيرًا، توفر مدارس ثبات للطلاب التعليم الجيد والأخلاق الحميدة، ولقيرغيزستان مواطنين متعلمين أوفياء.

الملاحق

العمر	فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى	الإجمالي
<١٩	٢	٧	٢	٧	١٨
١٩	١١	١١	٩	٦	٣٧
١٨	٤٧	٦٣	٧٨	٤٤	٢٣٢
١٧	١٥	٢٩	٥٥	٣٠	١٢٩
١٧>	٠	٤	٨	٠	١٢
الإجمالي	٧٥	١١٤	١٥٢	٨٧	٤٢٨

مجموعة العينة	فتيات ثبات	فتيات مدارس أخرى	فتيان ثبات	فتيان مدارس أخرى	الإجمالي
مجموعة العينة	٧٨	١٥٢	١٨٧	١١١	٥٢٨
مجموعة الاستطلاع	٧٥	١١٤	١٥٢	٨٧	٤٢٨

الجدول ١٤: السمات الديموغرافية للطلاب المشاركين

مجموعة العينة	٢٦٥	مستوى الثقة	٩٩٪
مجموعة الاستطلاع	٢٦٧	مجال الثقة	٣,٢٥

الجدول ١٥: حسابات حجم عينة طلاب مدارس ثبات (CRS، ٢٠٠٧)

مجموعة العينة	٢٦٣	مستوى الثقة	٩٩٪
مجموعة الاستطلاع	٢٠١	مجال الثقة	٤,٤٣

الجدول ١٦: حسابات حجم عينة طلاب المدارس الأخرى (CRS، ٢٠٠٧)

الهوامش

- (١) تحتفظ مؤسسة ثبات بسجلات العاملين بحسب جنسيتهم. يطلق على مواطني تركيا الأتراك، ومواطني قيرغيزستان القيرغيز، ومنهم الروس والأوزبك والكوريين والمجموعات العرقية التركية الإثنية.
- (٢) الأولمبياد العالمية للعلوم فعاليات تنظمها مؤسسة اليونسكو بانتظام. الأولمبياد الدولية فعاليات تنظمها مؤسسة أو دولة أو غيرها. على سبيل المثال، مسابقة مشروع الرياضيات التي تنظمها (KATEV DARIN) في كازاخستان من هذا النوع.
- (٣) تتخذ هذه الاجتماعات عادة شكل زيارة منزلية. تشجع مؤسسة ثبات المعلمين على زيارة أولياء الأمور في المنزل للاطلاع على البيئة المنزلية للطلاب.

شيريل سانتوس هاتشيت

دكتوراه المناهج وطرق التدريس جامعة ولاية كانساس، عضو هيئة تدريس في كلية التربية، جامعة شمال تكساس في دالاس. أستاذة فخرية في مجال التعليم ثنائي اللغة. تقاعدت في عام ٢٠٢٠، شغلت منصب عميد التعليم في (TTU) جامعة تكساس التقنية و(CSUB) جامعة ولاية كاليفورنيا، بيكرسفيلد. قبل أن تصبح العميد المؤسس في (UNTD) جامعة شمال تكساس في دالاس. مدافعة عن التنوع اللغوي والثقافي وناشطة مجتمعية.



ضرورة إصلاح التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية: الدروس المستفادة من فتح الله كولن

يواجه النظام التعليمي ومقوماته الأساسية تحديات كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية. لكنني لا أرى تحدياً أهم لبقاء الأمة من تعليم الطلاب التواصل مع جانبهم الإنساني بوصفهم أفراداً يعيشون في أمة متعددة الثقافات واللغات وسط عالم دائم التغير. لا أحد ينكر أننا نعيش في عالم مترابط، حيث قد تؤدي الأفعال في أحد أطراف العالم إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي في جميع أنحاء العالم، وتدمير أنظمة بيئية، وإشاعة حالة من عدم الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، التي تترك البشر في معاناة كارثية، وهو ما نرى آثاره بصورة يومية. لا يكفي قياس التميز التعليمي وفقاً للمعايير الأكاديمية ونتائج الاختبارات فحسب. إن إغفال الرؤى متعددة الثقافات، ومهارات التواصل، والسلوكيات التي تؤهل الطلاب للعيش والدراسة والعمل في عالم متغير يحكم على شبابنا

ي

بحياة الجهل والضحالة. تستشهد هذه الدراسة بالنجاحات التي حققتها المشروعات التعليمية المستوحاة من فكر كولن، وتناقش الحاجة إلى تحديث المناهج في نظام التعليم الأمريكي، وأفضل سبل تطبيق فلسفة فتح الله كولن وأفكاره في مجال التعليم. كما تتناول الدراسة تطبيق منهج الحوار بين الثقافات والأديان، لنشر السلام والعدل والتناغم، في سياق هويتنا الوطنية وأسسنا التعليمية.

من واقع عملي معلمة في مدرسة حكومية أمريكية، وأستاذة في الجامعة، وعميدة لكلية التربية، عايشة على مدار العقود الأربعة الماضية تجارب تدريس الطلاب بنظام K-16 في أماكن عديدة مثل نيويورك، وتكساس، وكاليفورنيا، وكانساس، وجزر العذراء الأمريكية. أكتب هذه الدراسة من القلب، ومن منطلق خبرتي البحثية في مجال التعليم ثنائي اللغة/متعدد الثقافات. إذا قلنا إن النظام التعليمي ومقوماته الأساسية تواجه تحديات كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نبسط الأمور. لكنني لا أرى تحدياً أهم لبقاء الأمة من تعليم الطلاب التواصل مع جانبهم الإنساني بوصفهم أفراداً يعيشون في أمة ديمقراطية متعددة الثقافات واللغات وسط عالم دائم التغير. الواقع أن إصلاح المناهج وتحقيق النتائج المرجوة من التعليم في أي أمة مرهون بالنخب الاقتصادية والسياسية التي تتحكم في التمويل والسياسات. يرتبط التعليم بفرص التوظيف، وإتمام التعليم العالي، ومستوى المعيشة، وغيرها من المتغيرات. لهذا من المستبعد على أمة كالولايات المتحدة، تطبق نظام تعليم لا مركزي يمنح كل ولاية حرية إدارة مدارسها بصورة مستقلة، أن تتفق بالإجماع على منهج واحد وطريقة تدريسه. لكن بناء على كتابات ووصايا الفيلسوف والمفكر الإسلامي التركي البارز فتح الله كولن، أشعر بضرورة تأييد نشر مهارات التفكير العليا في جميع المؤسسات التعليمية في الولايات المتحدة. هناك حقائق بديهية عامة، بغض النظر عن أي اختلاف في الآراء السياسية. من البديهي أن يدرك كل الطلاب أننا نعيش في عالم مترابط، وأن نتعلم جميعاً أن نكون ضيوفاً مسؤولين في تعاملنا مع أرضنا، وأن نتعلم احترام التنوع الإنساني بكل أبعاده. لا أحد ينكر أننا نعيش في عالم مترابط، حيث قد تؤدي الأفعال في أحد أطراف العالم إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي في جميع أنحاء العالم، وتدمير أنظمة بيئية، وإشاعة حالة من عدم الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، التي تترك البشر في معاناة كارثية، وهو ما نرى آثاره بصورة يومية. إن تناقل معارف الماضي والتغلب بذكاء على تحديات المستقبل بهدف بقاء الجنس البشري يتيح لنا الحياة الأبدية على هذا الكوكب. وفي النهاية، يجب أن تكون الحكمة جوهر ما نسعى إلى تحقيقه بالتعليم. وأؤمن بحاجتنا العاجلة إلى إقامة حوار وطني ودولي بين قادة مجتمعاتنا التعليمية.

على سبيل المثال، أخشى في عالم ما بعد ١١ سبتمبر أن يتعلم الأطفال معاداة الآخرين بناء على التصورات النمطية والدعاية السياسية. من الضروري بشدة أن يتعلم الأطفال الاهتمام بضحايا حوادث التعصب والوحشية، والحروب الخاسرة بوجه عام. لا بد أن يكون التفكير بعمق في هذه القضايا جزءاً من المنهج الذي يتعلمه كل طالب. (كون، ٢٠٠١: ٢)

بحسب فهمي وتأويلي لأعمال فتح الله كولن، يجب ألا يهدف التعليم إلى حشو عقول الأطفال وقلوبهم كما يملأ المرء آنية فارغة، بل أن يُعنى بجانبهم الإنساني والروحي وذكائهم الفطري، لتوجيه مجتمعاتنا العالمية المترابطة نحو نشر السلام والعدالة والرخاء. يقول كولن (٢٠٠٢):

"الفهم هو الواجب والهدف الأساسي لحياة الإنسان. وجهود تحقيق ذلك، المعروفة باسم التعليم، هي عملية متقنة نصل من خلالها -على الصعيد الروحاني والفكري والجسماني- إلى المرتبة المخصصة لنا بوصفنا أفضل المخلوقات" (ص ٥٨).

يستطيع مفكرون وكتاب كثر حول العالم كتابة كلمات تترك أثراً في النفوس، لكن قلة قليلة منهم ترتقي كلماتهم بالآخرين إلى مستويات غير مسبوقة من الفهم، وتدفعهم إلى أخذ خطوات إيجابية. يقول كولن (١٩٩٧) في كتاب "درر الحكمة": "إذا أراد أي شعب أن يؤمن مستقبلاً، فعليه تسخير كل جهد ممكن لتربية أطفاله كما يفعل مع مشكلاته الأخرى. في حين قد تذهب الجهود المكثّسة لقضايا كثيرة سدى، فإن أي جهد مبذول لتنشئة جيل الشباب يرتقي بهم إلى مكانة البشر. ويصبح هؤلاء الأشخاص معيناً لا ينضب ومصدراً للدخل. (ص ٣٧)

تكشف هذه النصيحة أفكار كولن حول أهمية الاستثمار في الأطفال والشباب لتأمين مستقبل أي أمة. وقد تعلمتُ الكثير منذ ذلك الحين حول ترك أثر إيجابي وتأثير رؤيته الملهمة. فلنأخذ على سبيل المثال مؤسسة الصحفيين والكتاب (JWF)، المؤسسة الأم لمنصة الحوار بين الثقافات؛ فهي تشجع الحوار بين أتباع الأديان ونشر السلام والتفاهم في جميع أنحاء العالم. كما ظهرت مدارس كثيرة حول العالم مبنية على فلسفة كولن التعليمية الملهمة. صحيح أن كولن لا يمول هذه المؤسسات أو يديرها، لكن فلسفته التعليمية هي الأساس والقوة المحركة لكل هذه الجهود. ويُعتقد أن مثل هذه المؤسسات منتشرة في أماكن كثيرة حول العالم. وتضم مدارس في الجمهوريات التركية في آسيا الوسطى ضمن دول الاتحاد السوفيتي السابق: كازاخستان، وقرجيزستان، وتركمانستان، وأوزبكستان، والبلقان، وجنوب شرق آسيا، وإفريقيا، وروسيا، وأوروبا الشرقية، وأستراليا، والولايات المتحدة. وقد أغلقت بعض المدارس في

أوزبكستان نتيجة خلاف سياسي مع تركيا. ويُعتقد أن هناك نحو ٧٠٠ مدرسة مبنية على فكر كولن في جميع أنحاء العالم. (وود هول، ٢٠٠٥؛ آسيا الوسطى: مدارس فتح الله كولن التبشيرية، ٢٠٠٢). ومن منطلق رغبتني في إصلاح التعليم في الولايات المتحدة، أرى أن هناك دروسًا مستفادة من أعمال فتح الله كولن، يمكن بل يجب تطبيقها على المدارس في أمريكا. العديد من مدارس وأكاديميات كولن مؤسسات خاصة، يحق لها طرد الطلاب الذين لا يلبون المعايير المتوقعة. ومن بين هذه المدارس الخاصة مدرسة بروكلين أميتي ومدرسة بايونير في نيويورك. لكنني أو من أن كل المدارس الحكومية، بما فيها المدارس الدستورية الحكومية التي تستقبل مختلف الطلاب، تستطيع الاستفادة من هذا النموذج والأسس الفلسفية لمدارس كولن.

نحتاج إلى غرس أربعة مبادئ تحديداً في المدارس الأمريكية بصورة عاجلة: الحوار بين الأديان/الثقافات، وتربية الشخصية، وإشراك الوالدين وتثقيفهم، والحرص على تكامل المواد العلمية والروحانية. طبقت مدارس أمريكية كثيرة بعض هذه المبادئ، لكن ما زال أمامنا الكثير. بدأت محاولات تربية الشخصية بهدف مساعدة الطلاب أن يكونوا مواطنين أفضل، وأن يتركوا أثرًا إيجابيًا في مجتمعهم. لكن إحصاءات الجريمة الوطنية تكشف "وقوع نحو ٣ مليون جريمة سنويًا داخل حرم المدارس أو قريبًا منه؛ أي بواقع ١٦ ألف جريمة لكل يوم دراسي أو جريمة كل ٦ ثوان. ووجدت دراسة حديثة عن العنف الأسري أن عددًا كبيرًا من فتيان المدارس الثانوية يرون أنه لا بأس أن يضرب الفتى صديقته إذا أغضبه" (لماذا يهتم الأطفال؟ ص ١). يجب أن يكون الوالدان والعائلة جزءًا لا يتجزأ من حياة الطالب في المدرسة وفي المنزل. لكن هذا الرأي مخالف لواقع ملايين الطلاب الذين يبقون في المنزل وحدهم حتى عودة والديهم، أو الذين تعرض والداهم للسجن، أو أبناء والدين قُصر، أو الذين يعيشون مع أجداد مسنين أو مع إخوة وأخوات. وفي النهاية يواجه المعلمون ومديرو المدارس والموظفون الحكوميون الأمريكيون مشكلات اجتماعية خطيرة تؤثر على عدد كبير من شباب أمتنا. لهذا حري بالقطاعين الحكومي والخاص الاستفادة من نموذج فتح الله كولن والتزامه بالاستثمار في التعليم ومحاولة رفع مستواه. نشرت وزارة التربية والتعليم الأمريكية مؤخرًا نتائج دراسة بعنوان "التقييم الوطني للتقدم في التعليم"، تشير إلى أن طلاب المدارس الحكومية في الولايات المتحدة "على نفس مستوى طلاب المدارس الخاصة أو أفضل في بعض الفئات مثل رياضيات الصف ٤... عند تعديل الدرجات بناء على السمات الاقتصادية الاجتماعية، والعرقية، وغيرها" (زير، ٢٠٠٦: ١). غير أنه بالنظر بعمق إلى ما يتم قياسه و"الممارسات المثلى" للحصول على درجات عالية،

لا تُجمع سوى البيانات الكمية حول المادة. وليس هناك ذكر لأثر المتغيرات النوعية على الجانب العاطفي، والتوجهات العرقية، وتطور الشخصية، والعلاقات الإنسانية، والبروتوكول متعدد الثقافات وما شابه (فيادرو، ٢٠٠٦: ١٢).

لا شك أن التعليم أملنا المشترك لتحقيق التنوير الروحاني والتطور الفكري لعائلتنا البشرية. يوفر التعليم ملاذًا آمنًا للأشخاص من مختلف الأعمار، والأعراق، والثقافات، والأديان، والعقائد، واللغات، والأصول الوطنية، والجنسيات، والمستويات الاجتماعية الاقتصادية، وأنواع الإعاقات وغيرها، لنتجمع فيه معًا تحت "راية" الحرية الفكرية والروحانية، لاستكشاف معنى حياتنا ورسم أحلامنا من أجل غد أفضل لنا ولذريتنا. يجب أن تنتبه العائلات التي ترسل أطفالها إلى مدارس حكومية أو خاصة لما يتعلمه أطفالهم، وأن يدققوا النظر فيما يتعلمونه حول جوانب إنسانيتهم، وألا يقتصر اهتمامهم بالمواد المعرفية التي يسهل حفظها واسترجاعها في الاختبار. على سبيل المثال، يجب أن نشغل جميعًا بما يتعلمه الأطفال عن ثقافتهم وثقافة الآخرين، والصراعات التاريخية، والإسهامات المقدمة للبشرية. ماذا يتعلم الأطفال في أمريكا مثلاً بشأن قيمتهم الذاتية وكرامتهم، وقيمة وكرامة الآخرين؟ هل يتعلم أطفالنا التواصل برغم الحواجز العرقية والثقافية؟ هل يتعلمون إدراك حقيقة التصورات النمطية والأساطير والتوجهات الراسخة في تاريخنا الوطني حول قيمة التنوع الثقافي واللغوي؟ هل يشجعون على فهم صراعات الفئات المضطهدة في جميع أنحاء العالم، وصراعات الأمريكيين الذين يحملون على عاتقهم ميراث العنصرية والحرمان الاقتصادي؟ هل يهدف التعليم الأمريكي لغرس الفضول الفكري والتفكير النقدي والتوجهات الإنسانية في نفوس الطلاب؟ هل يهدف تعليم أي أمة لذلك؟

اكتشفتُ بعض أوجه الشبه المثيرة للاهتمام بالفعل بين وصف التنوع الثقافي في الأناضول القديمة وفي الولايات المتحدة. يناقش كولن (٢٠٠٤) في كتاب "الحب وجوهر الإنسانية" كيف أسهمت الأعراق والأديان والآراء العالمية المختلفة في إثراء الثقافة العثمانية وتطويرها. يقول: "أرى أنه يجب الانتفاع من هذا الثراء الثقافي وتقديره في المستقبل باعتباره كنزًا لا مثيل له ومصدرًا للقوة". (ص ٨٠) جاء تفرد الثقافة التركية نتيجة ثراء هذا المزيج الغني من الأشخاص والتسامح مع فكرة التنوع. أصبح كولن قائدًا عالميًا للحوار بين الأديان والثقافات. وهو يؤكد أن الخلاف قد ينجم عن التنوع في المجتمع، الذي يراه نقطة ضعف بدلاً من نقطة قوة. يقول كولن إن الأشخاص قد يفكرون بطريقة مختلفة ويعتقدون آراء متباينة، لكننا "نطمح جميعًا إلى بناء عالم خال من الصراعات والنزاعات يسوده التسامح والحوار". (ص ٨١)

يمتلئ تاريخ الولايات المتحدة بمحاولات إرساء الوحدة والوعي الوطني بين مزيج واسع من الأشخاص الذين حملوا الجنسية الأمريكية باختلاف ظروفهم. لا بد أن نتعامل بحذر وحساسية مع ميراث العبودية، ومشكلات الحدود مع المكسيك، والهجرة المستمرة، والارتحال، وضم الأراضي، والحروب، ومجموعات الكراهية مثل كلان، وغيرها من المجموعات التي قد تظهر نتيجة الأحداث الجارية.

الثابت الوحيد الذي ألاحظه في التعليم الأمريكي هو غياب الحوار الحقيقي بين الثقافات وأي محاولة جادة لغرس قيم الفهم والتقدير في نفوس الطلاب حول طبيعة الحياة في مجتمع متعدد الثقافات واللغات في عالم مترابط. لم يتم إلغاء الفصل العنصري في المدارس الأمريكية حتى عام ١٩٥٤ بصدور قرار المحكمة العليا في قضية براون ضد مجلس التعليم. وبدأ البيض والسود يتعلمون معًا لكنهم لم يتعلموا تقبل أحدهم الآخر معنويًا. وظلت الآراء والمعتقدات المغلوطة راسخة لسنوات طويلة. يجب أن تسعى أي أمة مثل الولايات المتحدة تحمل هذا الميراث من الأضطهاد لتغيير هذا النمط، من خلال بذل الجهود الواعية لتعليم الأشخاص محاولة فهم أحدهم الآخر وتقديره. وكما تعلم الشعب الكراهية يجب أن يتعلم الحب. فتجاهل العلة لن يشفيها. ترى ماذا ستتعلم الأجيال القادمة من أحدث صراعات الشرق الأوسط على الساحة اللبنانية والإسرائيلية إذا لم نعلمهم شيئًا آخر؟

والآن بعد مرور أكثر من ٢٤٠ عامًا على الحرب الأهلية، ما زال الآباء الأفريقيون الأمريكيون يخافون مما سيواجهونه في مدارسنا. أود أن أشارككم قصيدة جميلة بعنوان "أجنبي يا طفلي" بقلم رونالد كولمان (منشورة في هالي، ١٩٨٦).

أجنبي يا طفلي

ماذا تعلمت اليوم؟

هل أخبرك أحد كيف تواجه الغد؟

هل أخبرك أحد لماذا يوجد أشخاص لا يعرفونك؟

هل عرف أحد من أنت؟

هل عرف أحد أنك تحمل دماء إفريقيا في عروقك أم هل تظاهروا بأنهم لا يرون لونك

وبالتالي ينكرون قيمته؟

ماذا تعلمت؟

هل شرح أحد معنى الحرية؟

هل شرح أحد معنى العنصرية؟

هل شرح أحد معنى الحب؟

هل عرف أحد أي شيء عن هذه الأشياء؟

هل عرف أحد أي شيء؟

ماذا تعلمت اليوم؟ (ص ١٥١).

التعليم الرسمي الذي نراه في مؤسساتنا الحكومية اليوم لا يوفر الوقت أو المساحة النفسية لتنمية مهارات التفكير المنطقي والحدس الروحاني لأطفالنا، وهي مهارات لازمة للتفكير بانفتاح ونزاهة في الوضع الإنساني المعقد وعلاقته بالمنهج الدراسي. لا بد أن يصر الآباء وأفراد الأسرة على وضع منهج متعدد الثقافات، مصمم لتعليم الأطفال احترام التنوع الإنساني وتقديره، والإسهامات التي يقدمها كل فرد منا للحضارة الإنسانية.

يقول كولن: "يجب احترام أفكار الآخرين ومشاعرهم لأنهم "بشر"، ويجب قبول الجميع على اختلاف ظروفهم وأفكارهم. وهذا التصرف من صميم الإسلام الذي يوليه أهمية كبرى. ولهذا، أؤمن شخصيًا بضرورة نشر أفكار مثل "السلام الاجتماعي والتسامح" لتحقيق السلام والسعادة بين البشر". (ص ٨٣). تعتنق الأديان الأخرى هذه القيم أيضًا، لكن الأطفال لا يتعلمون شيئًا حول تشابه التعاليم في مختلف الأديان. يجب تضمين هذه الأفكار في المناهج حول العالم، ولا سيما في أمم مثل الولايات المتحدة التي تتسم بالتعددية في الأصل.

شهدت الستينيات ظهور توجه ديمقراطي ينادي بالمساواة التعليمية والتعددية الثقافية، كان من نتائجه تجديد المناهج والتركيز على العدالة الاجتماعية. وللأسف تعرضت هذه الحركة لرد فعل عنيف منذ عام ٢٠٠٠، وأحجمت القوى السياسية عن اتخاذ أي إجراء إيجابي أو توفير فرص تعليمية متكافئة. لكن ما زالت هناك منظمة واحدة؛ الرابطة الوطنية للتعليم متعدد الثقافات، تواصل المناداة بتغيير المنهج لدعم المساواة في التعليم. تعرّف المنظمة التعليم متعدد الثقافات على موقعها كما يلي:

"التعليم متعدد الثقافات فكرة فلسفية مبنية على مثل الحرية، والعدالة، والمساواة، وتكافؤ الفرص، والكرامة الإنسانية المنصوص عليها في وثائق عديدة، مثل إعلان الاستقلال الأمريكي، ودستوري جنوب إفريقيا والولايات المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تتبناه الأمم المتحدة. وهو يؤكد حاجتنا إلى إعداد الطلاب لتحمل مسؤولياتهم في عالم مترابط. ويوضح الدور الذي تستطيع المدارس أن تلعبه في غرس التوجهات والقيم اللازمة لإرساء

مجتمع ديمقراطي. كما يحترم الاختلافات الثقافية ويعترف بالتعددية التي يجسدها الطلاب ومجتمعاتهم ومعلموهم. ويتحدى كل أشكال التمييز في المدارس والمجتمع من خلال نشر المبادئ الديمقراطية للعدالة الاجتماعية".

أرى أنه يمكن دعم الفلسفة الأساسية للرابطة الوطنية للتعليم متعدد الثقافات بتأييد جهود الحوار بين الأديان والثقافات، التي يقوم بها أولئك الراغبون في نشر أعمال كولن. وأنا أو من بضرورة نشر أفكاره وكتابه بين أوساط المربين ذوي التوجهات المشتركة لضمان وحدة الهدف العالمي الأكبر، ونفع المربين الأمريكيين غير المطلعين على أعمال كولن التي تهدف إلى السلام العالمي، والكرامة الإنسانية، والتنمية البشرية.

ومن السمات الأخرى المهمة لفلسفة كولن التعليمية أنه لا داعي لفصل العلوم والتكنولوجيا عن الروحانيات أو الإيمان. وبالتالي هناك تركيز شديد على تعليم التكنولوجيا والعلوم في هذه المدارس المنتشرة حول العالم. تشارك مدارس كولن في معارض ومسابقات العلوم في جميع أنحاء العالم، وكثيرًا ما تحقق النجاح فيها. ومن الأمثلة التي يُحتذى بها مدرسة ويلو الدولية (أو الكلية التركية) في موزمبيق. فازت المدرسة بالمركز الثاني في مسابقة مشروع الكمبيوتر الدولي المقامة في رومانيا (أيديمير، ٢٠٠٦). كما شاركت المدارس التركية في المملكة المتحدة في معرض العلوم (3rd Axis) الذي تنظمه مؤسسة أكسس التعليمية ومؤسسة لايت هاوس التعليمية (سمر، ٢٠٠٦). هناك نماذج أخرى كثيرة للتميز في العلوم في مدارس كولن. تتوافق أفكار كولن حول دور العلوم وعلاقتها بالقوانين الإلهية توافقًا تامًا مع مجمل آرائه في التعليم. يحصل القارئ عند قراءة كتاب "أساسيات الدين الإسلامي" (٢٠٠٥) على رؤية واضحة بشأن العلاقة المعقدة بين العلوم والخلق. يشجع كولن القارئ ألا يخشى العلوم، بل أساليب استغلالها. فيقول: "...العالم الطبيعي ككتاب ندرسه، ومعرض نشاهده، ووديعة نتتفع بها". (ص ٢٧٢) ويقول أيضًا إن العلم يكشف لنا هدف الخالق. (ص ٢٧٢) توجد هذه الأفكار في كتابات أخرى، وهناك ما يدعمها في الأديان الأخرى. على سبيل المثال، أحد مبادئ الديانة البهائية انسجام الدين مع العلم. يقول بول لامبل (١٩٩٩) أحد الكتاب البهائيين المعاصرين: "الشخص الذي يتبغى الحكمة يستمد التوجيه باستمرار من نظام المعرفة الثنائي القائم على العلم والدين. سقطت البشرية عدة مرات على مر التاريخ في شرك الخرافات والتعصب من جهة، والنزعة المادية والنسبية الأخلاقية من جهة أخرى. لكن الحقائق المصاحبة لهذين النظامين تساعد على تفادي هذه الأخطار". (ص ١٦-١٧)

من المثير للسخرية انتشار جدل عنيف في الولايات المتحدة اليوم حول قيمة العلم والنظريات العلمية مثل نظرية التطور. لم يهتم نظام التعليم الأمريكي بمحاولة التوفيق بين العلم والدين. ومنذ عام ١٩٢٥ على سبيل المثال، واجهت السياسات المعادية للتطور تحديات كثيرة بدأت بمحاكمة سكوبز (التطور والتعليم والقانون، ٢٠٠٥). وعلى الجانب الآخر، ثار جدل شديد في الثقافة الأمريكية حول ما يُعرف باسم "فصل الكنيسة عن الدولة"، الذي أدى إلى وقوع أفعال شبه متعصبة من أولئك الذين لا يريدون أي إشارة لله أو الدين في المدارس، وأنكروا حق الطلاب في الصلاة صامتين، أو ارتداء الزي الثقافي المتوافق مع معتقداتهم، لدرجة شن هجوم عنيف على العلم بوجه عام. كتب ليون لين (١٩٩٧، ١٩٩٨) مقالاً مفيداً حول مهاجمة العلم قال فيه: وجد اليمينيون والأصوليون الدينيون الدعم في القوى السياسية الذي ظهرت في السنوات الأخيرة. فيهاجمون أنصار التطور، ويعارضون فكرة تطبيق نظام مدرسي علماني لتمويل حكومي معارضة متزايدة، أثناء محاولة التصدي لفكرة فصل الكنيسة عن الدولة بموجب الدستور الأمريكي، ووضع بصمتهم الدينية الخاصة على المناهج المدرسية. (ص ١) وهكذا تندخل السياسة حتى في مجال الدين والعلم، وتجعل فكرة تقبل التنوع سبباً لسوء الفهم. وعلى الجانب الآخر، أقامت عائلة إحدى خريجات مدرسة ثانوية في لاس فيجاس دعوة جديدة بسبب اقتطاع جزء من كلمتها بسبب الإشارة إلى المسيح والدعوة إلى ديانتها (إحدى الخريجات تقاضي مدرسة في نيفادا لاقتطاع جزء من كلمتها، ٢٠٠٦).

لست متأكداً إن كانت توجهات الشخص حول العلم تفرض القيود على اختيار تخصصه الأكاديمي في الولايات المتحدة، لكن من الملاحظ أن كثيراً من أساتذة الهندسة والعلوم الصعبة في الجامعات الأمريكية كانوا طلاباً دوليين قبل توظيفهم. كذلك هناك نقص شديد في معلمي العلوم والرياضيات في الولايات المتحدة، وتكشف الاختبارات أن طلاب المدارس الحكومية لا يبرعون في هذه التخصصات. إن التفوق الأكاديمي، والاستثمار في الشباب، والاهتمام بمجتمعنا، وبمستقبل الديمقراطية كلها أمور على المحك إذا لم يدعم الشعب مدارس بحماس وشغف.

من الضروري أن يراقب الوالدان فهم أطفالهم. لا يكفي أن تسأل طفلك يوماً ماذا تعلم، بل اسأله عن رأيه فيما تعلمه أو انطباعه عما فعله في المدرسة، لتحصل على رؤى مفيدة حول التوجهات والتصورات التي يكونها حول المجتمع، والماضي، والحاضر، والمستقبل، وعن نفسه، وعائلته، ومعتقداته، وقيمه.

بهذه الطريقة، تجد العائلات نقطة انطلاق تبدأ منها الحوار مع أطفالها بشأن أفكارهم وتفسيرهم للحياة والواقع. حينها سيتمكنون من مساعدتهم على تشكيل معاني الأشياء بأنفسهم، وتعلم التفكير النقدي المستقل، والتحلي بالثقة في النفس، والتأكد أن أفكارهم ذات قيمة ومغزى.

وفي الختام، هناك الكثير يُقال ويُكتب حول هذا الموضوع باعتراف الجميع، لكن نطاق هذه الدراسة لا يتسع. أمل أن تُقام حوارات بين الثقافات وأن يتم التركيز على ما يحتاج الطلاب والشباب في الولايات المتحدة إلى معرفته عن الآخر وعن العالم الذي نعيش فيه. لا بد أن يكون التعليم في قمة أولويات أمريكا. لم يعد هناك متسع من الوقت أمام جموع الناخبين المثقفين لتحقيق السلام والحفاظ على الديمقراطية.

قائمة المراجع

- إتش آيديمير (٢١ مايو ٢٠٠٦)، المدرسة التركية في موزمبيق تفوز بأول ميدالية في العلوم.
- "آسيا الوسطى: مدارس فتح الله كولن التبشيرية"، (١١ أبريل ٢٠٠٢)، النشرة الإخبارية.
- "التطور والتعليم والقانون"، ٢١ سبتمبر ٢٠٠٥.
- فتح الله كولن (١٩٩٧)، "درر الحكمة"، (ترجمة علي أونال)، فيرفاكس، فرجينيا، دار نشر ذا فاوتنن.
- فتح الله كولن (٢٠٠٢)، "مؤيد الحوار"، جمع علي أونال وألفونس ويليامز، فيرفاكس، فرجينيا، دار نشر ذا فاوتنن.
- فتح الله كولن (٢٠٠٢)، "مقالات ورؤى وآراء"، جمع دار نشر ذا فاوتنن، راذرفورد، نيويورك: مؤسسة ذا لايت.
- فتح الله كولن (٢٠٠٤)، "الحب وجوهر الإنسانية"، (ترجمة إم أونال وإن كورماز). أعده للنشر فاروق تونجر، إسطنبول، تركيا: منشورات مؤسسة الصحفيين والكتاب.
- فتح الله كولن (٢٠٠٤)، "نحو حضارة عالمية"، (ترجمة إم أونال وإن هاليوغلو وإم فايكوتشوك محميدوغلو، جيه إل كندور واتش يسيلوفا (تحرير النص الإنجليزي)، سومرست، نيويورك: مؤسسة ذا لايت.
- جيه إي هالي (١٩٨٦)، "الأطفال السود: أصولهم وثقافتهم وأساليب تعلمهم" (نسخة مراجعة)، بالتيمور، ماريلاند: مطبعة جامعة جونز هوبكنز.
- إيه كون، (٢٠٠١)، (ويتتر).
- بول لامبل (١٩٩٩)، "بناء عقلية جديدة: تأملات حول الفرد والمؤسسات والمجتمع"، شاطئ الريفير، فلوريدا: بالابرا بابليكيشنز.
- إل لين (١٩٩٧، ١٩٩٨)، (ويتتر).
- كيه سمر (١٦ مايو ٢٠٠٦)، "مدارس تركية تقيم معرض العلوم في لندن"، تم الاسترجاع يوم ٢٩ مايو.
- "إحدى الخريجات تقاضي مدرسة في نيفادا لاقتطاع جزء من كلمتها (١٥ يوليو ٢٠٠٦)، جريدة لوبوك أفالانشي، ص. ب. ٤.
- دي فياديرو (١٤ يوليو ٢٠٠٦)، "الممارسات المثلى" المستخلصة من دراسات لأكثر من ٢٥٠ مدرسة.
- آر وود هول (نوفمبر ٢٠٠٥)، "تنظيم المنظمة وتربية المرثين: فحص لتعاليم فتح الله كولن وعضوية الحركة"، بحث مقدم في مؤتمر الإسلام في العالم المعاصر: حركة فتح الله كولن بين الفكرة والتطبيق، هيوستن، تكساس.
- إم إيه زير (١٨ يوليو ٢٠٠٦)، "المدارس الحكومية على نفس مستوى المدارس الخاصة أو تتفوق عليها في بعض المجالات"، نتائج دراسة فيدرالية.

محمد كاليونجو

محلل سياسي مستقل. نشر مقالات في مجلات أكاديمية ومقالات افتتاحية في الصحف والمنشورات عبر الإنترنت. ومن منشوراته: "رد مدني على الصراع الإثني والديني: حركة كولن في جنوب شرق تركيا (نيو جيرسي: ذي لايت برس ٢٠٠٨)، و"تأملات في تركيا والعلاقات التركية الأمريكية الإسرائيلية والشرق الأوسط" (نيو جيرسي: أزرق دوم برس ٢٠١٣). حاصل على ماجستير في الإدارة والعلوم الإدارية من جامعة تكساس في دالاس مع تخصص في التنظيم والإدارة الإستراتيجية، وماجستير في الدراسات الأوروبية الآسيوية والروسية وأوروبا الشرقية من كلية إدموند إيه والش للخدمة الخارجية بجامعة جورج تاون".



مدارس كولن في شرق إفريقيا:

البديل العلماني في كينيا والنهج البراغماتي للتطوير في أوغندا

يُنظر أحياناً إلى مدارس كولن، التي نشأت في تركيا وانتشرت في أكثر من مئة دولة في جميع أنحاء العالم، باعتبارها مدارس إسلامية. ويرجع ذلك غالباً لأن رجال الأعمال الذين مؤلوا تأسيس هذه المدارس والمعلمين الذين كرسوا أنفسهم لتشييدها وإدارتها على حساب راحتهم وهاجروا إلى أفقر مناطق العالم يبدو أنهم قد استلهموا الفكرة من المفكر الإسلامي التركي فتح الله كولن. أُجريت دراسة ميدانية نوعية حول مدارس كولن في كينيا، أظهرت أن المدارس قامت بدور مزدوج؛ فقد قدمت البديل العلماني عن المدارس المسيحية التبشيرية والمدارس الإسلامية، وكانت حاجزاً لمنع الصراعات العرقية الدينية المحتملة بين القبائل المسيحية المحلية في كينيا والأقلية المسلمة الممكنة سياسياً. أثارت

ي

الانتخابات الرئاسية المزورة في ديسمبر ٢٠٠٧ صراعات قبلية مميّنة بين قبيلة كيكويو المهيمنة وباقي القبائل، ومن أبرزها قبيلة لولو التي ينحدر منها رايبلا أودينجا، قائد الحركة الديمقراطية البرتقالية (ODM) والشخصية السياسية المعروفة. كانت الانتخابات وما تبعها من صراعات قبلية فرصة للأقليات المسلمة لتتحد للمرة الأولى في تاريخ كينيا، حتى أصبحت قوة سياسية موحّدة. في ظل النصر السياسي الذي حققه المسلمون على الساحة السياسية، والحديث السائد حول تهميشهم حتى ذلك الحين نتيجة سيطرة المنظمات التبشيرية على الساحة العامة، ونفوذ الصومال القاهر في الأقاليم الشمالية الشرقية والشرقية للبلاد، توفّرت الظروف اللازمة وربما الكافية لإشعال الصراع بين المسيحيين والمسلمين في كينيا واستغلال تبعاته. صحيح أنه قد يصعب تحديد مدى تأثير المنظمات التابعة لمجتمع كولن في نيروبي، فيبدو أنها لعبت دوراً فعالاً في ردع القبيلة النوبية المسلمة عن المشاركة في الصراعات القبلية الدائرة في حي كيبيرا الفقير في كينيا في فترة ما بعد الانتخابات. وبالمثل، يبدو أن مبادرات المجتمع المدني في أوغندا المستوحاة من فكر كولن قد نجحت في طرح منهج براغماتي للتطوير أمام الشعب الأوغندي، من خلال غرس فكرة اعتماد الشعب على موارده بدلاً من المساعدات الدولية. تهدف هذه الدراسة إلى رسم ملامح تطور مبادرات كولن، وأثرها المحتمل على المجتمعين الكيني والأوغندي^(١).

مدارس كولن في كينيا

افتتحت مدرسة كولن الأولى في كينيا عام ١٩٩٨ في مبنى مستأجر في أفقر مناطق نيروبي، بجوار حي كيبيرا الشهير، المعروف بمنازله القصدير، وبأنه ثاني أكبر الأحياء الفقيرة في إفريقيا. ثم انتقلت المدرسة التي تقدم التعليم الثانوي والعالي بعد مرور عشر سنوات إلى حرمها العصري الجديد، الذي يتكون من عدة مباني دراسية، ومجمع رياضي داخلي، وملاعب كرة قدم وسلة، ومطعم، ومباني سكن الطلاب. يتلقى الحرم الجديد الدعم من رجال أعمال أتراك من محافظة أنطاليا، لم يقدموا التمويل أثناء عملية إنشاء المدرسة فحسب، بل سافروا أحياناً إلى نيروبي في مجموعات لمتابعة أعمال التشييد. وخلال هذه الرحلات، اصطحب هؤلاء الرعاة زملاءهم الذين لم يتبرعوا لإنشاء مدارس كهذه من قبل، وشجعوهم على المشاركة في هذه الجهود. إلى جانب هذه المدرسة، هناك مدرسة ابتدائية مختلطة ومدرسة فتيات ثانوية في نيروبي. وبالمثل، هناك مدرسة ابتدائية مختلطة ومدرسة فتيان ثانوية عالية في مومباسا؛ ثاني أكبر مدينة في كينيا على ساحل المحيط الهندي وأغلب سكانها من المسلمين. وهذا يعني وجود ست مدارس كولن في المجمل في كينيا.

نموذجان تعليميان مختلفان

تطبق كينيا نظامين تعليميين: أحدهما النموذج الكيني، والآخر النموذج البريطاني. في حين يتسم النموذج الكيني بقدر هائل من التعليم النظري وكميات كبيرة من الواجبات المنزلية، يتسم النموذج البريطاني بتركيزه على النمو الاجتماعي للطلاب حتى المدرسة الثانوية، وعلى التعليم العلمي في مختلف المجالات بناء على مهارات الطالب فيما بعد. يبدأ الطالب في النموذج الكيني بتعلم اللغة الإنجليزية في سن الثالثة في مرحلة الحضانه، ويواصل تعليمه في المدرسة الابتدائية حتى سن ١١. يتلقى الطالب خلال هذه الفترة التعليم القائم على الحفظ، ويُطلب منه أداء كميات هائلة من الواجبات المنزلية. وحتى يُنهي الطالب المدرسة الابتدائية وينتقل إلى المدرسة الثانوية العليا، عليه الخضوع لاختبار إتمام المدرسة الابتدائية على مستوى الدولة الذي يُعرف باسم "شهادة التعليم الابتدائي في كينيا" (KCPE) ترسب نسبة كبيرة من خريجي المدرسة الابتدائية في هذا الاختبار، وتفقد فرصتها في مواصلة تعليمها. أما الذين ينتقلون إلى المدرسة الثانوية العليا، فيواصلون تعليمهم القائم على الحفظ والكثير من الواجبات المنزلية، للخضوع لاختبار "شهادة التعليم الثانوي في كينيا" (KCSE)، والذي يؤهلهم للدراسة الجامعية. يفقد أغلب خريجي المدرسة العليا فرصتهم في الانتقال إلى الجامعة، ليس فقط بسبب صعوبة الاختبار، لكن أيضاً بسبب قلة عدد الجامعات المتاحة. لهذا، يصبح من الضروري والتنافسي جداً أن يكون أداء الطلاب جيداً في سنوات المدرسة الثانوية والعليا إذا أرادوا الالتحاق بالجامعة. وفي النهاية، بعد نجاح الطالب في اختبار شهادة التعليم الثانوي وإحراز درجة كافية، يجب عليه الانتظار لمدة عام أو عامين لإلحاقه ببرنامج مناسب، نظراً لأن الجامعات المتاحة حالياً لا تكفي لاستيعاب أعداد الناجحين.

أما نموذج التعليم البريطاني، فيركز على النمو الاجتماعي للطلاب حتى نهاية المدرسة الثانوية. وخلال هذه الفترة، يهدف التعليم الأساسي إلى تنمية المهارات الشخصية للطلاب، وقدراته، ومعرفته العامة في مجالات متنوعة من الفنون إلى العلوم. المدارس التي تقدم التعليم الأساسي هي مدارس خاصة تتبع النموذج البريطاني، وهي في الأغلب مدارس أسستها الحملات التبشيرية البريطانية في بدايات القرن الحادي والعشرين. هناك مجموعة مدارس حديثة تتبع نموذجاً مشابهاً، أسسها رواد الأعمال الهنود لأسباب اقتصادية في المقام الأول. توفر هذه المدارس المرافق التكنولوجية، مثل مختبرات الكمبيوتر، والمجموعات الرياضية، وساحات ركوب الخيل، بل ودورات تعليم الطيران. بالنظر إلى جودة المرافق التي

توفرها هذه المدارس، فإن مصروفاتها تبلغ عشرة آلاف دولار سنويًا لكل طالب، في حين تصل مصروفات المدارس الحكومية التي تتبع النظام الكيني إلى ثلاثة آلاف دولار. بعد انتهاء سنوات الدراسة الثانوية، يخضع الطلاب للتعليم المتقدم لمدة عامين، حيث يتعلمون العلوم المتقدمة التي تؤهلهم للدراسة في الجامعة. تُتاح الفرصة أمام الطلاب الذين يكملون هذه الفترة بنجاح للالتحاق بالجامعة. وبعد إكمال ثلاث سنوات أخرى وفقًا للنموذج البريطاني، يحصلون على شهادة جامعية في تخصصاتهم المختلفة.

النجاح والشعبية المتزايدة

تتميز مدارس كولن عن غيرها من المدارس الحكومية والخاصة بتقديم النموذجين الكيني والبريطاني، في حين تفضل أغلب المدارس الأخرى الاقتصار على تقديم أحدهما. يوضح مدير "أكاديمية لايت" المبنية على فكر كولن في نيروبي أن المدرسة لا تريد التخلي عن النموذج الكيني لأنه يتطلب مجهودًا كبيرًا من الطلاب، وبالتالي فإن أولئك الذين يتمكنون من النجاح فيه سينجحون على الأرجح في التعليم الثانوي والجامعي. ويشير مدير المدرسة إلى أن الطلاب الكينيين هم الأكثر تفوقًا من بين كل الطلاب الأفارقة الذين يدرسون في مختلف الجامعات في تركيا، نظرًا لأن مهاراتهم وخلفياتهم الأكاديمية أفضل نسبيًا من غيرهم. كما يوضح المدير أن المدرسة قادرة على تقديم التعليم الكيني بجودة عالية لأن أغلب المعلمين الأتراك العاملين في أكاديمية لايت تدرّبوا في أفضل الجامعات التركية، مثل جامعة البسفور، وجامعة مرمره، وجامعة الشرق الأوسط التقنية، بحيث يمكنهم تدريس كل تخصصات العلوم.

لعل أهم ميزة تنافسية لمدارس كولن في كينيا هي المعلمون الأتراك الذين يعتقدون المثل العليا ويتصرفون من منطلق حب الغير، في حين كان بمقدورهم استغلال مؤهلاتهم الأكاديمية لشغل وظائف مربحة في تركيا. يوضح المدير أن المدرسة احتلت المركز الثاني بين ما يقرب من خمسة آلاف مدرسة خاصة في البلاد في اختبار "شهادة التعليم الثانوي في كينيا"، والمركز التاسع بين إجمالي عشرة آلاف مدرسة حكومية وخاصة في كينيا، وذلك بفضل الحوار المثمر الذي يقيمه زملاؤه مع طلابهم، والعمل التعاوني الجاد الذي يقومون به. ويشير المدير إلى أن التغطية الإعلامية لنجاح أكاديمية لايت في هذا الاختبار المهم على مستوى الدولة قد جذبت الأنظار إلى مدارس أكاديمية لايت، وزاد عدد الطلاب المتقدمين للتسجيل فيها زيادة سريعة.

يبدو أن الأقلية المسلمة، من بين جموع الشعب الكيني، تتابع نجاح أكاديمية لايت عن كثب، وتعتبره نجاحًا لها لأنها ترى الإسلام القاسم المشترك بينها وبين الأتراك الذين أسسوا

هذه المدارس، ويديرونها بالتعاون مع المعلمين الكينيين. يرى أحمد ألفي أن التعليم ضروري لنجاح مساعي دمج الأقلية المسلمة في المجتمع الكيني، وتمثيلها بصورة ملائمة ضمن الطيف الاجتماعي الاقتصادي والسياسي للبلاد. ألفي رجل أعمال باكستاني الأصل كيني المولد، انتقل والده من باكستان إلى محافظة جاريسا الشمالية الشرقية عام ١٩٧٢، وأغلب سكانها من اللاجئين الصوماليين المسلمين. يوضح ألفي أن والده انتقل إلى جاريسا ليعمل في وظيفة أخصائي اجتماعي مسلم ويساعد اللاجئين الصوماليين. وبادر بإنشاء مؤسسات تعليمية إسلامية، حتى بدأ أعمال العائلة الحالية في استيراد قطع غيار السيارات. يشعر ألفي بالأسف لأنه بالرغم من انتشار عدد كبير من المؤسسات والمدارس الإسلامية حتى الآن لتقديم التعليم من الابتدائي إلى الثانوي، ظلت نسبة كبيرة من المجتمع المسلم في كينيا غير متعلمة أو غير مكتملة التعليم. ويشير إلى أن الآباء المسلمين كرهوا أن يواصل أطفالهم التعليم بعد المدرسة الابتدائية لأن أغلب المدارس المتاحة كانت خاضعة لإدارة الجمعيات التبشيرية المسيحية، لذلك خشوا أن يتعد أطفالهم عن الدين الإسلامي أثناء تقدمهم في العمر. يرى ألفي أن مدارس أكاديمية لايت لم تمنح الأقلية المسلمة في كينيا فرصة تعليم أطفالها فحسب، بل منحهم الثقة في الاختلاط بالأغلبية غير المسلمة دون الخوف من الابتعاد عن دينهم الإسلامي. يقول ألفي إنه سمع عن مدارس كولن للمرة الأولى منذ عامين من أحد شركائه في العمل في تركيا، عندما بدأ يقيم علاقات عمل هناك. يؤكد ألفي أن أهم درس تعلمه من زملائه الأتراك هو أهمية التعليم، ولا سيما توفير التعليم العصري للأجيال الجديدة، وتجهيز البنية الأساسية اللازمة لتحقيق ذلك.

يبدو أن مدارس أكاديمية لايت، سواء الابتدائية أو الثانوية العالية، تجني ثمار الشهرة المتزايدة لكل واحدة منها لأن السمعة الطيبة تشمل الجميع. يشير أكبالابان، منسق مدارس أكاديمية لايت، إلى أنه بفضل الشهرة المتزايدة للمدارس خلال العقد الماضي، لم يعد من الصعب على المدارس جذب الطلاب بوجه عام والمتفوقين منهم بوجه خاص. يوجد حالياً ٣٥٠ طالباً مسجلاً في مدرسة أكاديمية لايت الثانوية العالية في نيروبي، وتهدف إدارة المدرسة إلى زيادة هذا العدد إلى ٥٥٠ وإلى ٦٠٠ طالب. وبالمثل، هناك ٢٥٠ طالباً مسجلاً في مدرسة أكاديمية لايت الثانوية العالية في مومباسا، وتعمل إدارة المدرسة على توفير المرافق والبنية الأساسية الضرورية لاستيعاب الإقبال المتزايد على المدرسة. علاوة على ذلك، تضم مدارس أكاديمية لايت الابتدائية في كل من نيروبي ومومباسا ٣٠٠ طالب مسجل في المتوسط. غير أن الإدارة

في المدرستين تخطط إما لزيادة المرافق أو إضافة مبانٍ جديدة لأن مباني المدرسة الحالية التي كانت منازل في الأصل لم تعد كافية لتلبية احتياجات الأعداد المتزايدة من الطلاب.

تنوع الطلاب

تنعكس طبيعة المدينة متعددة العرقيات والأديان في تنوع الطلاب في المدارس. على سبيل المثال، نجد غالبية الطلاب في مدارس أكاديمية لايت في نيروبي من مختلف الطوائف المسيحية، في حين توجد أقلية مسلمة من أصول هندية باكستانية؛ ذلك أن أغلب سكان نيروبي بوجه عام يعتنقون الديانة المسيحية. أما غالبية الطلاب في مدارس مومباسا فإنهم مسلمون، لأن أغلب سكان المدينة مسلمون. ومع ذلك، هناك عدد قليل من الطلاب غير المسلمين. تقدم إدارة المدرسة في مومباسا منحًا دراسية لـ ١٠ إلى ١٥ طالبًا كل عام من مدينة جاريسا، التي تقع على بُعد ٤٠٠ ميل شمال مومباسا. تدرك إدارة المدرسة أن جاريسا من أفقر مناطق كينيا، وأكثرها تأثرًا بجحافل اللاجئين القادمين من جنوب الصومال. ولهذا، لا تكمن المشكلة في عدم توفر المرافق والبنية الأساسية اللازمة لتعليم الأجيال الجديدة في المدينة فحسب، بل في أنهم يكونون عرضة كذلك للتأويلات غير الوسطية للإسلام الشائعة في الصومال. توضح إدارة المدرسة أنها بدأت منذ عامين تقدم المنح الدراسية لأعداد قليلة من الطلاب في جاريسا، وبدأت تجد إقبالاً متزايداً من أهالي الطلاب في جاريسا لإرسال أطفالهم إلى أكاديمية لايت في مومباسا للالتحاق من هذه المنح. لهذا فإن الانتماءات الدينية للطلاب في مدارس أكاديمية لايت مسيحية غالباً في نيروبي وإسلامية في مومباسا، تماشيًا مع السمات العرقية الدينية للمدينتين.

تنوع المعلمين

يبدو أن التنوع العرقي الديني للطلاب منتشر أيضًا بين أعضاء فريق التدريس في مدارس أكاديمية لايت. فهناك ١٥ معلمًا تركيًا و٣٥ معلمًا كينيًا في المدرستين الثانويتين العاليتين في نيروبي، و١١ معلمًا تركيًا و١٥ معلمًا كينيًا في مدرسة مومباسا. إن عدد المعلمين الكينيين أعلى نسبيًا في مدارس أكاديمية لايت الابتدائية. يوجد ٢٥ إلى ٣٠ معلمًا كينيًا في المتوسط و٦ إلى ٧ معلمين أترك فقط في مدارس نيروبي ومومباسا. لعل الدافع الأساسي لعمل المعلمين الكينيين -وأغلبهم من المسيحيين- في مدارس أكاديمية لايت دافع نفعي بحت، غير أن دافعهم للاستمرار يبدو نابعًا من قناعتهم بتفرد المدارس في طريقة تدريس الأجيال الجديدة في كينيا. سمع جوزيف بوجونكو عن أكاديمية لايت للمرة الأولى من قس الكنيسة المحلية. يذكر بوجونكو أنه بناء على توصية من القس، اصطحب طفله إلى أكاديمية لايت لمعرفة المزيد عنها.

نظرًا لتفوق ابن بوجونكو في اختبار "شهادة التعليم الابتدائي في كينيا" على مستوى الدولة، قدمت له أكاديمية لايت منحة دراسية تغطي ٧٥٪ من مصروفات الدراسة. يوضح بوجونكو أن هذا هو سبب تسجيل ابنه في أكاديمية لايت منذ خمس سنوات، وقد تخرج العام الماضي ومن المتوقع أن يدرس العام القادم علوم الزراعة في جامعة جومو كينياتا.

يشرح بوجونكو أن علاقته بأكاديمية لايت لم تكن علاقة والد بمدرسة ابنه. نظرًا لاهتمامه بالمدرسة، فقد انضم إلى فريق العمل وشغل منصب معلم علوم الحياة، ثم أصبح لاحقًا أحد أعضاء مجلس الإدارة. يؤكد بوجونكو أنه أخذ على عاتقه مسؤولية الترويج لمدارس أكاديمية لايت بين زملائه وأصدقائه الذين لم يعرفوا عنها شيئًا، ليس فقط لأن ابنه يدرس فيها، بل لأنه يؤمن بالإسهامات التي تقدمها المدرسة في المجتمع الكيني. يشير بوجونكو إلى أن الأمر لم يكن صعبًا عليه لأن المدرسة كانت تكتسب شهرة بالفعل في وسائل الإعلام بفضل نجاحها الملحوظ في اختبارات شهادة التعليم الابتدائي والثانوي على مستوى كينيا. غير أن النجاح الأكاديمي ليس وحده سبب تفوق أكاديمية لايت على غيرها من المدارس؛ بل كما يقول طريقتها الفريدة في تعزيز التواصل بين الطلاب والمعلمين، التي جذبت أنظار عدد كبير من الطلاب والأهالي إلى المدرسة: "إن سلوك المعلمين الفريد هنا في أكاديمية لايت هو الذي يغير الطلاب فعلاً. لا يتعامل المعلمون مع الطلاب باعتبارهم أطفالاً، بل أصدقاء. ويبادر المعلمون في مناسبات عديدة، مثل الأعياد الوطنية، بإعداد المآدب وتقديم الطعام للطلاب. هناك دائماً حواجز تفصل بين المعلم والطالب في المدارس الأخرى، ناهيك عن تقديم المعلم الطعام للطالب. لكن بفضل هذه الصداقة، يقتدي الطلاب بالمعلمين. ويصبحون أكثر إحساسًا بالمسؤولية لخدمة كينيا. لاحظتُ أنا وأهالي آخرون التغيير الإيجابي الهائل في سلوك أطفالنا وطريقة تعاملهم معنا، وكأنما يتعلمون لغة جديدة هنا في أكاديمية لايت".

غرس المثل العليا في النفوس

يتمحور التعليم الذي تقدمه مدارس أكاديمية لايت في كينيا حول غرس هذه القيم والتطلعات في نفوس الطلاب. يشير أكبالابان، منسق مدارس أكاديمية لايت، إلى أنه بسبب التفاوت الحاد في الدخل في المجتمع الكيني، ينظر الشخص الكيني العادي للتعليم باعتباره مجرد وسيلة للحصول على شهادة ووظيفة براتب مجز. لهذا السبب في رأيه ركزت مدارس أكاديمية لايت -خلافًا لمدارس كولن الأخرى في مختلف الدول- على توفير مرافق مدرسية جاذبة للطلاب، وإعدادهم لاختبار الشهادة الابتدائية والثانوية على مستوى كينيا، نظرًا لدورها

المؤثر في تحديد الجامعة التي سيلتحقون بها والتخصصات التي سيدرسونها. غير أنه من خلال الحوارات المستمرة مع الأهالي، سواء في اجتماعات الآباء والمعلمين في المدرسة أو زيارات المعلمين لمنازل الطلاب، قاموا بتقييم مستوى تقدم الطلاب بالتعاون مع الآباء والطلاب، وتمكنوا بصورة أو أخرى من توعيتهم بأهمية النجاح في مسابقات الفنون والعلوم الدولية كأحد وسائل خدمة المجتمع. يؤكد أكبالابان أن غرس مثل هذه القيم ضروري لاستمرار الحوار بين المعلمين الأتراك والكينيين والطلاب والآباء في أكاديمية لايت. ومن هذا المنطلق، تحرص إدارة المدرسة على التقريب بين المعلمين والآباء، والمعلمين والطلاب في مختلف المناسبات على مدار العام مثل المهرجانات واحتفالات الأعياد.

الجمعيات الخيرية المستوحاة من فكر كولن في كينيا

توجد منظمتان خيريتان تتبعان فكر كولن في كينيا؛ هما مؤسسة عميرية ومؤسسة ريسبكت بالترتيب. تقدم مؤسسة عميرية خدماتها في مجال التعليم والإغاثة والرعاية الصحية، في حين تركز مؤسسة ريسبكت جهودها على الحوار بين الأديان بهدف التقريب بين المجتمعات الدينية المفككة في كينيا للتعاون في تنفيذ مشروعات لخدمة المجتمع.

مؤسسة عميرية

أنشئت مؤسسة عميرية في نيروبي عام ١٩٩٧ على يد مجموعة من المعلمين ورجال الأعمال الأتراك، بالتعاون مع بضعة مواطنين كينيين من قادة المجتمع، الذين نشأت بينهم وبين أتباع حركة كولن صداقة عندما وصلوا إلى كينيا في البداية. وصل عمر كوتلو وأصدقائه إلى كينيا في سبتمبر عام ١٩٩٦. وأول شيء فعلوه هو البحث عن مواطنين محليين لمشاركتهم أفكار مشروعات التعليم، وطلب دعمهم لتنفيذ هذه المشروعات. كان أحمد أمين، القاضي السابق في المحكمة العليا، وابنه المحامي عمر أمين من أوائل الكينيين الذين ساعدوا كوتلو وأصدقاءه على بدء المشروعات؛ فقد ساعدوهم على استئجار مبنى مدرسة سرعان ما أصبح مبنى مدرسة أكاديمية لايت الثانوية. يقول أمين: "انبهرت بعزيمة كوتلو وأصدقائه وإصرارهم على تنفيذ هذه المشروعات التعليمية بالرغم من الشكوك التي راودتني بشأن نجاحهم، بسبب فشل مشروعات خيرية إسلامية كثيرة. غير أن المشروعات حققت النجاح الكبير وتوسعت سريعاً، لدرجة أننا وافقنا على المساعدة عندما اقترح علينا كوتلو وأصدقائه تأسيس منظمة خيرية تقدم الدعم للفقراء الذين لا يتحملون تكلفة إرسال أطفالهم إلى المدرسة"^(٣). يؤكد أكبالابان أن السلطات المحلية رحبت بفكرة إنشاء مؤسسة عميرية، بفضل جهودها غير التمييزية ومساعدتها لكل

المجتمعات في كينيا، بغض النظر عن هويتها العرقية والقبلية والدينية. ولهذا حصلت على لقب "صندوق خيرى" مع أن المؤسسة لم تطلب ذلك تحديداً.

التبرع بالأطعمة والملابس

حرصت مؤسسة عميرية على توسيع نطاق أنشطتها خارج مجال التعليم، تماشيًا مع مهمة تأسيسها، لتشمل تقديم المساعدات والرعاية الصحية في السنوات التالية. يقول محمد يافوزلار، منسق المتطوعين في المؤسسات المستوحاة من فكر كولن في كينيا، إنه بالرغم من تركيز المؤسسة بشكل رئيسي على المشروعات التعليمية، فقد تضمنت أنشطتها أيضًا تقديم مساعدات في صورة أطعمة وملابس، وإقامة مآدب إفطار جماعي في رمضان يشارك فيها المسلمون وغير المسلمين، وتوزيع اللحوم، وتوفير الفحوص الطبية في المناطق الريفية عدة مرات في السنة. تستغل المؤسسة المناسبات السنوية، مثل شهر رمضان وعيد الأضحى، لحشد الموارد من المتبرعين في تركيا، ومن ثم استخدامها لتقديم مساعدات الأطعمة والملابس في كينيا. أي إن المؤسسة تتواصل مع رجال الأعمال في تركيا، الذين يؤمنون بأفكار كولن، لتشجيعهم على رعاية مآدب الإفطار الجماعي في مختلف مدن وقرى كينيا. لا تجد المؤسسة صعوبة في العثور على رعاة لدعم مآدب الإفطار الرمضاني في كينيا لأنها عادة شائعة في تركيا. بل يتحمس رجال الأعمال لاستغلال هذه الفرصة عندما يدركون أن نفس المبلغ يستطيع إطعام عدد أكبر من الأشخاص في كينيا مقارنة بتركيا. تحرص المؤسسة على إقامة هذه المآدب الجماعية غالبًا في القرى الفقيرة نسبيًا خارج مدن مثل نيروبي ومومباسا. كما تركز المؤسسة مع انتهاء شهر رمضان على جمع تبرعات الملابس من تركيا لتوزيعها في كينيا في عيد الفطر وبعده. أضف إلى ذلك أن المؤسسة تنظم فعاليات الإفطار الرمضاني عالية المستوى في نيروبي ومومباسا لجمع أصحاب الرأي، والمسؤولين المحليين والحكوميين، والصحافيين، والأكاديميين، ورواد الأعمال، وغيرهم. تبادر المؤسسة في هذه الفعاليات بتعريف المشاركين بالأنشطة التي نفذتها وطرح رؤيتها للمستقبل، أملاً في الحصول على دعمهم ومشاركتهم في أنشطة المؤسسة.

وبالمثل، تجمع المؤسسة تبرعات لحوم الأضاحي من تركيا، حيث يتبرع كل مسلم بثلاث أضحيتيه أو أكثر للفقراء. يؤكد يافوزلار على نجاح المؤسسة في الحصول على كميات كبيرة من اللحوم من تركيا لأن المتبرعين يقدمون بسخاء شديد عندما يعرفون أن تبرعاتهم تذهب إلى إفريقيا. لهذا فإنهم لا يتبرعون بجزء من الأضاحي أو بها كلها فحسب، بل يتبرعون أيضًا بمبالغ نقدية تستخدمها المؤسسة في شراء مواشٍ أخرى، ليتم ذبحها وتوزيعها على الفقراء في كينيا.

مساعدات الرعاية الصحية

علاوة على ذلك، تقدم المؤسسة خدمات الرقابة الصحية على المناطق الريفية في كينيا عدة مرات على مدار العام، من خلال دعوة مجموعات من الأطباء والممرضين المتطوعين من تركيا وكينيا. يشير يافوزلار إلى أنه بسبب الصعوبات اللوجستية المصاحبة لاستقدام أطباء وممرضين من تركيا، تعتمد المؤسسة غالبًا على الأطباء والممرضين الكينيين. تتواصل المؤسسة مع الأطباء الكينيين الذين درسوا في تركيا، وتشجعهم على الاستفادة من مواردهم والقيام بأعمال الرقابة الصحية. يقدم البنك الإسلامي للتنمية، وهو كيان فرعي تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، منحًا دراسية لـ ١٥ طالبًا كينيًا كل عام لدراسة الطب أو الهندسة في الدول الأعضاء في المنظمة، ومن بينها تركيا. يوضح يافوزلار أن هذا سبب وجود أطباء كينيين كثر في نيروبي ومومباسا وجاريسا ممن حصلوا على شهاداتهم من جامعات تركية، وتستطيع المؤسسة الانتفاع من مواردهم في الأعمال التطوعية. تتلقى المؤسسة المساعدة من متبرعين في تركيا في صورة عقاقير تُوزع مجانًا على الفقراء أثناء عمليات الرقابة الصحية.

من منطلق رغبة مؤسسة عميرية في مواصلة جهود الرقابة الصحية وزيادتها، تخطط لبناء مستشفى إقليمي يخدم منطقة شرق إفريقيا بأكملها، وتحديدًا كينيا، وأوغندا، وتنزانيا. يرى يافوزلار أنه سيكون من الأسهل نسبيًا على المؤسسة بناء مستشفى إقليمي كبير بدلاً من عدة مستشفيات صغيرة في كل دولة، لأن تعدد المستشفيات سيزيد التكاليف التشغيلية، ويجعل من الصعب توظيف عدد كافٍ من العاملين في المجال الصحي للعمل فيها. لهذا، تهدف المؤسسة إلى خدمة المرضى من البلاد الثلاثة في المستشفى الإقليمي المخطط تشييده في العاصمة الكينية نيروبي. من الشائع ليس في قطاع الرعاية الصحية وحده أن تكون المقار المنظمات الإقليمية والدولية والشركات في كينيا، وأن تخدم من هذا المكان كل دول شرق إفريقيا، بما أن الدول الثلاثة الكبيرة كانت موحدة في الأساس حتى قسمها الاستعمار البريطاني، وحاولت أن تتحد مرة أخرى بعد انتهاء فترة الاستعمار البريطاني. بمعنى أن مواطني الدول الثلاثة يمكنهم السفر بحرية فيما بينها، كما تخضع الشركات لأنظمة ولوائح متشابهة. وبالتالي سيسهل على المرضى من خارج كينيا أيضًا الوصول إلى المستشفى الإقليمي في نيروبي. ويؤكد يافوزلار أن أحد رجال الأعمال المحسنين من محافظة قيصرية التركية قد تعهد بالفعل بدعم تشييد المستشفى. ويشرح أن رجل الأعمال الذي يدعم أنشطة حركة كولن في تركيا يمتلك مستشفى في قيصرية، وكان يخطط لافتتاح أخرى في إفريقيا، لكنه لم يستقر على البلد. وبمجرد أن طرح

يافوزلار وأصدقائه فكرة مشروع المستشفى على رجل الأعمال، الذي تعرفوا عليه من خلال صديق مشترك في حركة كولن، قرر إنشاء مستشفى في كينيا.

الجامعة

وأخيرًا، تعكف مؤسسة عميرية على تنفيذ مشروع إنشاء جامعة، يهدف كسابقه إلى خدمة منطقة شرق إفريقيا من مقره في العاصمة الكينية نيروبي. يشير يافوزلار إلى أن رجال الأعمال الأتراك من محافظة أنطاليا الذين دعموا إنشاء الحرم الجديد لأكاديمية لايت وغيرها من مباني المدارس قد تعهدوا بدعم إنشاء الجامعة خلال ثلاث سنوات. لكن يافوزلار يؤكد أن أحمد رضا، رجل الأعمال باكستاني الأصل كيني المولد، بدأ متحمسًا لمشروع الجامعة، وقد عرض شراء جامعة قائمة بالفعل بكل مبانيها، والتبرع بها لمؤسسة عميرية إذا وافقت على البدء في إدارتها على الفور.

يقول جنجيز أقبالابان، منسق مدارس أكاديمية لايت، إن عددًا كبيرًا من رواد الأعمال الكينيين الذين ينحدرون من شبه القارة الهندية مستعدون لدعم مشروعات تعليمية في المستقبل، وتعهد بعضهم بذلك مثل أحمد رضا. يمثل الجيل الثاني والثالث من الكينيين الذين ترجع أصولهم إلى شبه القارة الهندية نسبة كبيرة من الطبقة ذات التعليم والمستوى الاقتصادي الجيد. ويؤكد أقبالابان أن من بينهم مسلمين أثرياء يرغبون في مساعدة مجتمعهم، لكنهم يحجمون عن التبرع بسبب الفساد المنتشر في المجتمع بوجه عام، وفي المنظمات الخيرية بوجه خاص. تأصل إحساس بين الكينيين من بقايا الإرث الاستعماري مفاده أن البيض يعطون دائمًا، ويجب أن يعطوا للسود دون أن يسألوا عن مآل ما أعطوه. لهذا يجد فاعلو الخير المحليون صعوبة في التبرع مع علمهم بأن أموالهم ستعرض في النهاية للتبديد. يؤكد محمد يافوزلار أنهم ارتأوا عدم قبول أي تبرعات من رواد الأعمال المحليين لاستخدامها في منظمات كولن، غير أنهم شجعوا رجال الأعمال على دعم إنشاء مشروعات أخرى مستقلة، مثل المدارس والمكتبات والمستشفيات، إذا وجدوا فيهم الرغبة.

انزعج المتبرعون المسلمون من الوضع الاجتماعي الاقتصادي المتدني للأقلية المسلمة في كينيا، لهذا حاولوا حل المشكلة عبر إنشاء مدارس إسلامية، ودورات قرآنية، وجامعة تقنية في مومباسا. تقدم المنح الدراسية لـ ١٥ طالبًا كينيًا كل عام من البنك الإسلامي للتنمية، ويطلب منهم دراسة الهندسة أو الطب نظرًا لحاجة المجتمع الكيني النامي لهذين المجالين بصورة ملحّة. غير أن هذا التركيز الشديد على الهندسة والطب قد تسبب في نقص عدد معلمي المدارس،

مما اضطر المدارس الإسلامية الابتدائية والثانوية والعالية لتوظيف معلمين من المملكة العربية السعودية والسودان. يؤكد أكبالابان أن أحد أهم أولويات مؤسسة عميرية تشجيع رواد الأعمال الكينيين على تقديم المنح الدراسية لأكثر عدد ممكن من الطلاب، ومنحهم حرية دراسة العلوم والفنون الأساسية، ليصبحوا معلمين في المدارس الابتدائية. وفي هذا الصدد، يوضح أكبالابان أن مدارس أكاديمية لايت تقدم المنح الدراسية لنسبة محددة من الطلاب كل عام. وتبلغ هذه النسبة ١٢٪ من عدد الطلاب المقيدين في النظام الكيني في نيروبي، و ٤٠٪ منهم في مومباسا. يرجع سبب ارتفاع النسبة في مومباسا، كما يشرح أكبالابان، إلى رغبة مدارس أكاديمية لايت في مومباسا في جذب طلاب من مدن مجاورة مثل جاريسا. لا تقدم المدارس المنح الدراسية للطلاب الذين يدرسون وفقاً للنظام البريطاني، لأن الآباء الذين يختارون النظام البريطاني لأطفالهم لديهم القدرة المادية على دفع مصروفات تعليمهم. يوضح أكبالابان أن جزءاً من مبالغ المنح الدراسية يؤخذ من عائدات المصروفات الدراسية التي يدفعها الطلاب الآخرون، وجزءاً من تبرعات رجال الأعمال في ألانيا وأنطاليا، الذين يدعمون الأعمال الخيرية لمؤسسات كولن في نيروبي ومومباسا.

مؤسسة ريسبكت

مؤسسة ريسبكت هي المؤسسة الخيرية الثانية التي تديرها الجالية التركية التي تتبع أفكار كولن في كينيا. تركز المؤسسة على الحوار بين الأديان والثقافات. لكن بالنظر إلى جهودها في تثقيف العديد من المجموعات المسلمة مختلفة العرقيات في كينيا، يعتبر الحوار بين الأديان أحد أنشطة المؤسسة. تضم كينيا تشكيلة متنوعة من الجماعات المسلمة، من بينها قبيلة نوبية تعيش في وسط كينيا في حي كيبيرا الفقير، وصوماليين أغلبهم من اللاجئين الذين هربوا من الصومال وقيمون في جاريسا، وعرب يقيمون في مومباسا وقريباً منها، وباكستانيين هنود حضر أجدادهم إلى كينيا على يد الاستعمار البريطاني في بدايات القرن التاسع عشر. لا شك أن فهم كل هذه الجماعات العرقية المختلفة للإسلام وتطبيقها له قد تأثر بشدة بممارساتها الثقافية. على سبيل المثال، يبدو أن فهم اللاجئين الصوماليين للإسلام قد تأثر بالتقاليد الوهابية، وربما يرجع السبب إلى الأخصائيين الاجتماعيين السعوديين الذين عملوا مع اللاجئين الفارين من الصراع المستمر في السودان، في حين يبدو أن المسلمين الباكستانيين والهنود منخرطون جيداً في المجتمع الكيني ورؤيتهم للإسلام أقل تشدداً. وبالمثل، نجد أن المسلمين العرب في مومباسا هادئون ويميلون لريادة الأعمال ويجسدون التقاليد العربية في

طريقة ارتداء ملابسهم وتصميم منازلهم، في حين أن المسلمين النوبيين المقيمين في وسط كينيا يجسدون سمات الشخصية الكينية المحلية كأبناء القبائل الكينية مثل كيكويوس ولووس وكالينجينز. بالرغم من اختلاف هذه الجماعات الواحدة عن الأخرى في تأويلها للإسلام وتطبيقه في حياتها اليومية، فإن القاسم المشترك الأكبر بينها أنها جماعات نامية وسيئة التعليم مقارنة بأغلبية الشعب الكيني غير المسلمة. يرجع ذلك في الأساس إلى أن كل المدارس الحكومية تقريباً خضعت لإدارة مختلف المنظمات المسيحية التبشيرية، وبالتالي كانت مناهجها مصممة لتضم صفوفاً دراسية عن الدين المسيحي، ولزم على الطلاب بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية حضور هذه الصفوف والخدمات الكنسية. ونتيجة لذلك، لم يكمل أغلب المواطنين المسلمين البالغين في كينيا تعليمهم بعد المدرسة الثانوية، باستثناء الباكستانيين والهنود.

تضع مؤسسة ريسبكت في قمة أولوياتها مواجهة مشكلة التراجع التعليمي للأقلية المسلمة في كينيا. ومن هذا المنطلق، تنظم المؤسسة حلقات دراسية ودورات تعليم الكمبيوتر لأئمة المساجد في حي كيبيرا. يُقال إن حي كيبيرا ثاني أكبر الأحياء الفقيرة في قارة إفريقيا، بعد حي في جنوب إفريقيا. يذكر إمام أحد المساجد في حي كيبيرا أن نصف سكان الحي تقريباً مسلمون، والنصف الآخر مسيحيون^(٣). وتضم كل مجموعة جماعات عرقية مختلفة مثل كيكويوس ولووس وكالينجينز وغيرها. يشير ألبير كيليتش، مدير مؤسسة ريسبكت، إلى أن المؤسسة قدمت لأئمة المساجد دورات تدريبية في استخدام الكمبيوتر، وتبرعت بعدد كبير من الكتب لإنشاء مكتبة للمسجد، ووزعت الأدوات المكتبية والكتب على الأطفال المسلمين وغير المسلمين لتشجيعهم على اكتساب عادة القراءة.

يبدو الحوار بين المسلمين والمسيحيين في كينيا بالنسبة لمؤسسة ريسبكت هدفاً بعيد المنال في الوقت الحالي. والسبب في الأغلب أن المسلمين والمسيحيين يخشون بشدة دخول أفرادهم في الديانة الأخرى. انتشرت الديانة المسيحية في أرجاء كينيا وظلت تحت سيطرة عدد كبير من المنظمات التبشيرية منذ أوائل القرن التاسع عشر. وبعد فترة، اعتُبر الإسلام الدين "الأخر" المخالف لكل ما تدعو إليه المسيحية. وفي نفس الوقت، نظرت القبائل المحلية المسلمة إلى المسيحية باعتبارها الدين "الأخر" المخالف لكل ما يدعو إليه الإسلام. ومن هنا نشأ الصدع العميق بين المجتمعين بمرور الوقت، غير أن هذا التخوف من الطرف الآخر لم يصل إلى حد الصدام. وقد أسهمت الروايات التي يحكيها كل طرف عن الآخر في رسم صورة شريرة للآخر. مع أن هذه القصص قد تكون أبعد ما يكون عن الصحة، فقد انتشرت نسخ عديدة

منها بين المسلمين والمسيحيين على السواء، فزادت الفجوة بين الطرفين. يحكي إبراهيم، أحد مسلمي القبيلة النوبية، أن هناك اعتقادًا شائعًا بين المسلمين أن الأطفال المسلمين الذين يرتادون المدارس التبشيرية لا يحصلون على تغذية كافية، على عكس زملائهم المسيحيين، ويطلب منهم الإيمان بالسيد المسيح وليس بمحمد ﷺ إذا رغبوا في تناول طعام جيد كأصدقائهم المسيحيين⁽⁴⁾. وبالمثل، يحكي إبراهيم أن المسيحيين يعتقدون أنه إذا اعتنق شخص مسيحي الإسلام، فإن مراسم دخوله في الدين تستلزم وقوفه في المسجد ليصق في وجهه جميع الحاضرين ليظهره من الخطايا التي ارتكبتها حتى تلك اللحظة. ومثل هذه الأفكار المغلوطة الشائعة التي يصدقها كل طرف عن الآخر تجعل من الصعب حتى هذه اللحظة إقامة حوار.

لكن فاتح ميرت، المدير التنفيذي لمؤسسة ريسبكت، يخبرنا أن طلاب الجامعة المسلمين والمسيحيين أكثر انفتاحًا لفكرة إقامة حوار وأقل تأثرًا بتلك القصص⁽⁵⁾. لهذا، تحرص المؤسسة على تنظيم ندوات ومجموعات نقاش لطلاب جامعة جومو كينياتا لإرساء الحوار بين الأديان والتفاهم بين الثقافات. يحزن ميرت لرؤية علاقة المسلمين والمسيحيين في كينيا تختلف عن علاقتهم في أوروبا أو الولايات المتحدة، وأنهم أكثر تعصبًا لمعتقداتهم، وبالتالي يتعذر إقامة حوار مستدام بين الطرفين على المستوى المؤسسي، على الأقل حتى هذه اللحظة. لكن متطوعي مؤسسة ريسبكت - وهم مسلمون لم يتأثروا بتلك القصص الشائعة - يحاولون التواصل مع المنظمات الإسلامية والمسيحية، وتوضيح أهمية الحوار بين الأديان لقادة الرأي من الطرفين من خلال مقابلات فردية أو برامج اجتماعية.

التحليل والنتيجة

استضافت تركيا مؤخرًا أول قمة للتعاون التركي الأفريقي، والتي ضمت شخصيات رائدة في مجال السياسة والأعمال وقادة منظمات غير حكومية في أكثر من 50 دولة أفريقية مع نظرائهم الأتراك، لمناقشة سبل التعاون المشترك لبناء مستقبل واعد. كان من نتائج القمة إصدار بيان إسطنبول ومخطط التعاون للشراكة الأفريقية التركية بعد أربعة أيام من النقاش، لتحديد إطار العمل الفعلي للشراكة المنتظرة، التي وُصفت بأنها "تضامن وشراكة من أجل مستقبل مشترك". حددت الوثيقة مجالات التعاون بين تركيا والدول الأفريقية، شملت التعاون الحكومي، والسلام والأمن، والتجارة والاستثمار، والزراعة، والشركات الصغيرة والمتوسطة، والصحة، والبنية التحتية، والطاقة، والنقل، والاتصالات عن بُعد، والثقافة، والتعليم، والإعلام، والاتصالات.

كما يتضح من عقد مؤتمر القمة الأخير والجهود التي تبذلها أنقرة لتعزيز العلاقات التركية المنسية بالدول الأفريقية على أساس إقامة شراكة متكافئة رشيدة، يبدو أن موقف تركيا من إفريقيا قد تغير قليلاً عن مواقف الدول المتقدمة أو النامية الأخرى. ظلت دول العالم الأول لسنوات طويلة، وربما ما زالت، تظن أن إفريقيا عبء فوق كاهلها. من منطلق إحساسها بالمسؤولية عن تأخر الكبرى بالمسؤولية تجاه إفريقيا، أو كما يرى البعض من منطلق إحساسها بالمسؤولية عن تأخر القارة بسبب دورها التاريخي، فإن هذه الدول، التي كانت أيضاً المستعمر الرئيسي لإفريقيا في القرن الـ ١٩، خصصت جزءاً من مواردها لمساعدة إفريقيا. وسواء كانت المساعدات الأفريقية ناجحة أو لا، فإنه موضوع مهم مطروح للمناقشة في دراسات التنمية المعاصرة.

لماذا يُنظر إلى العلاقات الناشئة بين إفريقيا وتركيا نظرة مختلفة عن علاقتها بأوروبا الغربية؟ قد يرجع السبب إلى أن قادة إفريقيا أو الأفارقة بوجه عام لا ينظرون إلى تركيا بوصفها المستعمر السابق الذي استغل مواردهم، بعكس دول أوروبا الغربية. أما العامل الثاني، فقد يكون نظرة قادة إفريقيا إلى تركيا باعتبارها دولة لا تختلف عنهم في أنها ما زالت دولة نامية، وبالتالي من السهل التعامل معها.

يبدو أن إجابة هذا السؤال تظهر على مستوى الأفراد. فلا شك أن الشؤون الحكومية تتأثر تأثيراً كبيراً، إن لم يكن حصرياً، بالتصورات الفردية لشعوب تشارك التاريخ والثقافة. وفي هذا الصدد، تتميز تركيا ليس فقط بأنها لا تشارك الدول الأفريقية تجربة الاستعمار، بل أيضاً بأنها تحظى بتمثيل جيد لدى هذه الدول منذ البداية. شهد العقد الأخير من القرن الماضي ظهور عدد من المعلمين ورجال الأعمال الأتراك الذين آمنوا بآراء المفكر المعاصر الأستاذ فتح الله كولن، وقرروا افتتاح مدارس في أفقر بقاع إفريقيا، تاركين أحلامهم الشخصية وكل شيء وراءهم في تركيا.

ومن أمثلتهم عمر كوتلو. تخرج كوتلو في كلية حقوق تركية معروفة وهو في بدايات العشرينات من عمره، وبدلاً من أن يبدأ مسيرته في مجال المحاماة لبناء حياة موسرة، قرر أن ينتقل إلى كينيا - التي لم يعرف مكانها على الخريطة - فور أن لاحت له فرصة بدء مشروع مدرسة هناك. لم يكن يتحدث الإنجليزية جيداً، ناهيك عن اللغة السواحيلية المحلية. بدأ كوتلو ورفاقه التعرف على البلد وشعبها الذي لم يسبق لهم التعامل معه، وحاولوا البحث عن شركاء محليين لمساعدتهم في تأسيس المدرسة التي يحلمون بها. أشار القاضي السابق في المحكمة العليا ذو الأصول الباكستانية أنه شعر منذ اللحظة الأولى أن كوتلو وأصدقائه مختلفون عن

الأتراك الآخرين الذين قابلهم. "قابلت العديد من الأتراك، سواء في أوروبا حيث درست، أو في المؤتمرات الدولية التي حضرتها في بلاد أخرى. مشكلتهم في رأيي عدم الإحساس بالهوية، لديهم أزمة هوية، بحيث لا يعرفون إلى أين ينتمون"^(٦). يكمل القاضي السابق قائلاً: "لكن السيد كوتلو وأصدقاءه كانوا مختلفين تمامًا. عرفوا جيدًا من هم، وأصروا على إنشاء المدرسة هنا في نيروبي، لتوفير التعليم الحديث للأطفال الكينيين. قلت لنفسي حينها أنه يتحتم عليّ أن أقف مع هؤلاء الشباب الأتراك وأساعدهم على تأسيس المدرسة".

ومن الأمثلة الأخرى إلهان أردوغان. بعد أن شارك في تنفيذ مشروعات مدارس عديدة في آسيا الوسطى في التسعينيات، سافر مع زوجته وطفله الرضيع لتأسيس مدرسة في العاصمة الأوغندية كامبالا، بعد قضاء عام أو عامين في كينيا. يتذكر إلهان الصعاب التي واجهته هو وزوجته في بداية حياتهما في أوغندا، حيث لم يجدا الكثير من الأتراك. "لعل الساعات الطويلة التي قضيناها في الجمارك قبل دخول أوغندا كانت أصعب ساعات مرت عليّ في حياتي". تكمن المشكلة في أن تركيا لم يكن لها تمثيل دبلوماسي في أوغندا، ولم تعلن أنقرة سوى من أسبوع واحد - أي بعد مرور عقد كامل - عزمها افتتاح سفارة هناك. قضى أردوغان سنواته الأولى في أوغندا، كزميله كوتلو، في محاولة التعرف على الشعب المحلي، وتشجيعه على المشاركة في المشروع التعليمي الذي يحلم به. اليوم تقدم المدرسة التي أسسها هو وزملاؤه التعليم لما يقرب من ٢٠٠ طالب، يتنافسون مع أقرانهم في المسابقات الدولية، سواء في الرياضيات، أو العلوم، أو الإنسانيات، أو تكنولوجيا الحاسوب.

تحكي سيدة أعمال محلية تمتلك عدة متاجر أجهزة في كامبالا أنها سافرت إلى تركيا في رحلة نظمها أردوغان، زارت فيها المدارس التي أسسها رجال الأعمال الأتراك. "ذهبنا إلى مدرسة في نازيللي كانت ممتازة. ونعترزم نحن قادة الأعمال في أوغندا أن نحذو حذوهم في بلادنا". تشير إلى أنها تحرص هي وزوجها وأصحاب الأعمال الأوغنديون الآخرون على الالتقاء بانتظام بالمعلمين في مدرسة أكاديمية لايت التركية، لمناقشة وسائل الارتقاء بمرافق المدرسة، والتخطيط لافتتاح مدرسة أخرى. من الجدير بالذكر أن أردوغان وأصدقاء المعلمين الأتراك ما زالوا يعيشون مع عائلاتهم في منازل صغيرة شيدوها بأنفسهم قريبًا من المدرسة.

إن تفاني رجل الأعمال التركي الراحل إركان شاغول من مدينة أرضروم في أعمال التطوير في تنزانيا يعكس جهود الكثير من رجال الأعمال الآخرين الذين باعوا أعمالهم في تركيا لبدءوا من الصفر في مختلف الدول الأفريقية، بهدف دعم مشروعات إنشاء المدارس في تلك الدول،

ومساعدة الأفارقة على الارتقاء بحياتهم. قوبل شاغول بالنقد من أصدقائه وأقاربه، لكنه أنهى أعماله في إسطنبول وانتقل إلى مدينة دار السلام في تنزانيا عام ٢٠٠٥، حيث زار المدارس التركية للمرة الأولى عام ٢٠٠١. كان حلمه بناء جامعة في دار السلام، تفوق على أي جامعة أفريقية أخرى من حيث جودة مرافقها ومستوى التعليم التي تقدمه. لكنه لقي حتفه للأسف في حادث سيارة، تاركًا زملاءه لتحقيق حلمه، حتى أصبح رمزًا للصدقة بين التنزانيين والأتراك.

أكاديمية لايت التركية: منارة إفريقيا

لا شك أن قصص التفاني والتضحية الفردية استطاعت أن تتجاوز الأفراد، وتترك بصمتها على التصورات والأفكار على المستويين المحلي والدولي فيما يتعلق بالعلاقات الأفريقية التركية.

تخرّج ريتشارد أوتولو مؤخرًا في أكاديمية لايت التركية في نيروبي، وهو مسيحي ملتزم يواظب على حضور القداس الإلهي وينشد في جوقة الكنيسة. قُتل والده أثناء تفجيرات القاعدة للسفارة الأمريكية في نيروبي عام ١٩٩٨، حيث كان يعمل مهندسًا في المبنى المجاور. عندما سُئل أوتولو عن مشاعره تجاه المسلمين بعد ما أصاب والده، وموقفه من ارتياد مدرسة يديرها معلمون كينيون وأتراك مسلمون، قال: "المعلمون الأتراك مسلمون، لكن الدين ليس مشكلة هنا. نتمتع بالحرية هنا. تختلف أكاديمية لايت عن غيرها من المدارس. (...) يبقى المعلمون في المدرسة بعد انتهاء الصفوف، ويساعدوننا في دراستنا. حتى أصبحنا آخر الأمر أصدقاء مقربين من معلمينا. الوضع مختلف في المدارس الأخرى؛ فهناك حاجز بين المعلم والطالب. لكن هذا الحاجز غير موجود هنا في أكاديمية لايت. إنهم ليسوا معلمينا فحسب، بل أصدقاءنا أيضًا. حتى إننا نبقى على اتصال بعد التخرج. لكن بمجرد أن تخرج في المدارس الأخرى تنقطع علاقتك بالمعلمين. وعندما تقابل معلمًا في الطريق، ربما تحاول الاختباء منه حتى لا يراك".

السيد فيري مسؤول عن تدريس دراسات الأعمال في أكاديمية لايت التركية. بعد أن نشأ وتعلم في أحد مناطق كينيا الشرقية الفقيرة، انضم إلى زملائه الأتراك في سنوات الدراسة الأولى. "أعمل هنا منذ سبع سنوات تقريبًا. وتربطني علاقات جيدة مع طلابي وزملائي. ولأنهم ينحدرون من ثقافات مختلفة، تصبح المدرسة بيئة متعددة الثقافات. تطبق المدرسة برامج تبادل مع تركيا، لكنني لم أسافر إليها حتى الآن. لقد كانت التجربة حتى الآن جيدة بالنسبة لي". يفخر فيري بإنجازات أكاديمية لايت. "أذكر عندما بدأت المدرسة قبل ١٠ أعوام تقريبًا، كانت مساحة المدرسة صغيرة والمبنى متواضع. أما الآن عندما أنظر حولي، أرى مدرسة

حديثه واسعة تضم مرافق مختلفة. وهذا أهم إنجازات المدرسة في رأيي. ثانيًا، عندما خضعنا لأول اختبار "شهادة التعليم الثانوي في كينيا" (KCSE) عام ٢٠٠٢، لم يكن أحد يعرفنا في كينيا. أما إذا نظرنا إلى الوضع الآن، فيمكننا القول إن أكاديمية لايت ستكون منارة هذا البلد، لأن مؤشرات النجاح في ارتفاع مستمر. كنا في المركز العاشر، ثم صعدنا إلى الثامن، ثم السابع. حتى وصلنا أخيرًا هذا العام (٢٠٠٧) إلى المركز الثاني من بين ٥٠٠٠ مدرسة خاصة في كينيا. في حين يتحدث فيري عن كل نجاح تحققه أكاديمية لايت وكأنه نجاح له، تجسد كلماته الخصائص العامة للعلاقات التركية الأفريقية، والتأثير الذي حققت مبادرات كولن في كينيا أو أوغندا. لا ينظر أي من الأفرقة أو الأتراك إلى الآخر باعتباره مختلفًا، بل بوصفه شريكًا متساويًا يتفانى في تغيير مصير إفريقيا المرير، ويتطلع إلى مستقبل أفضل للجميع.

الهوامش

- (١) تستند هذه الدراسة إلى مقابلات أجراها الكاتب مع مشاركين من كينيا وأوغندا في شهر أبريل ٢٠٠٨. ما زال من المخطط إضافة بيانات المقابلات التي أجريت في أوغندا. لهذا فإن البحث ما زال قيد التطوير.
- (٢) اقتباس من مقابلة الكاتب مع السيد أحمد أمين في نيروبي، كينيا يوم ٢٣ أبريل ٢٠٠٨.
- (٣) اقتباس من مقابلة الكاتب مع المشارك من حي كيبيرا الفقير في نيروبي، كينيا يوم ٢٧ أبريل ٢٠٠٨.
- (٤) اقتباس من مقابلة الكاتب مع المشارك من نيروبي، كينيا يوم ٢٨ أبريل ٢٠٠٨.
- (٥) اقتباس من مقابلة الكاتب مع المشارك من نيروبي، كينيا يوم ٢٩ أبريل ٢٠٠٨.
- (٦) اقتباس من مقابلة الكاتب مع المشارك من نيروبي، كينيا يوم ٢٣ أبريل ٢٠٠٨.

سليمان أحمد شيخ سليمان

كاتب وباحث سوري، تخرج في دار نهضة العلوم الشرعية (الكلتأوية) عام ٢٠٠٨، ليسانس الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر عام ٢٠١٢، ماجستير بتقدير "ممتاز" في الفقه والقانون المقارن من قسم الشريعة الإسلامية في دار العلوم - جامعة القاهرة عام ٢٠١٧، في رسالة بعنوان: "محمد قدري باشا وجهوده في الفقه الإسلامي"، قارن من خلالها القوانين المدنية لأكثر من ست دول عربية مع قوانين قدري باشا ومجلة الأحكام العدلية، له العديد من الكتب والمقالات في التربية والقضايا الفكرية، يشرف على تحرير مجموعة من كتب الأستاذ كولن بنسختها العربية.



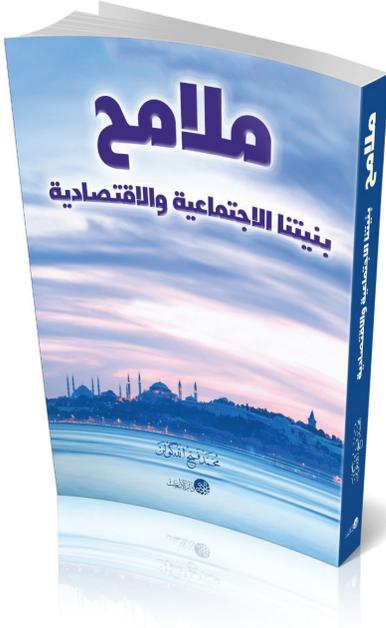
قراءة في كتاب

"ملاحح بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية"

صدر حديثاً كتاب "ملاحح بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية" عن دار الانبعاث في القاهرة- ٢٠٢٢، وهو آخر الإصدارات المترجمة إلى اللغة العربية للكاتب والمفكر التركي "محمد فتح الله كولن" وقد جاء في ٤٦٤ صفحة.

ص

وقد انتهج الكاتب تقسيم كتابه إلى مقمّمة وفصلين وخاتمة، فجاءت المقمّمة بقلم "أ.د. إسماعيل أوزسوي" الخبير في علم الاقتصاد الذي أجاد في تحفيز أذهان القراء لاصطياد الفكرة من بين السطور قبل أن يشعروا في رحلة القراءة. ثم جاء الفصل الأول بعنوان: البنية الاجتماعية، والفصل الثاني بعنوان: البنية الاقتصادية، في رسالة واضحة وصريحة إلى أن البنية الاجتماعية هي الأصل الذي يُبنى عليه، فإن صلحت صلحت البنية الاقتصادية، وإلا فلا. ثم جاءت الخاتمة لتؤكد وتلخص نتائج الكتاب.



وسأنحو في هذه الورقة ما نحاه المؤلف في كتابه من التقسيم المبدئي إلى فصلين وخاتمة، وسأناول في الفصل الأول: ملاح البنية الاجتماعية عند كولن. وفي الفصل الثاني: ملاح البنية الاقتصادية، وسأضع الخلاصة في الخاتمة.

الفصل الأول: ملاح البنية الاجتماعية

لقد شرع الكاتب من خلال قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩) في

شرح جهود مصعب بن عمير رضي الله عنه ومساعيه في صناعة وتهيئة البيئة المواتية لإقامة دولة إسلامية ناشئة في المدينة المنورة خلال فترة وجيزة، وكيف أن الأنصار بينما هم يشرعون في إعداد المكان لإيواء إخوانهم المهاجرين؛ فقد أخذوا يتزودون بالإيمان؛ وهذه هي العلاقة الدقيقة بين الإيمان والبنية الاجتماعية التي أراد المؤلف الانطلاق منها.

أولاً: نقاط الجمع والتفريق

ثم انتقل إلى نقاط القوة والجمع بين أفراد المجتمع ونقاط الضعف والتفريق؛ فاستعرض انهيار الأنظمة الاجتماعية التي لم تتغذ في الأساس على العقيدة، واستدل بذلك على أن أمثال هذه الأنظمة لن تصمد مستقبلاً أيضاً، وأنه ينبغي ألا ننخدع بالصمود الصوري المبني على المصالح الدنيوية لدى الأمم الأخرى.

فثمة حاجة ملحة إلى رابطة قوية ستستمر أيضاً في العوالم الأبدية بين الأفراد الذين يشكلون المجتمع إذا ما كانوا يريدون له الديمومة والبقاء، ولا شك أن هذه الرابطة هي رابطة الأخوة الإسلامية القائمة على مبادئ الدين الإسلامي.

ثانياً: محورية الدين في بناء المجتمعات

ولما كانت الأنظمة الدنيوية الأخرى التي لا تستمد قوتها وضيائها من كلامه الأزلي والأبدي ليست طبيعية ولا فطرية فلا مناص من نسخها من قبل الطبيعة والفطرة والزمان، وعلى ذلك فهذه الأنظمة محكوم عليها بالعدم وإن كانت موجودة، ومن أجل ذلك ثمة حاجة ماسة إلى رجال القلب والروح والفكر؛ لأن التغير الجذري على مستوى العالم لن يتحقق إلا على يد نموذج إنساني جديد.

إن البنية الاجتماعية التي أرادها كولن هي البنية التي ذابت فيها كل الطبقات اعتماداً على الأصل الثابت "سيد القوم خادمهم"، فلا طبقية في الإسلام، والجميع في هذا المجتمع متساوون كأسنان المشط، وقد اتخذ من شخصية "عمر" نموذجاً حياتياً جسّد هذا المفهوم على أرض الواقع.

لم يستطع أي نظام أو مذهب أن يكسب المجتمع جماليات كتلك الجماليات التي أكسبها الدين لهذا المجتمع، والدين والعلم الحقيقي وجهان لحقيقة واحدة، فالدين يدل الإنسان على الطريق المستقيم الذي يوصله إلى السعادة، أما العلم الذي له هدف وغاية معلومة فهو مشعلة ومشكاة تضيء في ساحتها هذا الطريق.

فمن أندر النوادير أن تجد فضيلة دون دين، أو أن تجد ديناً دون فضيلة، فبالدين يستطيع الإنسان أن يدرك معنى الإنسانية فيتميز عن سائر الأحياء.

وبما أن الفلسفة لا تتقبل إلهامات الوحي والإيمان فلا يمكن لها أن تُشبع قلب الإنسان وضميره؛ لأن الدين هو وحده الذي استطاع أن يطمئن لطائف هذا الإنسان، ويكسبه معنى وماهية.

ثالثاً: نظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يرى كولن أن الحقيقة التي تُميز مجتمعنا عن المجتمعات الأخرى هي قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، لكنه اشترط لدوامها شروطاً إن لم تتحقق فلا أفضلية لها؛ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

إنه يرى أن السبب الأساس في الذل والهوان الذي يتجرعه العالم الإسلامي اليوم هو تقصيره في هذه المهمة الحياتية؛ حيث أعرض عن الأمر بالمعروف، واستغرق في المنكرات، ولم يستطع أن يكون قدوة لمن حوله، فمُني بالفرقة والاختلاف.

ويتناول مفهوم المخالفة للآية الكريمة، على النحو التالي: "إنكم إن لم تقوموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصبحوا شرّ أمة"؛ مستدلاً بأحاديث كثيرة بعضها يتدرّج في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ".

ولا يلقي كولن بهذه المسؤولية الثقيلة على عاتق الأفراد فحسب، بل يلقيه على كاهل الدولة أيضاً، فالحفاظ على هذه الوظيفة لزامٌ وضروري بالنسبة للدولة.

فالدولة تتمتع بمزايا أقوى وأوسع ممّا يتمتّع به الأفراد، ولديها سلطةٌ تغيير المنكر باليد، فهناك مواضع ومواضيع لا تطالها يد الفرد، ولا يمكن لكيان غير كيان الدولة أن يطالها. إنه يرى أنه لا حقّ لأيّ فردٍ أن يعاقب زانياً أو شارباً للخمر أو لاعباً للقمار، فلا مجال ليد الفرد في تغيير هذا المنكر.. لكن الدولة فحسب هي المسؤولة عن القيام بهذه الوظيفة بصفتها دولةً، أما الأفراد فينطأ بهم مهمّة إيقاظها إن رأوا فيها ضعفاً ورخاوةً في التعامل مع المنكرات. إن سلب الأفراد الحقّ في مراقبة الدولة ومتابعتها ظهر القمع والاستبداد، ووسّعت الأوامر التي تنهال من الأعلى إلى الأدنى الهوة بين الفرد والدولة، ويرى هنا أن الدولة والفرد سيدفعون ثمناً باهظاً لهذه المثلبة على السواء.

وعلى ذلك فإن الوظيفة الأولى -وهي تغيير المنكر باليد- تقع على عاتق رجال الدولة على الأكثر، والوظيفة الثانية يُعهد بها إلى العلماء والمربين خاصة ثم إلى جميع المؤمنين، أما الوظيفة الثالثة فهي واجب العجزة وضعاف الإيمان، ويتحقّق ذلك بعدم التسليم القلبي بهذا المنكر.

رابعاً: نظرية الاستقامة

وفي سبيل إيضاح وتمييز الاستقامة في بنية المجتمع المسلم فقد عقد كولن مقارنةً خجولةً بين المجتمع القرآني والمجتمعات غير القرآنية، وما الخجل ههنا إلا خشية من الوقوع في إساءة الأدب مع القرآن ونبي القرآن.

لقد انطلق إلى تلك المقارنات المطوّلة عملاً بالقاعدة القائلة: "بضدها تتميز الأشياء"، وإلا فإنه يرى أن القرآن ونبي القرآن لهما من الرفعة والسمو ما لا يمكن مقارنتهما بأي شيء آخر.. فلا داعي أصلاً للإشارة إلى قصور الديانات الأخرى لإثبات رفعة وجلال الإسلام؛ ولكنه يرى أن الإنسان اليوم بما أنه قد تكدّر بصره، واختلّ منهجه الفكري، واضطربت لديه كل القيم فلا مناص أحياناً من عقد بعض المقارنات التنويرية لإيصال الفكرة إليه.

وفي ثنايا تلك المقارنات ستتجول مع الكتاب في السفوح العاتية لمادية أمة اليهود، وسترى كيف أن النصرانية قد ظهرت كزود فعلٍ لمادية اليهودية، وتعديل لشأنها، لكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً، وأصبحت أضحوكة في أيدي من لا أهلية لهم بعد تحريفها، واكتسبت هوية روحانية (Spiritualist) بحتة، وما لبثت أن تحولت إلى رهبانية بسبب الأفكار الجامدة لرجال الدين، فما أفادت سلفها، ولا أفادت نفسها، وظلت لغزاً لا يعرف كنهه أحد.

وخلص إلى أن مثل هذا الاضطراب والانحراف هو العامل الأساس في ظهور بعض الحركات التي لا أصل لها مثل الفلسفة الإنسانية في الغرب، وعلى ذلك فلا يتوقع من المنظمات البشرية التي تتبع الأهواء والرغبات الجسمانية المشوهة أن تأتي بحل لمشاكل الإنسانية؛ لأن الأمر إن خرج عن إطاره السماوي الواسع إلى إطار دنيوي ضيق فلا فائدة تُرجى منه حينذاك.

أ. عوامل الاستقامة ومقارنة نماذجها

ولما لم تحافظ الشرائع السماوية السابقة على هويتها الأصلية تعرضت للتشوه والانحراف وتسببت في جرّ الناس من النور إلى الظلمات رغم أنها كانت في بداياتها عبارة عن باقات نورانية تُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

أما القرآن الكريم فقد تعهد الله تعالى بحفظه، وظل على حاله الذي نزل به من عند الحق سبحانه وتعالى، ولم يتعرض لأي تغيير في المحتوى كما حدث لبعض الكتب السماوية الأخرى. فلما غاب عن بعض الشرائع السماوية قبل الإسلام ممثلوها الحقيقيون لم تستطع الحفاظ على توازنها واعتدالها، وأصابها الذل والهوان، وأخذت بعض دور العبادة التي أنشئت للعبادة ليس إلا؛ تبحث عن سبل لتحقيق المكاسب عبر توزيع صكوك الغفران، وبذلك انسحق الفقير تحت وطأة الغني، وقُسمت الجنة إلى أجزاء، وعُرضت للبيع، وأخذ الملوك والأثرياء والنبلاء الذين أفنوا أعمارهم في السفه والمجون يعيشون على أمل شراء أرقى أمكنة بالجنة بثرواتهم.

وفي بعض المناطق صار هذا الدين ألعوبةً في يد قوى الاستغلال، وأصبح العصاة والمجرمون والبعاة والمعتدون بأموالهم من النخبة المصطفاة في المجتمع.

ورغم أن الله تعالى لم يعهد لأحدٍ بمفاتيح الجنة، إلا أن بعض الموظفين بدور العبادة كانوا يوزعون مفاتيح قصور الجنة باستمرار، وبدلاً من قيامهم بوظيفة الإرشاد والتبليغ، راحوا يتدخلون كما يحلو لهم في العلاقة بين العبد وربّه، بل وفي جميع الأمور التي لا شأن لهم بها، وما هذا إلا نوع من أنواع الاستغلال.

حتى جاء يومٌ ثارَ فيه الفقير الذي لم يستطع شراء الجنة بسبب فقره، والذي لم يستطع أن يشتري فُقلًا يُوَصِّد به باب جهنم؛ وأبدى إزاء ذلك ردَّ فعلٍ قوي، كما تبيَّنت هذه العقدة النفسية لدى الفقير في قيام الثورات العمالية في مواجهة رجال الدين، فكان ردَّ الفعل هذا سببًا في ظهور المذهب البروتستانتي.

إنه يرى أن بعض المسيحيين لم يستطيعوا مراعاة التوازن والاعتدال في تعاليم السيد المسيح (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم)، فاتخذوا المسيح -عبد الله ورسوله الذي جهزه الله تجهيزًا خاصًا- إلهًا، وكأن التاريخ يعيد نفسه، فقد سبقهم من قبل اليهود واتخذوا "عزيزًا" إلهًا، وألَّهُ آخرون "زرادشت"، وعبد آخرون أشخاصًا مثلهم، وهكذا شكلت هذه المفاهيم الخاطئة مشاكل شتى، كما تحولت ردود الفعل تجاهها في الوقت ذاته إلى مشاكل أخرى.

وما الحياة العلمية والنظام الفكري ونظام الطبقات لدى الغرب إلا ردود فعل تجاه تلك المفاهيم، بل يمكن أن يُقال إن هذه المفاهيم الخاطئة كانت تتصدر جميع المصائب التي مُني بها البشر.

فكان من الطبيعي إبداء ردَّ فعلٍ إزاء بعض الأساطير في الغرب؛ لأن الفقراء يُسحقون، والضعفاء تُنتهك حقوقهم، كل ذلك بحجة "إرادة الرب".

وفي العصور التي تحكَّم فيها الإقطاع نجد الفقراء انسحقوا على يد زمر معينة، وعائلات ونبلاء يستمدون نفوذهم من الكنيسة، أما في العصور التالية التي هيمنت عليها الرأسمالية فقد مصَّ البرجوازي دم الفقير واستغله وأسند كلَّ شيء إلى الله، ولم يكتف بهذا بل كان يتحدث باسم الرب من أجل تحقيق مصالحه، وكل يوم يسند إلى الله -حاشاه- أحكامًا مختلفة تتنافى مع بعضها، حتى جاء يوم أبدى فيه الوجدان العام رد فعل كبير ضدَّ هذا، والأنكى من ذلك أن "نيتشه" الملحد الكافر رفع عقيرته بالصياح ذات يوم قائلاً: "مات الإله"، والعياذ بالله، وهذا التصريح رغم أنه تعبيرٌ عن الكفر والكفران، فهو من جانبٍ آخر يشير إلى نوعية اللغة التي كان العلم والفن والثورة الصناعية يتعاملون بها آنذاك.

فهم يرون أن العلم والصناعة قد صارا يهيمنان على العالم، وأصبحت لهما الكلمة العليا، ولكن يجب ألا ننسى أن كل هذا ما هو إلا رد فعل ناتج عن الأفعال الخاطئة التي كان يمارسها بعض المنتسبين إلى الدين، الذين كانوا ينسبون إلى الله أحكامًا تتوافق مع هواهم في متتديات مختلفة.

أما البنية الاجتماعية المسلمة فقد تمثلت الصراط المستقيم في الماضي على الدوام، ولم تقع مطلقاً في إفراط أو تفريط، ولم تنكر متطلبات البشر والبشرية، ولم تُعادِ العقل؛ لأن القرآن الكريم يقول في فذلكة بعض الآيات: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذا يعني مراعاة مقدمات الأشياء والأحداث وخلفياتها وعواقبها، والتفكير فيها وفقاً لقانون السبب والنتيجة، ودفح العقل إلى التفكير مراراً وتكراراً، والاستخدام الفعال للعقل الذي هو هبة الله للإنسان.

إن كولين يُشكِّلُ من هذه الفذلكات القرآنية رؤيته العامة للصراط المستقيم، وبها أيضاً يحصن نفسه من الوقوع في معبئة الإفراط والتفريط، كما أنه لا يدعُو إلى الرهبانية للوصول إلى الله، ولم يدعِ أيضاً أن سبيل الوصول إليه هو الانزواء في الزوايا ودور العبادة، بل على العكس فإنه ينظر إلى الحياة على أنها كلٌّ لا تنفصم أجزاءه عن بعضه البعض.

ب. العقل.. وأخواته

ينطلق كولين في تناوله لمسألة العقل من أن الإسلام اعترف به وأعطاه المكانة اللائقة وأحال إليه كثيراً من المسائل عندما تكررت خواتيم الآيات بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ و﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

غير أن الإسلام لم يترك العقل على حاله حراً طليقاً ألبتة، فالعقل بحسب القرآن ليس أساساً أو مصدرًا مطلقاً، وإنما هو مقيد بمبادئ القرآن والوحي الإلهي بقدر ما، فكانت هذه المبادئ هادية للعقل من الضياع، وفي ظل هذه الهداية والإرشاد حاول العقل القيام بوظيفته بما يتلاءم مع حكمة الخلق في طريق الاستقامة.

وفي الواقع فإن هذه النظرة الكولونية تنطبق أيضاً على أخوات العقل -إن جاز التعبير- من المشاعر الأخرى المكونة في ماهية الإنسان؛ إذ تتجلى الاستقامة عندما تتحول الشهوة والغضب والحقد والعناد إلى عفة عما حرّم الله وجهد وثبات على الحق، ويبلغ العلم أفق العرفان والمحبة.

إنه يتعلّم من القرآن الكريم جنبي مثل هذه الثمرة من المشاعر المكونة في ماهيتنا، ويرى أن القرآن لا ينفى وجود هذه المشاعر فينا، ولا يتصادم مع فطرتنا، ولا يرغمنا على مثل هذا التصادم، بل على العكس يحفظنا من الإفراط والتفريط، ويسوقنا إلى الاعتدال والاستقامة.

فالعقل: هو رفيق الروح المتلونة بالحكمة على درب الاستقامة ما لم يقع في الإفراط أو التفريط.

والشهوة: نفحة من نفحات النفس الناطقة إذا تحلّت بالمشروعية وبلغت العفة التي هي استقامتها، وهي على صراطٍ مستقيم طالما ابتعدت عن الإفراط: أي البوهيمية والفحش، والتفريط: أي تبدل المشاعر.

والعناد: وسيلة من وسائل الصدق مع الله والولاء له من خلال الثبات على الحق، والإفراط فيه يكون بالتمسك بالأحكام المسبقة والانحرافات الباطلة، والتفريط يكون بالتسليم بكل شيء والخضوع له.

والجراة: عامل مهم للصمود والثبات مع أخذ الحذر، والإفراط فيها جبنٌ، والتفريط تهوُّر. والعلم: وسيلة لاكتساب المعرفة والوصول إلى الحق تعالى طالما ابتعد عن الإفراط والتفريط، والإفراط هو العلم المجرد عن الغاية والهدف، والتفريط هو الجهل الذي هو الخزي والعار.

أجل، إن كلاً من هذه المشاعر منحة إلهية نسبية طالما كانت موجهة إلى الصراط المستقيم وتناسب في مجرى الاستقامة، فإن استغلت في مكانها الصحيح عُدّت من المقومات المهمة. وكما رأينا لا يسعى الإسلام إلى إخماد أي قابلية أو استعداد لدى الإنسان، وفي الوقت ذاته لا يسمح لتلك القابليات والاستعدادات بالوقوع في أي إفراط أو تفريط، وقد قيّد الإسلام هذه القابليات وبيّن طريق الاستفادة القصوى من جميعها، حتى إن القرآن الكريم قد أطلق على هذا السبيل: الصراط المستقيم.

إنه يرى أن المؤمن كلما دعا الله في صلاته ب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) شعر بأن هذا المفهوم قد تبلور في داخله، فهذا دعاءٌ لله بأن يحفظنا من الإفراط أو التفريط في كل شيء، وإلا تعرض العقل للإهمال كما في أيامنا الحالية، وأنكر كل شيء، بل إنه قد يتجاوز في وقاحته ولا يعترف بوجود آخر غيره.

ولقد أوصلت بعض الديانات السابقة العقل إلى هذا الحال، فتعرض العقل للإهمال في تلك الفترة، وحيل بين الناس وبين التفكير؛ حيث أصبحوا يرون الحقيقة الوحيدة فيما يذكره الرؤساء الروحانيون، فحُصرت الحياة بين جدران المعبد الكالحة، وظل أفق الرؤية لدى الناس مقيداً بما يُقال خلف هذه الجدران.

لقد سيطر خمول الذهن على المجتمع كمرضٍ أطفأ نورَ العقول، وصار الناس أجساداً جامدة إزاء هذه العلة، ولا جرم أن مجتمعاً مؤلفاً من مثل هذه العقول العليلية لا يمكن أن تكون عاقبته إلا على هذه الشاكلة.

ثم جاء يوم أصبح ردُّ الفعل فيه عنيفاً على مثل هذه الحماسة، فوجدت الإنسانية نفسها هذه المرة أمام فلسفة عقلانية فظيعة تستخفُّ بكل شيء، ومما زاد الطين بلة أن العلم والتكنولوجيا قد ناصرا هذه الفلسفة العقلانية الفظة حتى انجرت الإنسانية إلى إفراطٍ قاتل.

ج. تأليه العلم

وبما أن العلمَ البشريَّ نتاجُ العقلِ والتجاربِ المبتئيةِ على التفكير؛ فالعلمُ ابن للعقل، ويرى كولن أن أبحارَ الإنسانية قد غشيَتْها التطوراتُ العلمية والتكنولوجية الحديثة، حتى غدا الإنسان -مع الأسف- لا يرى ما هو أبعد من بصره، وأصبح لا يثق مطلقاً بأي شيء سوى العلم والتكنولوجيا، وقد تشكلت في نفسه قناعاتٌ مُغالاة مفادها أن بإمكانه التغلب على كلِّ مشاكله وحلِّها بالإمكانات التكنولوجية المتاحة.

إنَّ كولن يدعو أرباب هذا الاتجاه المغالي إلى انتظار تفسير الزمان من أجل إصدار أي حكم في هذا الموضوع، غير أنه يقول نصّاً:

"كما أن الإفراط والمغالاة في كل شيء له أضرارٌ جسيمة فكذلك تأليه العلم وربط القيم كلها به له أخطار عظيمة على الإنسانية والعلوم سواء بسواء".

إن تطبيق "نظرية الاستقامة في البنية المجتمعية لدى كولن" على العلم يعطي النتيجة التالية: لا يكون العلم نافعاً ولا يرفع من مستوى الحياة الاجتماعية، ولا يعد بالطمأنينة والسعادة في الحاضر والمستقبل إلا إذا تمَّ تناوله بحامله الثلاثي (الفكر السليم - التجربة - الضمير) ولكن إذا ظل العلم بمفرده وأُطلق له العنان فلا مناص من الزيغ، والتحريف والشطط والتشويه. فإذا ما حُرمت الأذهان من فكرة الخلود، وأصبحت الروح أسيرةً للتكنولوجيا، وتعرضت الحياة القلبية للإهمال كلية فلا يصحُّ الحديث حينذاك عن العلم الحقيقي ولا عن مستقبل العلم.

بل إن العلم سيُسهم خلال هذا المناخ في ازدياد الوحشية ودوامها، واشتداد ضراوة النزاعات واستمراريتها، وتحوُّل الخداع والاستغلال إلى آفةٍ كبيرة، كما سيصبح سلاحاً فتاكاً في يد القوة التي تحارب الحق.

فالعلمُ مفيدٌ طالما استهدف سعادة الإنسان المادية والمعنوية، واستغلَّ لحلِّ مشاكله البدنية والروحية، وأوصله إلى اتحادٍ بين العقل والقلب، وأما عكس ذلك فلا يُرجى منه نفعٌ أبداً، بل قد يكون أكثر ضرراً، ومن العيب أن نتوقع منه خيراً لصالح الإنسانية.

واليوم يُعنى الإنسان الذي تمكّنت منه الماديةُ كليّةً بالعلم والتكنولوجيا لمجرد أنهما يُشبعان متعه الشخصية، ويوفّران له الراحة والرفاهية المادية، إلا أن هذا المفهوم قد جرّ الإنسان بمرور الأيام إلى كثيرٍ من الانحطاط الأخلاقي والتأزم الروحي والضلال الفكري، فأصبح معظم الناس ممن هم على نفس الشاكلة يتجنّبون البحث عن الحقيقة والتفكير في هذا الطريق، بل وحتى يكرهونهما.

والخلاصة في الفصل الأول: فالكاتب يتناول الإسلام على أنه روح وجسد، ومعنى ومادة، واجتماع واقتصاد، وتربية وأخلاق؛ بمعنى أننا في الإسلام نشمّ ونشعر بكل أنفاس الحياة. والإسلام مصدره القرآن الكريم، ولا يوجد شيء يتعلق بالإنسان في القرآن قد تعرّض للإهمال، كما لا يوجد في القرآن أي أمر مستهجن لا يتوافق مع الطبيعة البشرية، فالقرآن هو صوت ونفس الاعتدال والانتظام بين الوجود والأشياء والأحداث.

إن بعض أتباع الديانات الأخرى يقسمون الفرد إلى روح وجسد، وبعضهم يقدم الروح كليّةً، والبعض الآخر يقدم الجسد والجسمانية كليّةً؛ مما أدى إلى تقسيم الفرد وتمزيقه وجعله حالة عصيّة على الفهم تتمزق أوصالها بين الإفراط والتفريط.

وكنتيجة منطقية للمقارنات المعقودة فإن الكاتب سيصل بك إلى أن العالم قد أدرك جيداً مع الحربين العالميتين مدى خطورة الموقف الذي يعيش فيه، ولكنه ما زال يبحث عن الباب الذي يلوذ به.. ثم سيطرح رؤيته بأن هذا الباب هو الباب المفتوح بالقرآن الكريم، والحبل المتين هو الرسالة الإلهية، والحياة التي لا يشوبها غمٌ ولا كدرٌ هي الحياة التي تكون في ظل القرآن.

الفصل الثاني: ملامح البنية الاقتصادية

وكي يوضح ملامح البنية الاقتصادية وفق رؤيته، فقد سلكَ كولن منهجَ المقارنات الخجول ذاته الذي تحدّثنا عنه في نظرية الاستقامة، فقارن بين النظام القرآني والأنظمة غير القرآنية، وقسم الأنظمة غير القرآنية إلى قسمين: "الرأسمالية" و"الشيوعية".. ثم أدرج الليبرالية تحت الرأسمالية، وتناول الاشتراكية والجماعية ضمن الشيوعية.

أولاً: الرأسمالية

منذ أن حلّت الرأسمالية محل الإقطاعية في زعامة العالم وهي تعتبر نفسها أقوى النظم الاقتصادية، والعالم الرأسمالي في الوقت الحالي له رؤى ومفاهيم خاصة به، ومن أراد الدخول إلى هذا العالم فهو مضطر إلى اعتناق هذه الرؤى والمفاهيم، فالمادة هي الأساس في هذا العالم، بل هي كل شيء، وبها تُحل جميع المشاكل.

وبعد أن استرسل الكاتب في تعريف الرأسمالية، وشرحها من مصادرها الدقيقة؛ شرع في مناقشتها مدللًا على تهافتها من خلال بيان حقيقتها على أرض الواقع، وما خلّفته من آثار بعيدًا عن شعاراتها البرّاقة، ثم لفت الأنظار إلى أن الشيوعية ما هي إلا نتاج طبيعيٍّ للرأسمالية. فلقد سلّمت الثورة الصناعية السوقَ ومصادرَ الإنتاجِ لأقليةٍ صغيرةٍ تابعةٍ للقصر أو الكنيسة، فاستعبدت هذه الطبقةُ من الرأسماليين الغالبيةَ العظمى من الشعب، وقيدتهم بأغلالها، وأخذت تعيش من كدّ يمينهم وعرق جبينهم.

ومع هذا التدهور فإنه يرى الإسلام والنظام القرآني بمثابة المنقذ والمخلص للغرب في مثل هذا الزمان، إلا أنّ المانع من تسويق ذلك بالشكل الصحيح هو أنّ تأثير الثورة الصناعية قد نال من مثقفينا البائسين بدرجة أكبر بكثير من الشعوب الغربية.

إنه يرى أن المستغربين الذين سُحروا بالتطور الصناعي في الغرب دون التفاتٍ إلى ما يعيش فيه من أزمات؛ لم يثقوا بالإسلام حتى يقدموه علاجًا لأزمات الغرب، كما أن المدرسة والتكية وغيرهما من المؤسسات التي كانت تمثل الإسلام باتت عاجزةً عن القيام بمهمتها المنوطة بها في تلك الآونة.

كانت الرأسمالية تؤلّهُ الفرد والمال والثروة والملك، وتدفع البشرية إلى مستنقع الترف والبذخ والإسراف، من أجل ذلك كان الفقير يزداد فقرًا والغني يزداد غنىً بدرجة مخيفة، الأمر الذي أدى إلى أن تكون الثروة دولة بين أناس معينين، حتى صارت الغالبية العظمى من الشعب عبيدًا لسلطنة هذه الطبقة المحتكرة وتحكماتها.

وبينما سيطر الرأسماليون على النصيب الأوفر من الربح كانت طبقة العمال لا تتحصّل إلا على ما يقيم أودها، حتى باتت هذه الطبقة تهذي بعدائها للثروة والأثرياء، لدرجة أن هذه الرأسمالية القاتمة التي أغرقت العمّال في مستنقعاتها قد جعلتْهم ينكبّون على كل من يمدّ لهم يد المساعدة وإن كان أفعى رقطاع.

وبهذا الشكل استغلّت الشيوعية هذه الفرصة، وقدمت نفسها على أنها نتاجٌ لا مناص منه للمسار الطبيعي للتاريخ؛ لأن هؤلاء الرأسماليين بدلاً من أن يُعملوا فكرهم ويأتوا بتفسيرٍ للحوادث الاجتماعية والسير التاريخي والتطورات العلمية والتكنولوجية أفسحوا المجال ومهدوا الأرضية لظهور مفاهيم أخرى.

وهكذا وفدت الشيوعية واستقرت بهذه الأرضية الممهّدة، واعتبرت نفسها وكلّ الموجودات نتيجةً للحتمية الجبرية ولم تعترف بالإرادة الإنسانية، وزعمت أنها نتاجٌ حتميٌّ للرأسمالية، ولا

ريب أن الحشود المقهورة في الغرب قد انخدعت بمثل هذه الكذبة، حتى ظهر هذا النظام المزيف المرعب المسمى الشيوعية من رحم الرأسمالية، وأضحى بعد ثلاثين أو أربعين عاماً أعظمَ بلاءٍ و كارثةٍ بالنسبة للإنسانية على وجه البسيطة.

ثانياً: الشيوعية

وكما أشرنا فإن كولين يرى أن الشيوعية نشأت في مستنقع الرأسمالية، فأرهقت الناس حوالي قرنًا من الزمان، وتغذت على لحم وعظم ودماء الملايين، وقامت من وجهة نظره على ركيزتين اثنتين:

الأولى: "استخدام الدين كأفيون الشعوب رغم معاداتهم له أصلاً".

والثانية: "إلغاء الملكية الخاصة".

والواقع أن هذه الشيوعية لم تعمّر طويلاً نظرًا لأنها تخالف الطبيعة البشرية بشكل صارخ، كما أنها عبارة عن مجموعة من الأخطاء من حيث الأسس التي قامت عليها، وكما انهارت سريعاً على المستوى الفكري، فقد انهارت أيضاً كنظام.

وكمثال على انهيار الركيزة الأولى فقد ذهب كولين إلى الاستشهاد بـ "جوزيف ستالين (Stalin)" (ت: ١٩٥٣) -أحد رواد الشيوعية في سنوات الحرب العالمية الثانية- عندما اضطرّ إلى الترويج للدين، والرجوع إليه وإلى القيم الدينية لمواجهة "هتلر"؛ لأن الدين هو أكبر حقيقة فطرية وطبيعية، والله تعالى معلومٌ بالقدر الذي لا يلزم فيه إقامة دليل على وجوده.

وكمثال على انهيار الركيزة الثانية فقد ساق كولين تاريخ ما بعد الثورة الشيوعية؛ حيث لم تستطع روسيا إلغاء الملكية الخاصة، ورغم ما قامت به من ممارسات قمعية فلم تستطع أن تفلح في مساعيها لإلغاء الملكية الخاصة، حتى اضطر "لينين (Lenin)" (ت: ١٩٢٤) عام ١٩٢١ إلى الاعتراف بوجود الطبقة البرجوازية رافعاً شعار: "اعملوا وتكسبوا".

ثالثاً: الاقتصاد الإسلامي

وبالمقارنة فقد حافظ الإسلام على وجوده منذ أربعة عشر قرناً من الزمان لأنه كان ينظر إلى المسائل نظرة فطرية، وسيظل يحافظ على بقائه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما بالنسبة لانهيار الأنظمة الأخرى قبل بزوغها فهو يرى السبب في تنافها مع الفطرة الإنسانية، لأن أي نظام يخالف الفطرة الإنسانية محكوم عليه بالعاقبة نفسها إن عاجلاً أو آجلاً.

إنه يرى أن احتياجات الإنسان ورغباته لا حد لها، في حين أن الموارد الاقتصادية محدودة، ولذا كان لا بد من تقسيم وتوزيع هذه الموارد بين الناس وفقاً لنظام معين. ووفقاً لمفهوم الاقتصاد في ديننا فإن الله هو المقيّم والموزع لهذه الموارد والثروات، والواقع أن هذا الصنيع من حقه هو؛ لأنه هو الخالق لجميع تلك الثروات والموارد الاقتصادية. فالإنسان يظل طوال عمره يتخبط ويتلوى بين برائن آماله واحتياجاته ورغباته التي لا تنتهي، فهو كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَاِدٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنْ لَهُ وَاِدِيًا آخَرَ". غير أن الموارد الاقتصادية التي من المفترض أن تكفي لسد حاجات الإنسان الضرورية باتت قليلة وغير قادرة على مواجهة أطماع الناس وآمالهم العريضة أو تلبية ما لا ينتهي من حاجياتهم المصطنعة.

فمثلاً هناك نظام يجعل الأنشطة الاقتصادية على رأس قائمته، ويعتبر الإنسان مخلوقاً يأكل ويشرب وينتج ويستهلك، ومن ثم كان الحد الأقصى للاستهلاك من أهم أولوياته، فالإنسان إنسانٌ بقدر ما يستهلكه، ويكدّ ويكدح من أجل تحقيق المزيد من الاستهلاك. وفي هذا النظام لا أهمية ألبتة للقيم الأخلاقية والدينية، فالإنسان فيه يصير كالأرضة التي تفتك بأخيه الإنسان.

فإن الفرد الذي انعدم ضميره إلى أن فقد الشعور بالمسؤولية، وتبدلت لديه مشاعر العدالة والإنصاف يحاول أن يجد في القانون ثغرة حتى يجعل كل شيء يصب في مصلحته ويصطبغ بماهيته، وهذا هو النظام الرأسمالي.

وثمة نظام آخر تقوم فيه زمرة من الناس بالاستيلاء على كل شيء باسم الدولة، ونظراً لأن هذا النظام يدعي المساواة في كل شيء؛ الرغبات والاحتياجات والعمل، فإنه يعتبر الجميع عمالاً في الدولة، من أجل ذلك لا يسمح أبداً بإقامة أي نشاط فردي، أو بنمو المهارات الفردية، ولا يرتضي للفرد سوى الحد الأدنى من المعيشة، ويحبسه في إطار مفهوم العامل العادي، ولا يعتبر بالفطرة الإنسانية، وكما يُضعف القدرات فإنه يعود الفرد على السرقة والاختلاس، وهذا هو النظام الشيوعي.

لكن ثمة نظام آخر لا يدخل ضمن هذه الأنظمة كلها؛ تقوم فيه الفعاليات الاقتصادية على قيم ثابتة راسخة لا تتغير، وكل الناس فيه عباد لصاحب المُلْك؛ لله رب السماء والأرض.

والعوامل الاقتصادية فيه بمثابة دوافع تحضّ الإنسان في الأساس على مزيدٍ من الفضائل، وكلّ فعالياته تجري في حدود الحلال والحرام، بل إن هذه الحدود مقيدة بضوابط معينة مثل المكروه والمباح، بل ويصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى المشتبهات أيضاً. علاوة على ذلك فإن مسألة توزيع موارد الدخل، وطرق الاستفادة من هذه الموارد، وعلاقة الأفراد بها؛ كلها أمور معروفة ومعلومة في هذا النظام، وتجري وفق قيم محددة، ويتسم هذا النظام بأنه يراعي الاحتياجات الضرورية للفرد، ولا يغض الطرف عن الفطرة الإنسانية، ويعطي الصدارة للعمل، وينمي القدرات ضمن مراعاة تامة لأسس العدل والمرحمة والشفقة والتعاون على البر.

ولا جرم أن إيمان العبد بالآخرة، وإيمانه بأنه سيحاسب يوم القيامة في المحكمة الإلهية الكبرى على كل ما اكتسبه وأنفقه يوجّه كلّ الفعاليات الاقتصادية وجهة خاصة، ويضفي عليها لوناً معيناً.

وهذا النظام يحضّ أيضاً على الكسب بل والأكل والشرب ضمن دائرة المشروع، ولكن كل هذا مرهونٌ بعدم الإسراف والترف والبذخ، فالإنسان إنساناً بالقدر الذي يجعل فيه من فعالياته الاقتصادية مرتقىً لفضائله الإنسانية، وبما يتحلى به من فضائل، مثل: العدل، والمرحمة، والإنصاف، واحترام حقوق الغير، والتعاون على البر، والإيثار، من هنا لا نجد للإسراف مكاناً في هذا النظام، بل القناعة والتدبير والاقتصاد في النفقات.

وهذا النظام الثالث هو النظام الإسلامي، وهو بهذه الجوانب يختلف كليّة عن الأنظمة الأخرى.

إنه يرى أن الإسلام وإن شابه الرأسمالية أو الاشتراكية من بعض الوجوه الفرعية فإنه بعيد كل البعد من حيث بنيته الاقتصادية عن جميع هذه الأنظمة الاقتصادية المستوردة من الاشتراكية والرأسمالية وغيرهما؛ وذلك لما يتبوأ من مكانة خاصة به، وبما يتميز به من شمولية يحتضن بها الدنيا والآخرة؛ وبالتالي كل مناحي الحياة للفرد، ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك أي تشابه بينه وبين هذه الأنظمة.

ويكمن الاختلاف في الرؤية الأساسية، من أجل ذلك من الخطأ أن نساوي النظام الإسلامي بغيره من الأنظمة.

فالإسلام ينشد السعادة الأخروية للفرد، ويعتبر الحياة الدنيا المكان الذي يُكسب الإنسان هذه السعادة في الآخرة، فوفقاً له الدنيا والآخرة كأنهما غرفتان لبيت واحد، ليستا متغايرتين عن بعضهما، وكل منهما مكتملة للأخرى، فإذا ما أقام الإنسان حياته أو ضبطها وفقاً لهذا المبدأ فقد تحقق المفهوم الفعلي والحقيقي للاقتصاد.

أضف إلى ذلك فالملك كله لله ﷻ، والإنسان مُستأمن في ملك الله ﷻ، وكما لا يجوز له التصرف كيفما يشاء فلا يحق له التصرف كيفما يحلو له فيما يملك بما في ذلك بدنه.

حتى وإن حاز الإنسان ملكية خاصة بقدر معين، فعليه أن يتحرك في كل تصرفاته من استغلال هذه الملكية والاستفادة منها أو توريثها وفقاً للمنهج الذي وضعه ربه ﷻ.

وانطلاقاً من هذه المبادئ، وبما أنه لا يمكن تجريد النظام الاقتصادي الإسلامي من القيم الأبدية الثابتة فقد أطلق كولن عليه تعريفه الخاص على النحو التالي:

"إنه مجموعة من المبادئ التي تنظم مستويات الحياة الفردية والاجتماعية وفقاً للقيم المطلقة التي وضعها الله تعالى".

وراح يضرب على ذلك الأمثلة والشواهد، وعلى سبيل المثال فالفرد المتشرب لهذه البنية الاقتصادية لا يفرح إذا ما هطل المطر على أرضه وقت القحط والجذب ولم يهطل على ديار الآخرين، بل إنه يظل مكدرًا حزينا، وكذلك لا يطرب بدوران عجلة الإنتاج في مصنعه دون مصانع الآخرين.

فالمجتمع في هذه البنية يشبه عجالات إنتاج مختلفة لمصنع واحد، أو خدماً في باخرة واحدة، أو أعضاء لجسم واحد مثل الفم والعين واللسان والأنف والأذن، فإذا ما أصاب العطب عضواً أو جزءاً من هذه المنظومة تداعت له سائر الأعضاء أو الأجزاء الأخرى لإغاثة ومد يد العون له.

إن الناشئ في البنية الاقتصادية على النظام الإسلامي وفقاً لرؤية كولن يعتبر الدنيا مزرعة ومدرسة يُطالع من خلالها تجليات أسماء الحق ﷻ، ويشغل بالدنيا على قدرها فقط، ويعتبرها شجرة استظل تحتها ثم راح وتركها.

أما الموطن الأصلي للإنسان فهو الحياة الحقيقية التي نرى لها في ديانا أشباهاً وتندوق منها أشياء، لكننا لا نشبع من لذائذها؛ نعرفها ولا نبلغ حقيقتها، وندركها ولسنا على يقين منها؛ هذه هي الحياة التي لا نظير لها والتي قال عنها مولانا ﷻ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾

أ. لماذا لم يَسُد الاقتصاد الإسلامي على الاقتصاد العالمي؟

وعندما يُكرّر كولن التذكير بأن الاقتصاد الإسلامي ليس من وضع أحدٍ أو من تنظيمه، وإنما هو أمرٌ لاهوتي؛ فإنه يستشعر سؤالاً في أذهان القراء على النحو التالي: إذا كان المسلمون يملكون هذا النظام الاقتصادي الرائع فلماذا لم يتفوقوا به اليوم ويسودوا به العالم؟! فيُجيب ويضرب الأمثلة قائلاً:

"إن ما نشهده في عصرنا من ضعفٍ وتدهورٍ في حياتنا التجارية منشؤه عدمُ استيعابنا للمسألة ولما فيها من توازنٍ دقيق؛ فاليهود كانوا يحتكرون التجارة في المدينة قبل الهجرة، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام المسلمين الأوائل الذين فهموا الأمر كما ينبغي، وفي غضون سنة أو سنتين توقف احتكار اليهود وانهار اقتصادهم ولم يعودوا يعملون بالتجارة.

إن التجار اليهود المحتكرين عندما رأوا ذلك رحلوا عن المدينة بإرادتهم، ولكن ما ألجأهم إلى ذلك هو عجزهم عن ممارسة التجارة الاحتكارية ومنافسة المسلمين في الحياة التجارية، والفضل في ذلك يرجع إلى أن المسلمين فهموا الأمر فأقاموا نظاماً وتوازناً تجارياً رصيناً". إن كولن يرى أن مربط الفرس في عدم التفريق بين الحياة الاقتصادية للمسلمين وبين أخلاقهم وإيمانهم، فقوة المسلمين في إيمانهم وأخلاقهم تتبعها قوة في اقتصادهم، وبخلاف ذلك فإن اقتصادهم سيتعرض للانحلال والانهيار.

فهو ينسب هذا النجاح الاقتصادي في العصر النبوي أو عصور الازدهار الاقتصادي في تاريخنا إلى استيعاب المؤمنين لهذا التوازن الدقيق؛ فالأوقات التي ازدهر فيها اقتصادنا هي تلك الأوقات التي ارتبطنا فيها بالإسلام ارتباطاً وثيقاً قائماً على الإخلاص والبنية الاجتماعية السليمة.. أما الأوقات التي عانينا فيها من الذلة والمسكنة فإنها توافقت تلك الأونة التي ضعف فيها إسلامنا وإيماننا وبيتنا الاجتماعية.. ولا يمكن أن نفسر انهيارنا اليوم وتبعيتنا للخارج في وارداتنا وصادراتنا إلا بهذا الشكل.

ب. مصادر النظرية الاقتصادية

ولتحقيق هذا النظام والتوازن يعتمد كولن على أربعة مصادر:

١- القرآن، ٢- السنة، ٣- الإجماع، ٤- القياس.

إن كولن يرى أن الأنظمة الاقتصادية المستمدة من هذه المصادر الأربعة ستحافظ على وجودها ولن تموت، أما الأنظمة البشرية التي لا تقوم على هذه الأركان فلم تكد تظهر حتى تخبو، بل ربما أصابها الذبول والبلى والهلاك إبّان ظهورها، وكأنها عاشت الربيع والخريف في وقت واحد.

ولقد رأينا كثيراً من الأنظمة في عصرنا الحاضر وشهدنا نهايتها كما شهدنا من قبل بدايتها في نفس المرحلة الزمنية التي كنا نعيشها؛ بمعنى أنها قد وُلدت ميتة، بل إن مؤسسي هذه الأنظمة قد أخضعوها بأيديهم لكثيرٍ من عمليات التجديد والتغيير دون جدوى.

ج. أركان النظرية الاقتصادية

وأما أركان الاقتصاد الإسلامي لدى كولن فهي خمسة:

١- الحاكمية.. فلا ريب أن الله تعالى هو الحاكم المطلق لنا ولغيرنا.. وقد ساق كولن تحت هذا البند رؤية مقارنةً استقرائيةً مطوّلةً جديرة بالدرس من خلال ورقة بحثية خاصة بعنوان: "مفهوم الحاكمية عند كولن".

٢- الرؤية الكونية؛ وتعني التأمل في الحوادث والأشياء، وخاصة التطورات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ثم تقييمها حسب الوضع القائم من حيث السبب والنتيجة.

٣- الملكية الخاصة والنشاط الحر.

٤- السلام العالمي.

٥- مفهوم الأخوة المطلقة.

رابعاً: التشريع والتوجيه

يرى "كولن" أن البنية المالية والاقتصادية في الإسلام تقوم على جانبين:

أولاً: الجانب التشريعي، وعلى أساسه تقوم الحياة الاقتصادية على مبادئ معينة.

ثانياً: الجانب التوجيهي، وهو متعلقٌ بالوعي الذي يتم إكسابه للأفراد، وهذا الوعي المجتمعي

هو الذي يشكل هذا التوجيه الذي لا يخضع لقيّدٍ أو شرطٍ في أي وقت من الأوقات.

وكمثالٍ تطبيقيٍّ وتوضيحيٍّ لهذه الأفكار نقول: حينما أعطى الإسلام الفردَ حقَّ التملك أمره

من ناحية أخرى بالزكاة؛ وهذا هو الجانب التشريعي من المسألة، وهذا حق الله سبحانه.

أما الجانب التوجيهي؛ فتصوّر أنّ مجتمعاً تكامل فيه أفرادُه مع بعضهم، فلا جرم أنه لو جاع

فردٌ منهم تداعى له الآخرون، وإن اشتكى واحدٌ فقدّ الآخرُ شهيدته، بل والأدهى من ذلك أن هذا

الآخر يبيت مهموماً منكسراً من أجل صلاح وإصلاح الحياة الأبدية لبقية أفراد المجتمع، ولا

تمرّ لحظة إلا ويتجرّع فيها الآلام، ورغم أن الله تعالى لم يأمره على مستوى الإنفاق إلا بالزكاة

فقط؛ فإنه إذا اقتضى الأمر أنفق كلَّ ماله، بل وأعطى حتى ثوبه الذي على بدنه؛ وهذا هو التوجيه

الذي تُرك لإرادة العبد.

لقد وصل الصحابة الكرام ﷺ إلى هذا الوعي واستوعبوا هذا التوازن الذي أشْرنا إليه قبل قليل؛ واتَّضح هذا في أحاديث كثيرة، منها عندما جاء أبو بكر ﷺ بكلِّ ماله، ومنها عندما أنفق عمر ﷺ نصف ماله، وقَدَّم عثمان ﷺ من المال ما حدا بالنبي ﷺ أن يقول: "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ"، وأنفق عبد الرحمن بن عوف ﷺ قافلته التجارية بأحلاسها وأقتابها وأحمالها في سبيل الله.. إلى جانب الأمثلة الكثيرة.

وكما لاحظنا ففي التشريع يضع الله القوانين، وفي التوجيه يرقِّ قلب المؤمن، ويعمَد إلى الإيثار.

خاتمة:

النتيجة الحتمية التي يصل إليها كوالن في هذا الكتاب هي أن البنية الاقتصادية قائمة على البنية الاجتماعية، فإن صلح المجتمع صلح الاقتصاد، وإن فسد المجتمع ضاعت كلُّ محاولات الإصلاح الاقتصادي دون جدوى.

إن كوالن يسعى لِلْفَتْ الانتباه إلى ضرورة الاستثمار في الإنسان أولاً، ولتأسيس شعور التعاون والتضامن بين الفرد والمجتمع، وإلى تفعيل مبدأ "الجسد الواحد" الذي نصَّ عليه النبي ﷺ، وبهذا الشعور يصبح كلُّ فرد مرشداً يوجّه ما حوله إلى الحُسْنِ والجمال، وملكاً حارساً يقيهم الشرور والسيئات.

إن الإسلام يربي ويصفي روح الفرد وضميره، ويجعله ركنًا متكاملًا مع المجتمع. أجل، إنه يهدِّبه ويجعله فردًا ضمن عائلة سليمة، ويمنحه مكانةً مهمةً في النظام الإسلامي، فهو بمثابة حجر الزاوية في بنية المجتمع، أو جزء من البنية العامة المؤلفة من ملايين ومليارات الأجزاء، وإن ما يحمله الفرد من خير وجمال وشر وقبح سيظهر في بنية المجتمع، إن لم يكن اليوم فغدًا. إنه يرى أن الإنسانية تبنزغ أولاً في ضمير الفرد، ثم تخضر في عالمه الروحي، وبعد ذلك تعلن عن نفسها في طبقات المجتمع المختلفة، بل وتصل يوماً إلى مستوى عالمي يهَمُّ كل الإنسانية.

فإذا ما تحقَّق هذا توجه الفرد والمجتمع إلى تحقيق الغايات المثالية لا الغايات القائمة على المصالح الدنيئة الصغيرة، لدرجة أن الفرد يؤثر إحياء الآخرين على حياته، ويتَّخذ من حياته ممّرات آمنة للناس يعبرون من خلالها إلى جنات الفردوس.

صابر عبد الفتاح المشرفي

ليسانس آداب وتربية بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف، ماجستير في البلاغة والنقد بتقدير ممتاز بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة، باحث دكتوراه بقسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، مشرف على إعداد وتحضير إصدارات نسمات للدراسات الاجتماعية والحضارية، رئيس تحرير مجلة حراء الدولية، باحث متخصص في الشأن التركي وملف حركة الخدمة التي تستلهم أفكارها من الأستاذ فتح كولن، له عديد من البحوث والدراسات والمقالات في هذا المجال، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات الدولية حول هذا الموضوع.



حركة الخدمة بين بناء القيم والانفتاح على الأفق الإنساني

أجرى مركز نسمات للدراسات الاجتماعية والحضارية لقاءات مصورة مع عديد من المفكرين والأكاديميين والإعلاميين والمنتقنين والباحثين والكتاب العرب الذين التقوا بفكر الخدمة وعاینوا مؤسساتها عن قرب واطلعوا على كتابات الأستاذ كولن وبحشوا عن أفكاره، والتقوا بالعديد من الكوادر الفاعلة في مؤسسات الخدمة ممن يستلهمون أفكارهم من رائد الخدمة الأستاذ كولن، وبادر بعض هؤلاء المثقفين والباحثين والكتاب بالكتابة عن هذا النموذج، وشاركوا في العديد من الفعاليات والندوات واللقاءات الفكرية والثقافية التي عقدت بالتعاون مع مؤسسات الخدمة. وقد عبر هؤلاء المثقفون في هذه اللقاءات عن آرائهم وانطباعاتهم حول ما قرأوه وما شاهدوه في خضم تجربة الخدمة، وعرضوا أفكارهم بوضوح حيال الأزمة الحالية التي تمر بها الخدمة ورؤيتهم للأحداث من منظور خارجي، وحاولوا استبصار مستقبل هذه الأزمة وتأثيراتها على الخدمة وأبنائها سواء في داخل تركيا أو في خارجها.

ومن أوائل الذين تشرفت نسמת بلقائهم العالم الكبير الأستاذ الدكتور صلاح سليمان: أستاذ كيمياء وسمية المبيدات بكلية الزراعة جامعة الإسكندرية، ومستشار مدير مكتبة الإسكندرية، وخبير التنوع البيولوجي، وبحكم موقعه الثقافي في العالم العربي فقد اطلع على أدبيات الأستاذ كولن وكان له معرفة عن كذب بعض الشخصيات الثقافية من أبناء حركة الخدمة وشارك بالفعل في افتتاح بعض المؤسسات التربوية والتعليمية في القاهرة والإسكندرية وأسهم في تأسيسها، وتوج كل ذلك بقاء شخصي مع رائد حركة الخدمة الأستاذ كولن في مقر إقامته في بنسلفانيا، وقد عبر في اللقاء الذي أجري معه عن كل ذلك ووجه العديد من الرسائل للأستاذ كولن ولأبناء الخدمة ممن يعانون حالياً من اضطهاد ونفي وتشريد على يد النظام الأردوغاني الحاكم الآن في تركيا.

كما التقت نسמת أيضاً مع المرحوم الراحل الأستاذ هاني رسلان قبيل وفاته وهو الذي كان يعمل مستشاراً لمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية وخبيراً في شؤون السودان وإفريقيا. كما كان الرئيس الشرفي لمجلة حراء التي يكتب فيها الأستاذ كولن المقال الرئيس وتصدر برعاية مؤسسات الخدمة، وظل في هذا المنصب منذ إنشائها حتى وفاته متأثراً بإصابته بفيروس كورونا رحمه الله. وكان الراحل ذا علاقة قوية بأبناء الخدمة ومؤسساتها ويظهر ذلك في حوار المنشور في هذا العدد.

وسوف توالي نسמת نشر هذه الحوارات التي تعد بمثابة شهادات حية من مفكرين بارزين على دور حركة الخدمة في تحويل الأفكار إلى مؤسسات على أرض الواقع، ومدى إسهامها في نشر قيم السلام والمحبة والإخاء والتعاون بين أبناء الإنسانية جميعاً، والعمل على رفع مستوى الوعي التربوي والتعليمي في مختلف أنحاء العالم.

أولاً: حوار الأستاذ الدكتور صلاح سليمان

• متى سمعت أول مرة عن الأستاذ فتح الله كولن؟

كنت أتحدث مع بعض الزملاء، وأثير اسم الأستاذ محمد فتح الله كولن، وحركة الخدمة التي أسسها، ليس على أن تكون حركة بقدر ما أن تكون مدرسة للتربية على القيم التي تؤمن بها كل الأديان. الحقيقة أول ما سمعت عن الأستاذ محمد فتح الله كولن كان عند افتتاح مدرسة صلاح الدين بالقاهرة، ودعيت لحضور هذا الافتتاح مع مجموعة من الزملاء.



• قرأتكم الكثير للأستاذ فتح الله كولن، ولكم معرفة وثيقة ببعض الشخصيات من حركة الخدمة، فكيف وجدتم هذه الكتابات؟ وما مدى التأثير الذي لاحظتموه على الشخصيات التي تعرفتم عليها من أبناء الخدمة؟

وصلتني بعض المطبوعات والمقالات والكتب التي يكتبها هذا الرجل، قرأت ووجدتني أقرأ فيها بنهم.. حقيقةً لأنني رأيت رجلاً يكتب ليربي، رجلاً يكتب ليبي شخصيات إنسانية على قيم آمنت بها البشرية كلها.

الحقيقة لم أشعر أن له هدفاً قيادياً؛ يسعى إلى أن يكون قائداً أو رئيساً لجماعة، كما هي بعض الحركات، سيان الحركات اللادينية، أو بعض الحركات التي تتخذ من الدين ستاراً لها، كي يصل أصحابها أو المبلغون بها إلى مقاعد السلطة. وعندنا من هذه الحركات الدينية الكثير، في المسيحية والإسلام واليهودية وغيرها من الأديان. حتى اللاسماوية. يعني أحد قواد السلطة.. قواد الحكم يتخذ من هذه الديانات وسيلة ليصبح حوله عدد كبير من المؤيدين وبالتالي يصل إلى السلطة بسرعة البرق كما يقال.. وحدث.. حدث كثيرا، سيان في أوروبا أو آسيا أو في إفريقيا بالتحديد.

الحقيقة أنني رأيت بعد ما قرأت لهذا الرجل أن هناك شخصاً التزم بأن يسعى إلى أن يبلغ رسالته للأجيال المختلفة وبالذات للشباب، بحثهم على القيم الإنسانية التي يؤمن بها كل الأختيار في العالم. قيم الأمانة والصدق والبر والوفاء وقول الحق والعمل.. نجح الرجل في أن يجتذب له مجموعة كبيرة جدا من الشباب بداية في تركيا ثم في العالم، وانتشرت رؤيته في بناء القيم انتشاراً كبيراً جداً خلال العقدين الأخيرين.

من يسعى إلى بناء الأمم عبر القيم له رؤية بعيدة المدى، ومن يسعى إلى كسب السلطة له رؤية قصيرة المدى لأنه يحب أن يجلس على الكرسي؛ كرسي الزعامة.. كرسي القيادة... كرسي الرئاسة.. كرسي الخلافة في وقت قصير.

الرجل منذ صباه كان همه الشاغل - كما قرأتُ، وعرفتُ - كان همه الشاغل بناء القيم لدى الصغار.. الشباب الصغير لكي يكونوا ذوي قيم تمكّنهم من صناعة أمة، وهو ما سعى ويسعى له هذا الرجل.

بما أنه الصراع أو أداء كولن يحتاج إلى وقت كبير كي تزرع القيم ولتري نتيجة ما زرعتَ، فإن الأمر يحتاج إلى عشرات السنين، إذا عملتَ ذلك بإخلاص فأنت لا تنتظر أن ترى النتيجة حتى في حياتك.. ربما بعد مماتك.

وكل المجدين للقيم الإنسانية كذلك - ودائماً أركز على أنها القيم الإنسانية - لأنه ليس هناك صدق مطلوب في الإسلام وغير مطلوب في المسيحية، الصدق صدق، لأنها قيمة إنسانية بشرية نحن جميعاً في احتياج إليها بغض النظر عن اختلاف الأديان المختلفة.

• التقيتم بالأستاذ كولن في مقر إقامته في بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية فكيف كانت انطباعاتكم عن هذا اللقاء؟

الحقيقة يعني إعجابي برجل يعطي دون أن ينتظر الجائزة على ما يعطيه.. تملك كرسي، أو وظيفة، أو قيادة، أو غير ذلك دفعني إلى أن أحاول أن ألتقي بصاحب الفكر، صاحب القضية، وبحمد الله فعلاً نجحت - ويمكن أنا ذكرت ذلك قبل ذلك - بأن ألتقيه في بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

ماذا رأيتُ؟ رأيت إنساناً يعبر عما كتبه، وليس ما كتبه صورة بعيدة عنه.. أثر في ذلك اللقاء، وكان لقاءً فيه بضع مئات من محبيه ومريديه وتلاميذه، معظمهم ما بين العشرين والخمسة والعشرين ومن هم في سنّي الستينيات في ذلك الوقت أو بداية السبعينيات أو في أواخر الستينيات.

لكن ما أثر فيّ في هذا اللقاء الحقيقة وإن كنت لم أفهم كلمة واحدة من خطبته، لكنني كما قلت، كنت أقرأ له ما كتب سواء ما ترجم إلى العربية أو الإنجليزية، ما أثر في هذا اللقاء؟ هذا الشخص الذي تبدو عليه كل مظاهر وعلامات التواضع وبدون أن أفهم كلمة مما قال، إلا أنني أحسست بصدق كلماته، ربما تأثراً بما سبق لي أن قرأت له، لكن ما أثر في كثير من دخول بعض الأطفال الصغار إلى المجلس، مجلس الكبار، وكيف استقبلهم بحفاوة وحنوّ ذكرني بما كان يحدث للشباب الصغير والأطفال في بداية الإسلام.

• تمر الخدمة الآن بمرحلة صعبة في تاريخها حيث يتعرض عشرات الآلاف من أبنائها إلى النفي والتشريد والحبس التعسفي والاعتقال ويقاسون ظروفًا صعبة سواء في الداخل أو في الخارج، فما الرسالة التي تود أن توجهها؟

الحقيقة أنني أرى أن الأستاذ محمد فتح الله كولن صاحب رسالة وليس باحثًا عن قيادة، هنا هو الوفاء في العمل.. حركة الخدمة كما أقرأ عنها لا أعتقد أنها تمر بكبوة ولا تمر بلحظة يعني تقدم للخلف كما يقولون، وإنما أرى أنها مثل باقي أو معظم الحركات التنويرية أو الإصلاحية التاريخية في العالم، لكنها ستبقى، ستبقى لأن صاحبها أولاً وتابعيها أيضاً أصحاب رسالة قيّمة لا يسعون إلى سلطة ولا يسعون إلى خلافة، كما هو للأسف الشديد حادث في بعض الجماعات، أو بعض رؤساء الدول الذين ينقضون على الإدارة والقيادة، بادعاء القيم.. يستخدمون الإسلام للوصول إلى السلطة، أو يستخدمون المسيحية للوصول إلى السلطة أو اليهودية للوصول إلى السلطة. هؤلاء أعمارهم وأعمار حركاتهم بأعمارهم القصيرة، لكن البقاء سيكون دائماً وأبداً للمصلحين المخلصين الذين سيضع لهم التاريخ فيه مكاناً أبدياً واضحاً حتى قيام الساعة، فضلاً عن الجزاء الرباني.. الحقيقة أنا أرى بمنتهى الوضوح، أن من يربي شاباً من قيم سيقى مجهوده بقاء الزمن.. أما المتسابقون على السلطة فقد يحققونها لكنها لن تستمر. وبقيني أن الأستاذ محمد فتح الله كولن هو أحد الرجال الذين يجب أن نتعلم منهم، لأنه -ببساطة- مخلص في تعليمه، المعلم المخلص في تعليمه لا يسعى إلى شيء، لا يسعى إلى مكافأة، لا يسعى إلى تبجيل، لا يسعى إلى شهرة، لا يسعى إلى قيادة. أحياناً مثل هؤلاء يصبحون مصدر قلق للساعين إلى السلطة.

أبشروا، أبشروا أبشروا بأن القيم ستظل قيماً إنسانيةً وبقية على مدار التاريخ وإلى يوم الساعة، سيذكر المصلحون الحقيقيون، بينما إن ذكر المترددون، وإن ذكر الساعون إلى السلطة فسوف لن يذكروا بخير على الإطلاق. رجائي وأمنيّاتي لذلك الرجل المخلص بطول العمر وموفور الصحة ورسالتي هذه موجه إليه..⁽¹⁾



ثانيًا: حوار الأستاذ هاني رسلان

• لقد تعرفتم على حركة الخدمة على مدار سنين عديدة، وشاركتكم في فعاليات كثيرة، ما الذي يميز حركة الخدمة عن غيرها من الحركات المجتمعية؟ وما تعليقكم على ما تتعرض له الخدمة الآن في تركيا من اضطهاد وقسوة ووحشية على يد النظام الحاكم؟ وكيف ترى رد فعل أبناء الخدمة ضد هذه الانتهاكات؟ وما المستقبل الذي تستشرفونه لحركة الخدمة وقيمها؟

عرفت الكثيرين من أبناء حركة الخدمة منذ سنوات طويلة، وتعرفت عن هذه التجربة عن قرب سواء على مستوى الأفكار أو مستوى الممارسات العملية والأهداف المعلنة. وفي حقيقة الأمر حركة الخدمة قدمت خدمة كبيرة للغاية لكل المجتمعات التي تواجدت فيها من خلال ما تقدمه من تعليم له مستوى عالمي راقى مصحوب بقيم وأخلاق لتساعد في بناء هذه المجتمعات في كل منها في إطارها الوطني.

تعرفت أيضا على جهود حركة الخدمة حول العالم في نشر فكرة التسامح والحوار والافتتاح على الأفق الإنساني الأوسع نقيضاً لفكرة الصراع التي قد يروج لها البعض. ما حققته حركة الخدمة من انتشار واسع ومن تقبل في كل المجتمعات التي تواجدت فيها، إنما يعود في الأساس إلى الأهداف النبيلة التي تتبناها، وإلى الجهود المخلصة التي تبذل لتحقيق هذه الأهداف بدأب وبمحبّة وبرفق.

كما نعرف الآن بعض التقلبات السياسية التي حدثت في تركيا عرّضت الحركة لكثير من الظلم البين عبر ما نتابعه من أخبار، وهذا يأخذ أشكالا عديدة وكثيرة جدا، ومعظمها يثير الألم والأسى من هذا المستوى الذي بلغه النظام التركي الذي يقوده أردوغان من قسوة تصل إلى حد الوحشية دون مبرر ظاهر، حيث إن كل ما هو معلن لا يستند إلى حقائق موضوعية يمكن فهمها أو تقبلها، بل هناك فقدان كامل للمصداقية.

الأصدقاء والصدقات من أبناء حركة الخدمة ما زالوا يتسمون كما عهدناهم في المراحل السابقة بالثبات وبالتمسك بأداء رسالتهم وعملهم الذي وهبوا له حياتهم ونحن نُحييهم ونشد على أيديهم وندعوهم للاستمرار.

وأقول إن الأفكار الرئيسية التي تقود حركة الخدمة سواء من حيث الاهتمام بالتعليم، وبناء الأجيال من حيث إعلاء قيمة الحوار والتسامح الإنساني والانفتاح على الآخر وعلى الحضارات والثقافات المختلفة. هذه أفكار متقدمة للغاية، وهي التي يجب أن تقود هذه الأمة الإسلامية في المستقبل نحو أن تأخذ وضعها اللائق بها، وأن تتقدم وترتقي مراقبي العلم وتتبوأ مقعدها من الإنسانية.^(١)

هوامش

(١) يمكن متابعة اللقاء المصور كاملاً على اليوتيوب من خلال هذا الرابط

(٢) كالهامش السابق

البعد الإنساني والكوني في فكر الخدمة

- لا تتجلى خصوصية الأستاذ كولن في أفكاره الرائعة، ولا كتاباته الرائدة فحسب، بل تظهر أجلى وأكمل في حركة الخدمة التي تستلهم نشاطها من أفكاره، وفي المؤسسات العالمية التي تسهم في بناء الإنسان وتنميته روحياً وعلمياً والارتقاء به ثقافياً وحضارياً، وفي تأييد كل من يقدم خدمة للأمة خاصة، وللإنسانية في تنوعها عامة، ويسعى لخيرها ومساندة ذلك الخير ومساعدته.

- الخدمة حركة تقوم على الفكرة وليس على التنظيم، ومن ثم فهي ملك لكل من يتبنى فكرتها دون قيد أو شرط، إذ إنها ترتبط بالإنسان في أي مكان بغض النظر عن لونه ونوعه وجنسه، وبابها مفتوح للولوج منه، دون التقييد بلافتة، أو شعار، أو شخص، أو انتماء.

- «الهجرة» أحد أهم الأفكار العبقريّة التي تميّز بها فكر الأستاذ كولن، وأبرز معالم «التجديد» في الفكر الإسلامي المعاصر. فقد تحول هذا المفهوم بفعل دعوة الأستاذ كولن وبفعل الخدمة ذاتها إلى معنى متجدد، حيث أصبحت «قَرَارًا» لا «فِرَارًا»، وصارت تعني التغرُّب لخدمة الناس في بلدان أخرى، وأضحت هذه هي السمة الأبرز من الناحية المرئية في حركة الخدمة.

